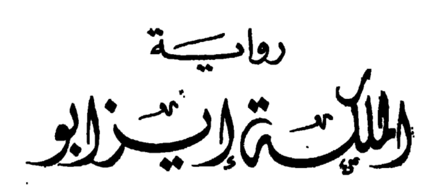

ميشال زيفاكو
رواية
الملكة إيزابو
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0159523

الملكة ايزابو

ميشال زيفاكو



ترجمة
طانيوس عبدو

المجلد الثاني

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠
Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

القسم الثاني

٤٣

حلم برانكايل

لما رأى الفتيان الثلاثة ساتان داخلاً إلى سجنهم مع الدوق دي بورجونيا وذعروا ذلك الذعر الذي لا يوصف انضم بعضهم الى بعض فقال برانكايل .

انه رجل الجزيرة .

وقال برايسكايل : انه ساحر مائدة الرخام .

فارتعش ساتان إذ أيقن انهم نفس اولئك الثلاثة الذين كانوا عنـده وهم اولئك الغلمان الذين طالما علل النفس بأن يتصل بدمائهم الى حـل مشكلة علمية وجعل ينظر اليهم ويقول في نفسه :

لا شك ان الاقدار أخذت بيدي وانما ظفري بأولئك الفتيان بعد فقدهم دليل على ان مشروعي العظيم سيكون مقروناً بالفوز والتوفيق .

وقد دنا منهم وقال لهم :

ألستم انتم الذين عرفتهم ؟

فقال برايسكايل : يا للهول !

وقال براكايل هوذا الشيطان الرجيم .

وقال برانكايل : رحماك لا تمدنا الى تلك الكراسي .

ففرح ساتان فرحاً عظيماً إذ لم يبقَ لديه شك بأنهم هم انفسهم .

ووقف الدوق ووراءه رئيس حراسه وتونفيل وغليوم وكورتيز ، ينظرون الى رعب اولئك الثلاثة ويعجبون فقد طالما رأوهم يقتحمون الموت غير هيابين وهم يرتجفون الآن رعباً امام هذا الرجل .

أما ساتان فانه التفت إلى الدوق وقال :

هلم بنا يا مولاي او يموت هؤلاء الثلاثة .

— كيف يموتون ؟

— من الخوف .

فخرجوا جميعهم من السجن واقفلوا بابه وصعدوا إلى قاعة السلاح وقد اشرق وجه ساتان بنور الكبرياء والرجاء ونظر الى الدوق نظرة هائلة لو ادرك الدوق معناها لهلع قلبه رعباً إذ كان يقول في نفسه :

صبراً ايها الدوق فسيأتي دورك .

ثم قال له الدوق بصوت مرتفع :

— لقد وعدتك وما قيل فقد قيل ففي الساعة العاشرة من هذا المساء يشنقون و ...

فقاطعه قائلاً :

كلا يا مولاي فاني اؤثر ان يكونوا احياء . ولا تخف فانهم سيموتون عندي كما يموتون على المشنقة .

— ليكن ماتريد فسأرسلهم اليك هذه الليلة ولكن ألا تخاف متى ذهب حرامي ان يتمردوا عليك ؟

فابتسم وقال :

ألم ترَ يا مولاي ما كان منهم حين رأوني ولا شك ان رعبهم سيكون أشد حين يكونون عندي .

قال : هو ذاك فقد رأيت من تأثير نظراتك عليهم ما ادهشني فمن انت

ومن أين جئت بهذا السلطان على القلوب وكيف تمكنت من أن توحي الى اوديت عاطفة مخالفة لأميال قلبها وارعبت هؤلاء الثلاثة بنظرة وهم لا يخافون الموت .

كل ذلك لا يهمني ولكن اعلم ايها الساحر انك اذا خنتني بحثت عنك وتعقبتك ولو لجأت الى جهنم .

فانحنى ساتان أمامه بملء الاحترام وقال له :

لا تحتاج يا مولاي الى هذا السفر الشاسع لتراني فانك تعرف منزلي وأنا اعرف منزلك .

فإلى اللقاء يا مولاي فسنلتقي .

ثم ودّعه بإشارة لا يسمح بها الدوق حتى لاكفائه وخرج فلقي في القاعة المجاورة رئيس الحراس فحدثه ملياً وفي ختام الحديث اعطاه زجاجة تتضمن سائلاً اسود .

أما الفتيان الثلاثة فانهم ثابوا من رعبهم بعد ساعتين او ثلاث وجعلوا يتحدثون بأحاديث مختلفة ويجتنبون قول كلمة عما مضى ولكن ذلك المشهد لم يبرح قلوبهم .

الى ان رأى برايسكايل ان يضع حداً لهذا الرعب فقال .

اعلموا ايها الرفاق ان كل ما مر بنا لم يكن إلا من قبيل الرؤيا وان مولانا الدوق لا يسلمنا الى .. الذي تعرفونه ولكننا نشنق فقط .

فقال برانكايل :

أحق ما تقول . أنشنق فقط .

وقد خيل له ان الشنق نعمة في جانب ما كان يخافه فجعل يضحك .

وعند ذلك سمعوا صرير المفتاح في القفل فذعروا ولكنهم ما لبثوا ان اطمأنوا فانهم جاؤوهم بالطعام .

ولكن لم يكن طعامهم كطعام المسجونين قاصراً على الخبز والماء بل جاؤوهم بأفخر الطعام وبأثنتي عشرة زجاجة من الخمر فعلم برايسكايل حين

ورآها انها من تلك الزجاجات التي كان يسرقها حين افلاسه من القبو وقال يخاطب رئيس الحراس الذي جاءهم بالطعام مع الخدم .

اذن لا يريدون شنقنا اليوم ؟

فأجابه الرئيس قائلاً :

ومن اخبركم بأننا نريد شنقكم ولكن مولانا الدوق يريد سجنكم ثمانية أيام لأنكم خدعتموه وقد أمرني أن لا اضيق عليكم لانه محتاج اليكم فاطمأنوا .

وقد تركهم وانصرف وهم يكادون يطيرون سروراً فقال برانكايل .

الحق ان مولانا الدوق طاهر السريرة شديد الحلم .

وقال برايسكايل :

انه من اهل السيف فهو يعرف اقرانه ويغتفر لهم بعض الهفوات .

وقال براكايل وقد نظر إلى ذلك الطعام والشراب .

وددت لو أقمت في هذا السجن ثلاثة اعوام .

وجلسوا على الطعام فعدوا الزجاجات وقال برايسكايل .

انها اثنتا عشر زجاجة يصيب الواحد منا اربعاً منها فلنشرب اثنتين الآن ونبقى اثنتين للمساء .

فاعترضه برانكايل قائلاً :

ان مولاي ارسل لكل منا اربعاً ولا أدري لماذا تريد ان اشرب اثنتين .

فاعترف برايسكايل بأنه اخطأ في الحساب ونتج من ذلك اولئك ان الثلاثة كانوا بعد ساعة صرعى الخمر وشعر برايسكايل بدوار شديد فوضع يده على جبهته وقال :

إني اشرب الخمر منذ عرفت انها تدعى خمراً ولكني لم اشعر مرة بما أشعر به الآن من تأثيرها .

وقال براكايل :

وأنا لم أنم نومة سكر إلا بعد الزجاجة العاشرة على الاقل .

أما برايكايل فقد كان يغط منذ حين ويحلم .

وكان حلمه مضطرباً فحلم انهم حملوه ونقلوه ولكن لم يعلم إلى أين ؟

غير ان تأثيره كان شديداً حتى انه حاول ان يستفيق فلم يستطع .

وما زال على ذلك إلى ان علم الى أين ساروا به فرأى ان حامليه قد نقلوه الى خمارة ووضعوه قرب مائدة رصفت عليها قناني الشراب على اختلافها والطعام على اشكاله :

فكان يصيح قائلاً انه غير جائع ولا يستطيع الأكل ولكنهم حكموا عليه حكماً لا ينقض بأن يأكل جميع ما على المائدة وحذراً من فراره شدوا وثاقه وانصرفوا فلم يستاء لهذا الحكم واذن لهم ان يوثقوه وهو يضحك ويقول:

لا تشدوا وثاقي وثقوا اني لا اهرب .

وبعد ان قيدوه وانصرفوا شعر بشهية شديدة للأكل فنظر الى اوزة وحاول ان يقطعها ولكنه شعر ان يده لا تصل الى الصحن لأنها موثقة فقال:

قبحت عقولهم كيف يريدون ان آكل وأنا موثق اليدين ولكن لا بد لي من الأكل فقد اشتد جوعي .

وعند ذلك بذل جهداً عنيفاً فاستفاق وفتح عينيه فوجد ان حلمه يتصل بالحقيقة إذ وجد نفسه كما كان في الحلم جالساً عند مائدة ينيرها مصباح ووجد نفسه ايضاً كما كان في الحلم موثق اليدين والرجلين لا يستطيع ان يحرك غير رأسه .

غير انه كان في قاعة باردة تختلف عن القاعة التي كان فيها بالحلم .

وبعد هنيهة اخذت الحقيقة الهائلة تتجلى له فما اراد ان يصدقها في البدء لهولها ثم لم يجد بداً من تصديقها ذلك انه رأى نفسه مشدوداً الى الكرسي الذي لم يبرح ذهنه منذ اثني عشر عاماً .

ورأى تلك المائدة الرخامية نفسها فعلم انه في منزل الساحر وان انيناً مزعجاً أجابه عليه برايسكابل وبراكابل بمثله فانهما عرفا ايضاً تلك القاعة

التي طالما انتظرا الموت فيهـــا وقـد عادوا ايضاً الى للابهسم القديم وهو الأحياء الثلاثة .

ومضت ساعة لم يسمع في خلالها غير صياحهم فاذا سكت الواحد صاح الآخر وغالباً كانوا يصيحون جميعهم صيحات واحدة إذ لم يبقَ لهم شيء من الرجاء فان ذلك الميت لم يكن على مائدة الرخـام فيجيء بعد موتهم ويفك قيودهم .

وكانوا لا يجسرون ان ينظروا إلى ما كان في تلك القـاعة فينظر كل منهم الى رفيقـه كأنهم يلتمسون العزاء بهذه النظرات الى ان خجـلوا من أنفسهم لهذا الرعب فقال برانكايل :

اننا لم نعد غلماناً .

وقال برايسكايل .

اننا رجال .

وقال براكايل .

اننا اشداء نستطيع الدفاع .

فأجابهم صوت هلعت له قلوبهم من الخوف .

بل انتم الأحياء الثلاثة .

فارتعدت فرائصهم وودوا لو خسفت بهم الارض ولكن عيونهـم بقيت شاخصة إلى ساتان .

أما ساتان فانه دنا منهم وجعل يفحصهم ويقول في نفسه :

نعم انهم رجال ولكنهم هم أنفسهم . فمن الذي جاءني بهم أهي الصدفة ام هي تلك القدرة العظيمة الخفية التي تريد نجاح مشروعي .. يقولون انهم رجال .. نعم ومن يعلم فقـــد يكون ذلك من احد الموانع .. لقد قرأت في الكتاب الذي سرقته من فلاميل انه يجب ان يكونوا غلماناً انقياء الدم .

وقـد امتنع عند ذلك عن مراقبتهم وجعل يسير ذهـاباً وإياباً يبطء وهو يتأمل ويقول في نفسه :

لقد قال انه يحب ان يكونوا غلماناً وهم الآن شبان فلماذا لا أجرب . . بل لماذا اجرب دون ان اكون واثقاً فاني استطيع ان اجعل اولئك الشبان فتياناً كما فعلت بلورنس دي ابزيم فقد ارجعت ذاكرتها الى عهد اثنتي عشرة سنة مضت فباتت كأنها في ذلك العهد فاذا فعلت مثل ذلك بأولئك الثلاثة واعدتهم بذاكرتهم إلى ذلك العهد الذي كانوا فيه عندي اصبحوا غلماناً وبانت دماؤهم نقية .

وقد تاه في مهامه التأملات نحو ساعة وبعد ذلك جاء الى الفتيان وهم يصيحون فقال لهم :

اسكتوا واصغوا إليّ فقد قلتم لي انكم رجال وحسناً فعلتم بما قلتموه لأني كدت انسى ولكن اصبروا فسأعيدكم غلماناً بعد ثلاثة ايام .

٤٤

سفر هوردي

وكان الشفاليه هردي دي باسفان قد اوقف جواده خارج اسوار باريس وهو في أشد حالات اليأس لأنه لم يتمرن بعد في هذه الحياة وقد بالغ في تجسيم مصيبته حتى حسب انها لا دواء لها وحسب ان شرفه قد تدنس امام الملك وامام اوديت وهو لا يعلم انها قد تصفح عنه بنظرة .

ولذلك عول على ان يعود الى باريس فيعرض نفسه لأعدائه فيموت هناك ودفع جواده ولكنه بدلاً من ان يدفعه في طريق باريس كما كان ينوي سار به في طريق بيارفون .

وذلك ان الإنسان مزدوج وكان يقول في نفسه :

اني لا درهم لي وأنا متهم بقتل الدوق دي أورليان والجنود تطاردني في كل مكان والملكة والدوق دي بورجونيا حاقدان عليّ والملك يحتقرني لأني

لم أوافه في الموعـد المعين وقد انقذني من الموت مرتين فأية فائدة لي بعد من هذه الحياة وخير من افعله ان اعود الى باريس واقتل فيها .

هذا الذي قدره وقوى عليه حين دفع جواده ولكنه لم يلبث ان اطلق له العنان حتى دفعه في طريق بيارفون وذلك ان الإنسان الثاني فيه قد انقلب على الإنسان الأول ودفعه حيث أراد .

وما زال سائراً حتى وصل الى فندق وقد انهكه الجوع فوقف امامه وهو لا مال له وجعل ينظر الى فتاة حسناء كانت واقفة عند بابه .

فلما رأته الفتاة واقفاً عند الباب قالت له :

ان هذا الفندق من أفضل الفنادق ، يا سيدي ، فعلى ماذا تبحث ؟

قال : انني ابحث عن طريق بيارفون .

قالت : انها من هنا ودلته بيدها ، ثم قالت له :

ولكنك لا تستطيع الوصول اليها دون طعام .

قال : هذا الذي كنت اناجي به نفسي أيتها الحسناء ولكن ..

ثم ترجل عن جواده ودخل الى الفندق وهو يعلم يقيناً انه لا درهم بيده، ولكنه فعـل ما يفعله كل إنسان حين يعضه الجوع بنابه وكان أول ما فعله انه أكل وشرب زجاجة من الخمر ، ثم جعل يفتكر كيف يدفع ثمن الطعام والشراب .

وفيما هو مطرق مفكر حانت منه التفاتة الى قبعته الموضوعة على كرسي فرأى عليها ابزيمة من الفضة .

فانتزعها عنها ونادى صاحبة الفندق فقال لها :

ليس لي أيتها الحسناء ثمن الطعـــام الذي أكلته .. لا تقطبي حاجبيك الجميلتين وخذي هذه الابزيمة فقد تساوي ثمن الطعام الذي أكلته .

فأخذت الابزيمة وتمعنت فيها ، ثم قالت :

انها تـسوى ضعف ما أكلته .

قال : إذن ، ليضع أحد خدمك في إحدى فرجتي جوادي علفاً للجواد والثانية طعاماً وشراباً لي .

قالت : سيكون ما تريد ايها الفارس الجميل .

وقد اتفق ان صاحبة هـذا الفندق كانت شريفة فانها علمت ان هـذه الابزيمة لا تساوي قيمة الطعام ولكنها أبت ان تستوفي منه الثمن مستعيضة عنه بنظرة وابتسامة .

وبعـد ساعة خرج هاردي من الفندق وهو يفتكر بهذه المرأة ولكنه لم يسر مرحلة حتى برحت ذهنه ونسيها كل النسيان .

وما زال سائراً حتى وصل الى قصر بيارفون وكان الحراس على الباب فدنا من أحدهم وقال :

اني أسأل مقابلة الملك ، فهل ذلك ممكن ؟

فعجب الحارس لسؤاله وقال :

ان الملك ، يا سيدي ، في قصره وليس هذا قصره .

ـ كيف ذلك أهو في قصر سانت بول ؟ ألم يأت الى هنا مع المدموازيل دي شامديفر يخفره حراسه ؟

ـ لا يوجد ، يا سيدي ، هنا غير أرملة نبيلة تبكي زوجها المقتول غدراً ورجالها الذين يحتشدون بغية الانتقام ولكن ..

وقد خامر قلب الحـارس الشك وحسب ان هذا الفارس من جواسيس الدوق دي بورجونيا .

وكذلك الشفاليه فقد خطر له ايضاً خاطر فجائي فقال :

هل استطيع التشرف بمقابلة السيدة دي أورليان لأحادثها بشأن زوجها النبيل فقد استطيع ان اخبرها بما تجهله .

فنظر الحارس اليه محدقاً فأعجبته هيأته وقال له :

اذا كان ما تقوله اكيداً فان الله قد ارسلك وتكون قد خدمت مولاي

الكونت دي أرمانياك خدمة جليلة ، فهل سمعت اتفاقاً برجل يدعى باسافان ؟

ـ بل اني اعرفه .

ـ أتعرف اين يقيم ؟

ـ نعم .

ـ إذن ، تعال معي .

وسار الحارس يتبعه هاردي ، وهو يفتكر تفكير المهموم حتى مر به بمكان في القصر علا فيه الضجيج .

فقال له هاردي : ما هذا ؟

ـ هذه هي قاعة السلاح بل هي ثكنة القصر ويوجد فيها الآن الفا رجل ويوجد ايضاً مثلهم في ثكنة الحراس ولكن تعال .

فتبعه هاردي حتى وصل به الى أول قاعات الدوقة ، وهناك اوقفه فقال له :

لا بد لي قبل إدخالك ان اخبر رئيس الحجاب باسمك ، فماذا تدعى ؟

قال : اني ادعى هاردي دي باسافان .

ثم فتح الباب بنفسه ودخل غير مكترث للحارس .

اما الحارس فانه عجب لجرأة هذا القاتل الجسور وكان مطمئناً على الدوقة لوجود الحراس فتركه يدخل بالرغم عنه واسرع الى الثكنة التي كان الرجال مجتمعين فيها .

وكانت هذه الثكنة شديدة الاتساع وقد التقى فيها نحو الفي رجل من نبلاء الأقاليم ، وكلهم من اعوان الكونت دي أرمانياك واعداء الدوق دي بورجونيا وقد وقف احدهم خطيباً فقال :

ان رجال دي بورجونيا قد تجاوزوا بقتحهم الحد فاذا لم يتعرض لهم اشراف فرنسا ويوقفوا تيارهم جرفهم لا محالة .

وان دوقهم الذي تعضده الملكة اغتنم فرصة ضعف فلم يكتم نيته من بغية التسلط على باريس وإذلال النبلاء ، أترضون بذلك ؟

فعلت اصوات الجماهير وصاحوا كلهم بصوت واحد كهزيم الرعد قائلين:

الانتقام ، الانتقام .

قال : هو ذاك فان الانتقام لا بد منه وانتم تعلمون ان لدينا ادلة كثيرة تثبت ان دوق دي بورجونيا هو الدافع لقتل رئيسنا ومولانا الدوق دي أورليان ذلك النبيل الذي سقط قتيلاً في شارع مقفر دون ان نجد قاتله ، ولكنكم تعرفون القاتل الحقيقي .

فصاح الجميع قائلين :

الانتقام ، الانتقام .

وعند ذلك دخل الحارس الذي ادخل هاردي وسار تواً الى الخطيب وهو السير دي كومي .

أما هاردي فانه دخل الى قاعة النبلاء فرأى إمرأة لابسة ملابس الحداد جالسة على كرسي وبعض النبلاء واقفون بين يديها بملء الاحترام .

ولم تكن تلك النبيلة الطيبة تبكي لنضوب الدمع من عينيها فقد كانت تعبد زوجها عبادة ، في حين انه كان يميل عنها الى غيرها ، كما عرفناه ولا يكافئها عن وفائها إلا بالخيانة ، فلما قتل زوجها ماتت امانيها بالحياة وقد سمعها كثيرون تقول :

لقد ذهب معنى الحياة فلا خير في لفظها .

وقد دنا هاردي من الدوقة ورفع امامها ، فقالت له بلهجة كئيبة :

من أنت ؟

قال : اني ، يا سيدتي ، رجل نبيل انقذه الدوق دي أورليان مرة من الموت .

فتأثرت الدوقة تأثيراً عظيماً من نبرات هذا الفارس الجميل الذي كان أول اقواله الثناء على زوجها وقالت له بلطف :

اوضح ما تقول .

قال : اني اضطررت ليلة ، يا سيدتي ، الى تجريد حسامي في وجـوه اربعة ممن يدعونهم نبلاء وهم لا يستحقون هذا اللقب .

فذهلت الدوقة وقالت :

أقاتلت اربعة وأنت فرد ؟

ـ نعم ، يا سيدتي ، لأن هؤلاء الأربعة كانوا يهاجمون إمرأة .

فنظرت اليه الدوقة نظرة رضى وقالت له : أتم حديثك .

ـ يظهر ان هؤلاء الأربعة وجدوا انفسهم غير كفوء لقاتلي فاستنجدوا بأتباعهم فانقضوا عليّ من كل صوب فما شككت بالموت .

وعند ذلك جاء زوجك النبيل وأشار إشارة بيده فأنقذني بها من هـذا الخطر الهائل .

وكانت تلك الاشارة إشاره ابطال يا سيدتي لأنه اوقف بهـا رجالاً من ألد أعدائه وربما كانت هذه الإشارة احد اسباب قتله .

فنذرت على نفسي يا سيدتي منـذ تلك الساعة ان اغتنم الفرص فأسفك دمي في هذا السبيل او في سبيل الذين يحبهم .

وقد وصلت وا أسفاه الى شارع بريبت بعـد فوات الأوان ، ولكن هذا السيف الذي تقلدته لأشق به صدور اعدائه أضعه في خدمتـك يا مولاتي ..

فخفق صدر الدوقة وقالت له بلهجة حنو :

اشكرك ايها السيد ولكن كيف اتفق ان يكون لك مثل هؤلاء الاعداء الذين يريدون لك الموت وأنت في مقتبل الشباب ؟

فأجاب بلهجة تشف عن السويداء :

اني اصغر مما تحسبين يا سيدتي واني مدين بهذه الحياة القصيرة لزوجك منقذي ، وإنما اقول حياتي القصيرة لأني أقمت في السجن اثني عشر عاماً .

ـ انت اقمت في السجن هذه المدة ، وماذا جنيت ؟

— الحق اني لا اعلم يا سيدتي وانما ذكرت لك هذه الحادثة لأخبرك بأني ما تمسكت بهذه الحياة إلا اني لم أعش غير القليل ولذلك كان امتناني لمنقذي لا يحيط به وصف ولا يعادله غير امتناني للملكة ايزابو .

وعند ذلك نهض وحال ان يذكر للدوقة اسمه ويحتج على تلك التهمة الهائلة التي لفقها رجال الدوق دي بورجونيا .

غير ان الدوقة قاطمته قائلة :

الملكة .. ألعلها أنقذتك ايضاً ؟

— كلا يا سيدتي ولكنها فعلت ما هو خير من ذلك .

— ماذا فعلت ؟

ان الملكة يا سيدتي لو سألتني حياتي لقدمتها لها كما اقدمها لك ، وذلك انه في شهر يونيو سنة ١٣٩٥ انتزعوا طفلة من امها قبلغ الخامسة من عمرها وهم نفس اولئك الذين ألقوني في السجن .

فارتعشت الدوقة لهذا التاريخ وقالت .

تقول في شهر يونيو سنة ١٣٩٥ ؟

— نعم يا سيدتي ، فان الطفلة كانت تدعى روزالي والأم لورانس دي ابزيم وكانتا كل عائلتي إذ كنت أحب لورانس كأختي ، وأما روزالي فقد كانت حياتي .

وقد قيل لي انهم ساروا بها الى قرية تدعى فيلرس .

فاضطربت الدوقة وقالت :

فيلرس .. شهر يونيو .. سنة ١٣٩٥ ؟!

فذهل هاردي وقال : أجل يا سيدتي .

— ألم تكن زرقاء العينين شقراء الشعر ؟

— هل عرفتها يا سيدتي ؟

— اما هي تلك الطفلة التي عرضت في الكنيسة ؟

— سيدتي .. سيدتي .. يظهر انك عارفة كل حكاية روزالي المحزنة
— وانها مرت بها سيدة فجأة فأنقذتها من إهانة العرض .

سيدتي ان هذه المرأة النبيلة كانت الملكة .

— الملكة ؟!

أجل يا سيدتي ، ولذلك قلت لك اني اعتبر نفسي مديناً للملكة الى ان أفي بالدين بسفك دمي بخدمتها .

فرفعت الدوقة عينيها إلى السماء ثم نظرت الى هردي وقالت له :

نعم اني اعرف حكاية هذه الفتاة واعرف اسمها الحقيقي ولكنك انت لا تعرف الحقيقة فلا يجب ان تحمل هذا القدر من الامتنان لمن لا تستحقه .

— سيدتي ماذا تقولين ؟

— أقول اني تبينت من عينيك ومن كلامك الاخلاص الأكيد فاذا كتمت عنك الحقيقة اسأت الى قلبك النقي واسأت الى الإخلاص واسأت الى الله فاعلم إذن ان تلك السيدة التي انقذت روزالي من إهانة العرض وحملتها بين يديها لم تكن الملكة ايزابو .

فتراجع هاردي مذعراً وقد شعر عند ذلك بعاطفة غريبة لم يعلم تأويلها وهي عاطفة الخلاص من دين ايزابو وإمكان محاربتها فقال :

اذا لم تكن الملكة فمن هي ؟

— هي أنا .

فركع هاردي عند سماعه هذا القول، كما ركع عند دخوله وجعل صدره يخفق خفوقاً عظيماً وقد حبس لسانه عن الكلام فكان سكوته افصح بيان لشكره وامتنانه .

وعادت الدوقة الى الحديث فقالت :

اني عندما رأيت بعد ذلك تلك التي تدعوها روزالي..

فنهض هاردي وقد اصفر وجهه وبرزت عيناه ودنا من الدوقه وهو لا يعلم ما يصنع فقبض علي وقال :

سيدتي أتوسل اليك بالله ان تنتبهي لما تقولين لأنك تحملينني على الظن بأن روزالي لا تزال في قيد الحياة .

– نعم انها في قيد الحياة .

فطاش رأس هردي فقال :

أهي في قيد الحياة .. ساقان .. ساقان الويل لك مما كذبت .. أحق يا سيدتي ما تقولين .. اروزالي في قيد الحياة .. اين هي وماذا تصنع ... وبأي اسم تدعى . اسألك العفو يا سيدتي فقد علمت انها كل حياتي .

فحاولت الدوقة ان تقول له :

ان روزالي تقيم في قصر سانت بول وتدعى اوديت دي شامديفر .

ولكن البـــاب فتح بعنف في تلك اللحظة ودخل منه الكونت دي ارمانياك يتبعه عشرون نبيلاً فدنا من الدوقة وقال :

سيدتي أتعرفين ماذا يدعى هذا الرجل الماثل بين يديك ؟

– ماذا يدعى ؟

– لقد كنت واثقاً بأنه لم يذكر لك اسمــه فاعلمي يا سيدتي انه يدعى هردي دي باسافان .

فتراجعت الدوقة منذعرة وقالت :

قاتل زوجي .

نعم اني ادعى هردي ، شفاليه دي باسافان ، وأبي باسافــان ، الملقب بالباسل ، واسم ابي وحده كاف لتبرئتي فاحذر يا كونت مما ستقوله وانتم جميعكم ماذا تقولون بابن باسافان ؟

فكانت الدوقة تنظر اليه نظرات اعجاب وتقول في نفسها :

كلا ان هذا الفتى لا يمكن ان يكون القاتل .

فقال الكونت دي ارمانياك :

أأنت هو ذلك الرجل الذي انقذ الملكة ايزابو من عصابة المردة بمجرد ظهوره لهم ؟

— نعم انا هو ولكني أراكم تتهموني .. اسكتوا ايها الأسياد واعلموا ان امري لا يتعلق بحياتي بل بشرفي فأنتم تقولون ان المردة انصرفوا حين رأوني ولكن ذلك زور فانهم هربوا والفرق بعيد بين الحالتين كما ارى .

فقال الكونت :

أأنت هو ذلك الرجل الذي احسن معاملة تونفيل ورفاقه في فندق سانت مرتين ؟

فضحك هردي وقال :

لقد احسنت بتشويه وجوههم .

— لا تضحك ايها الرجل فليس هذا الوقت وقت ضحك .

— اني اضحك امام الموت فكيف لا اضحكُ امامك . ثم التفت إلى الدوقة وقال لها :

سيدتي اسألك العفو عن ضحكي فان هذا آخر ضحك اضحكه كما ارى من خطة هؤلاء الأسياد .

فنظر ارمانياك عند ذلك الى الدوقة وقال :

انت يا سيدتي الدوقة وانتم ايها الأسياد لقد سمعتم ان الشفاليه هردي دي باسافان صديق الملكة صديق المردة صديق البورجونيين الذين تظاهروا بالأمس انهم يطاردونه للقبض عليه والحقيقة انهم كانوا يمهدون له سبيل الفرار وانت يا شفاليه دي باسافان أتقسم بالله انك لم تكن في شارع بربيت ليلة الجريمة ؟

فابتسم هردي ابتسام حزن وقال :

اقسم بالله اني في ليلة الجريمة لم أكن فقط في شارع بربيت ، بل كنت قرب الدوق النبيل .

فساد السكوت على الجميع وقال هردي :

اني انتظر ان تصرحوا بما تعتقدونه .

فقال ارمانياك :

اني اعتقد بأنك قاتل ابن عمي اورليان وانتم ايها الاسياد فما ترتأون به ؟
فأجابوه جميعهم قائلين :
- أي عقاب يستحقه هذا القاتل ؟
- الموت : الموت .
فجرد هردي حسامه الطويل وأسند رأسه الى الأرض وقال :
وانتم ماذا تستحقون لاتهامكم رجلاً مثلي بجريمة فظيعة دون برهان اني اتهمكم جميعكم وأقوالكم زور وانكم اجتمعتم ثلاثين رجلاً لتنفيذه .
فصاحوا قائلين : ليمت في الحال .
فقال هردي : حسناً فليمت ومن الذي يريد ان يبدأ بقتلي ؟
فصاح ارمانياك قائلاً .
اقتلوه .
فلمع حسام هردي وهجم الجميع عليه وبات قتله محتماً مقضياً ولكن الدوقة اسرعت في تلك اللحظة بينه وبينهم وصاحت قائلة :
قفوا في مواضعكم فأنا صاحبة الأمر هنا .
فوقف الجميع منذهلين وقال ارمانياك .
ولكن يا سيدتي ..
فقاطعته قائلة بصوت ملؤه الجلال .
انه ضيفي .
فأغمد هردي حسامه كأنما هذه الكلمة كانت مقدسة عنده .
أما رجال ارمانياك فقد تندت عيونهم وجعلوا يتشاورون بالنظر .
وقرأت الدوقة صحة العزيمة في عيونهم فأسرعت الى فتح باب وقالت لهردي : تعال فقال هردي مخاطباً الجماعة .
انكم اهنتموني ايها السادة وأنا أهنتكم ولكننا سنلتقي .
ثم خرج من ذلك الباب الذي فتحته الدوقة فتبعته .

أما الكونت دي ارمانياك فقد رأى ان لا يطيع الدوقة هذه المرة. ودخل من ذلك الباب بغية قتله في الحال ولكنه لم يجد غير الدوقة فقال :
ماذا صنعت يا سيدتي ؟

— لقد انقذته .

— لقد ارتكبت خطأ عظيماً وانت تحسبين انك احسنت .

وكانت الدوقة قد قالت لهردي حين تبعته ، اخرج من هذا الباب واسرع فانهم سيتبعونك .

وقد فتحت له باباً آخر .

اني افضل الف مرة ان أموت هنا على ان تعتقدي بصحة تلك التهمة الشائنة فهل تقسمين بالله يا سيدتي انك لا تعتقدين اعتقادهم ؟

— اقسم بالله يا سيدتي انك لا تعتقدين اعتقادهم ؟

— اقسم بالله انك حاولت انقاذ زوجي التعس وانك وصلت بعد فوات الأوان كما اخبرتني .

فركع هردي وقبل يدها فشعرت الدوقة بحرارة دمعتين على تلك اليد ثم قال :

أتعتقدين اني جدير بأن ارى روزالي ؟

— نعم وسأقول لك ماذا تدعى وأين تقيم ولكن اسرع الآن بالذهاب فاني اسمع الآن اصوات صياحهم وانزل على هذا السلم وعندما تبلغ آخر درجاته تجد رجلاً فقل له فقط « ان عرابة اوديت ارسلتني اليك » اذهب وليحرسك الله .

فخرج هردي وهو يقول في نفسه :

اوديت .. ان هذا الاسم يحميني هنا كما حماني هناك واخرجني من السجن .

وعندما وصل الى آخر السلم لقي الحارس وقال له كلمة السر فأخرجه من القصر من باب خفي فسار به في دهليز تحت الأرض .

وبعد ان اجتاز بابين من الحديد وصل الى اقبية فندق كان مبنياً هناك خاصة لاخفاء ذلك المدخل السري .

وهناك همس الحـــارس كلمة في اذن صاحب الفندق وانصرف فأسرع صاحب الفندق الى احضار جواد وقال لهردي :

اني انصحك يا سيدي أن تسرع بالرحيـل فانهم لا يخرجون من هـذا الباب إلا في أشد ساعات الخطر .

فانتصح هردي بهذه النصيحة وامتطي جواده وسار بـه ينهب الأرض حتى بلغ الى الغابات .

وفي تلك الساعة كان الكونت دي ارمانياك ارسل رجاله في اثر هردي بعد ان بحث عنه بحثاً دقيقاً في القصر ولكنهم ذهبوا بعد فوات الأوان .

اما هردي فانه بعد ان كان مهدداً بخطر الموت قتلاً اصبـح مهدداً بالموت جوعاً .

غير انه سار وهو ضاحك الثغر غير مكترث لهذا الخطر الجديد ولذلك الخطر القديم الذي يتهـدده حين دخوله الى باريس وكان مسروراً لسببين .

احدهما انه بات غير مدين بشيء للملكة ايزابو بعد ان علم ان الدوقـة انقذت روزالي بحيث بات يستطيع ان يقاوم الملكة في سبيل انقاذ اوديت .

والسبب الثاني ان روزالي لا تزال في قيد الحياة .

وقد جعل يجهد فكره عله يعلم السبب الذي حمـل ساتان على القول بأن روزالي ماتت وان الملكة انقذتهـــا من موقف العرض والتشهير فلم يهتد إلى معرفته .

ولذلك عوّل على ان يقابل ساتان ويقف منه على سبب هـــذا الخداع ولكنه كان مع ذلك منشرح الصدر لأن الدوقة وعدتـه بأن تخبره عن اسم روزالي الجديد واين تقيم .

وفيما هو يسير وقف فجأة واصفر وجهه وذلك انه كان يفتكر بروزالي ولكنه لا يرى غير وجه اوديت .

وقد علم لأول مرة انه يحب اوديت فتألم وجعل يتمتم قائلاً :

روزالي .. اوديت .

وما زال يفكر بهما حتى اشتد جوعه والهاه عن كل غرام وبلغ الى فندق ليكبود وهو يكاد يسقط لفرط جوعه .

فكاد اول ما فعله انه ادخل جواده الى الاصطبل ودفع له العلف خلسة وهو لو قطعت يداه لما سرق .

وقد كبر عليه ان يدخـــل الى الفندق ويأكل فيه دون ان يدفع ثمن طعامه لا سيما وهو مدين لذلك الرجل الذي يدعى انه كان السبب في خرابه وجعل يسير هائماً في شوارع باريس .

وما زال على ذلك الى ان أظلم الظلام ووجد نفسه انـــه في الجزيرة فذكر كذب ساتان وقال في نفسه :

هوذا فرصة اغتنمها لسؤال هـذا الساحر كيف قال لي ان الملكة قـد التقطت روزالي وان روزالي قد ماتت .

وعند ذلك غطى وجهه بيده إذ ذكر اوديت وقال في نفسه :

ترى ماذا أصابني ؟ أتحول قلبي الى قلب جـلاد ! أبت محتقراً كالدوق دي بورجونيا والملكة ايزابو ؟.. أحق اني أأسف الآن لأن روزالي لا تزال في قيد الحياة .

غير ان هذا المنكود كان منخدعاً في نفسه فانه لم يأسف لحياة روزالي بل كان كل سروره لهذه الحياة وهو لا يعلم .

ولكن امام رسم روزالي كان يتجلى له رسم آخر .

وقد ألهاه الجوع مرة اخرى عن هذه الافكار وأجل زيارة ساتان وسار حتى انتهى إلى شارع ضيق وهناك شعر ان يداً قد وضعت على كتفه وسمع صوتاً رخيماً يقول له :

هل انت تبحث عني يا سيدي الشفاليه ؟

فنظر هاردي الى تلك الفتاة التي كلمته وأراد ان يحول نظره عنهـا ويسير في سبيله لاعتقاده انها من بنات الهوى

فقالت له : كيف ذلك ، ألا تشرفني بالاستراحة ساعة في بيتي ؟

ثم اطرقت الفتاة برأسها وقالت له :

انك تستطيع الحضور دون خوف ، فان منزلي اصبح طاهر ، وستكون اول رجل دخل اليه ، وأكون سعيدة بتذكار زيارتك .

فتراجع هاردي مضطرباً وقال :

اني لا درهم لي ايتها الفتاة ، ألا ترين اني اضطرب من الجوع ؟

واصفر وجه الفتاة وقالت :

جائع .. رباه ماذا اسمع .. انت تجوع ؟

— كفى يا ابنتي ، والحقيقة اني اريد ان اواصل سيري .

— كلا ، فان الحمى ظاهرة في عينيـك ويدك باردة وجسمك يرتجف ... تعال .. تعال معي او احسب ان ذلك الفارس الجميل الذي قاتل اربعة من اجلي وأعطاني ديناراً . لم تدفعه الشفقة الى ما فعل بل الكبرياء .

فذهل هاردي ونظر محدقاً الى الفتاة فعرف للحال انها هرمين تلك الفتاة التي كانت السبب في عدائه مع تونفيـل ورفاقه يوم أنقذه الدوق دي اورليان منهم .

وعند ذلك تبعها طائعاً وسار معها الى ذلك الشارع الضيق حتى ادخلته إلى غرفة لم يكن فيها شيء من الأثاث يدل على انها من بنات الهوى بل كان كل ما فيها يدل على انها من المتعبدات الصالحات ، فقد كان يوجـد على مائدة خشبية صورة العذراء وأمامها مصباح وتحتها كتاب الصلاة ومسبحة ودينار ذهبي .

فأخذت هرمين الدينار وقالت له :

هذا هو الدينار الذي اعطيتني إياه ، وقد اتفق لي ايام جعت فيهـا

ولكني لم أشأ انفاقه إذ خيل لي بأنه جاء بالسعادة الى منزلي لانك كنت أول رجل كلمني دون احتقار ولانك خاطرت بحياتك من اجلي .

— حياتي ... لو تعلمين ان حياتي لا قيمة لها لما كنت ممتنة لي .

فقالت: اما الليلة فقد استعضت بوجودك عن هذا الدينار ولذلك سأنفقه.

— وأنا اوافق على انفاقه .

فنادت هرمين قائلة :

تعالي يا حنة واجلسي مع هذا الشفالييه الذي تفضل بقبول ضيافتنا.

— من هي حنة هذه ؟

— انها فتاة حسنة السيرة تقيم في هذه الغرفة المجاورة لغرفتي .

— وعند ذلك أخذت هرمين الدينار وخرجت وهي فرحة القلب ودخلت امرأة اخرى .

وكانت هذه المرأة لورانس دي ابزيم .

٤٥

حنة

ان هذا الشارع الذي تقيم فيه هرمين ولورانس كان من الشوارع الخاصة ببنات الهوى ولما خرجت لورانس من قصر سانت بول بعد ان قابلت بنتها اوديت جاءت تواً الى هذا الشارع .

وكانت خطة ساقان بشأن ذاكرة لورنس منقسمة إلى قسمين ، فكان يحاول بالأول ان يجعلها تنسى الماضي كل النسيان ، وبالثاني ان تذكر كل ماضيها فاذا اراد الأول جعلها تتذكر انها حنة وانها تقيم في شارع بنات الهوى ، وانها لا تذكر شيئاً من ماضيها .

واذا اراد الثاني جعلها تذكر حقيقة امرها وانها تدعى لورنس دي ابزيم وابنتها روزالي وعشيقها دوق دي بورجونيا وانهـا وصيفة الملكة الى غير ذلك من حوادثها الحقيقية .

ولكن عواطف قلبهـا كانت تنتصر احياناً على شراب ساتان فيعود اليها شيء من ذاكرتها فاذا طلب اليها حين ضاع ذاكرتها ان تقتفي ببنـات الهوى تأنف من ذلك وتنفر نفوراً عظيماً دون ان تعرف السبب .

وقد اتفق لها ليلة انها دخلت الى غرفتها وفتحت صندوقها واخرجت منه كل ما تحتـاج اليه بنات الهوى من ادوات الزينة والبهرجة فوقفت امام المرآة وجعلت تزين نفسها على طريقة بنات الخلاعة وهي تشعر انها مدفوعة الى ذلك بقوة خفية عظيمة لا تغلب فتنفر وتبكي ولكنها تتبهرج وتتزين على تلك الطريقة المنكرة بالرغم عنها .

حتى اذا اتمت تزينها خرجت الى الشارع ، فلم تسر بضع خطوات حتى رأتها شرذمـة من أولئك المومسات ، ورأين جمالها ، وانها لابسة ملابسهن فأنكرن عليها المزاحمة اذ حسبن انها تقيم في شارع آخر ، وانها اتت الى هـذا الشارع لمزاحمتهن الشائنة .

فتألبن عليها وجعلن يوسعنها شتما ووعيداً ويقلن لها إذهبي الى شارع وادي الحب فليس هذا مقامك .

فخـافت المنكودة شرهن وجعلت تركض هائمـة وهي تتلفت وراءها حتى توارت عن انظارهن .

وكانت قد تجـاوزت ذلك الشارع الى شارع آخر لا يقيم فيه احـد من أهل الدعارة .

وهناك وقفت حائرة لا تعلم الى أين تسير ، ولكنهـا ذكرت ان أولئك اللواتي كن يطاردنها كن يقلن لها إذهبي الى شارع وادي الحب .

وبينا هي واقفة مر بها جنـدي من الشرطة المحافظة فنادته وسألته ان يرشدها الى شارع وادي الحب وهو اشهر شوارع المومسات .

فعجب الجنـدي لسؤالها ، اذ رآها بلباس بنات الهوى وانها لا تكتم امرها عن الجنـدي وهي تعلم ان امثالهـا لا يحق لهن الإقامة والمسير إلا في شوارعهن الخاصة .

ولكنه أعجب بجهالها ، وحسب انها لم تسأله هـذا السؤال إلا من قبيل المداعبة ، فقال لها : هلمي بنا اوصلك الى هذا الشارع .

وسارت معه حتى اذا انتهى بها اليه قال لها :

هو ذا الشارع فأين هو منزلك فأذهب بك اليه؟

فاضطربت المسكينة وقالت :

اني لا منزل لي ولكنهم قالوا لي إذهبي الى شارع وادي الحب فذهبت .

فحسب الشرطي انها تهزأ به وكبر عليه ذلك اذ كان من حقه ان يقبض عليها فغضب وقبض على يدها بعنف وهو يقول بلهجة ارعبتها :

ويحك يا شقية أتجسرين على الهزء برجل من أهل الشرطة ؟

أما لورانس فانها تألمت من ضغطه وذعرت للهجته وتخلصت منه بعنف واسرعت الى الفرار فجعلت تركض هائمة وهو في اثرها الى ان دخلت منعطفاً مظلماً فتوارت عنه وارتد صاخباً لاعناً .

وما زالت تركض وهي لا تعي لشدة خـوفها حتى وهنت قواها من الركض وبلغت الى منزل له سلم فجلست على عتبته واهية القـوى وجعلت تبكي بدموع سخينة .

وكان هذا المنزل نفس المنزل الذي تقيم فيه هرمين .

فاتفق ان هرمين كانت خارجة من منزلهـا في تلك الساعـة لغرض من أغراضها فوجدت تلك الفتاة جالسة على عتبة السلم تبكي .

فتمعنت بها هرمين ورأت ان ملابسها ملابس بنات الهوى ولكنها علمت لأول وهلة انها ليست منهن .

فبعد ان فحصتها فحصاً دقيقاً اخذت بيدها وقالت لها :

أين تقيمين ؟

فأجابتها قائلة: ليس لي منزل .. بل لي منزل .. كلا، لا اعلم فاني ادعى حنة ولكن يظهر ان هذا المنزل ليس منزلي فقد قالوا لي ان اذهب الى وادي الحب .. أهذا هو الشارع الذي ذكروه لي ؟

وكانت المحاورة قصيرة بينها غير ان هرمين استنتجت منها ان حنة لا مأوى لها وانها مصابة بنكبة غريبة وانها لا تعمل ابداً بتلك المهنة الشائنة التي كانت تلبس ثياب اصحابها ، فقالت لها، وقد سرت الى قلبها عاطفة الإشفاق .

أتريدين ان تقيمي معي ولو بضعة ايام ؟.. نعم ، انك تريدين ، فتعالي معي .

فامتثلت لها لورانس واقامت عندها في الغرفة المجاورة لغرفتها .

وفي اليوم التالي عادتا الى المباحثة فقالت لها هرمين :

اني اعيش هنـــا بالتطريز فاني اعرف كثيرات من النبيلات يشترين ما اطرزه لهن بخير ثمن .

فقالت لورانس : التطريز ؟

قالت : نعم ، فانها صناعة لا يعلمونها الفقيرات امثالي ولكني اكتسبتها إكتساباً .

قالت : يظهر لي .. ولكن ، نعم ، اني اعرف هذه الصناعة .. نعم ، اني اعرف التطريز .

ـ ان ذلك لا يدهشني حتى ولو قلت لي انك تعرفي القراءة والكتابة فان كل ما فيك يدل على انك من أهل النبل .

ـ أنا من اهل النبل ولكني قلت لك اني ادعى حنة .

وخلاصة هذه المباحثة انها اتفقتا على التطريز فكانت لورانس تشتغل وهرمين تبيع .

٤٦

الميت يبحث عن مكانه

تقدم لنـا القول ان هردي دخل الى غرفة هرمين وان هرمـين ذهبت لتشتري طعاماً بحيث بات مع لورانس فقالت له :

اهلاً بك يا سيدي فقد اخبرتني هرمين بحديث الدينار وما تلاه من ذلك القتال فأعجبت بك دون ان اراك .

فوقف هردي ينظر اليها مندهلاً مبهوتاً ويقول في نفسه : ان هذه المرأة لا يمكن ان تكون من اهل الطبقة الدنيا .

ولكنه لم يلبث ان عرف اسباب دهشته فقال :

ولكن .. نعم اني اعرف اسمك فانك لا تدعـــين بذلك الاسم الذي ذكرته .

— اسمي أنا ؟

فارتعد هردي وتمثلت له ادوار حداثته وعرف اسم هذه المرأة لانــــه عرفها .. نعم انه عرفها بالرغم عن ملابسها إذ لم يكن قد تغير فيهـا غير هذه الملابس وقال في نفسه :

ترى أي قصد لها بهذا التنكر وتغيير اسمها وكيف لم تعرفني وقد فاته انه قد تغير تغييراً عظيماً فدنا منها وأخذ يدها بين يديه وقال لها :

لورانس ... انك انت التي كنت ادعوها اختي الكبرى ... لورانس ... لورانس دي ابزيم ، اذكري هذا الرجل الذي يكلمك فهو هردي .. هردي دي باسافان .

فهزت لورانس رأسها ولكنها كانت تضطرب إذ كانت تريـد ان تقول

شيئاً ولا تستطيعه فان دواء ساتان كان ضاغطاً عليهـا فكانت تظهر بمظهر امرأة تؤثر الموت على الاعتراف بما تريد كتمانه .

وقد رأى هردي ذلك منها فاصفر وجهه واضطرب وقال :

انك لورانس دي ابزيم .. ماذا ارى أتنكرين اقامتك في منزل باسافان.. امي التي ربتك .. أتنكرينني أنا وقد كنت احبك حب اخ .

ـ اني ادعى حنة .

ـ وابنتك .. ابنتك التي لا تزال في قيد الحياة أتسمعين .. اني سأراها واجيء بك اليها . روزالي .. روزالي .

فاهتزت كأنما جسمها قد تكهرب لذكر هذا الاسم وظهرت بمظهر الموثق يحاول تقطيع قيده بالعنف ثم قالت بصوت تمزق له حلقها .

روزالي .. ما هذا الاسم الذي ذكرته .. ابنتي .. ليس لي ابنة .

فنظر اليها نظرات يأس وقال :

روزالي .. روزالي .

ـ لا توجد روزالي .

فأطلق هردي يدها وتمعن في وجهها هنيهة ثم قال في نفسه :

ما هذا الشبه العجيب فقد كنت اقسم لأول وهلة انها لورانس . ولكنها ليست هي .

وكانت هرمين قد عادت في ذلك الحين بما احضرته من الطعام والشراب ، فجعل الشفاليه يأكل وهو لا يفتأ ينظر إلى لورانس حتى اذا فرغ من الطعام نهض فشكر هرمين وودعها وهو يقول : انك انفقت محلي هذا الدينار فلا أنسى ذلك ما حييت .

فقالت له هرمين : ولكنك قلت لي انك ليس لك مأوى .

ـ هو ذاك ولا سيما اليوم .

ـ ولكني استطيع ان أنام الليلة مع حنة وتبيت انت في غرفتي اقول هذا وأنا لا ادري اذا كان يحق لي ان اطمع بضيافة شفاليه مثلك .

فأخذ يدها بين يديه وقال لها بلهجة اخوية .

انك جديرة بضيافة امير ولكني اكره ان يرى الناس في صباح غد رجلاً خارجاً من عندك .

فأطرقت هرمين برأسها وكان فرحها عظيماً لأن هردي عاملها معاملة فتاة لها سمعة وحشمة .

وانصرف هردي بعدي ان نظر نظرة أخيرة الى لورانس وكانت الساعة الحادية عشر من المساء .

* * *

وبينما كان هردي يسير وهو يحدث نفسه بأمور مختلفة كان ساتان يسير في غرفته ذهاباً وإياباً وهو يبحث عن ذلك الاكسير ، اكسير الخلود .

وكانت علائم القلق ظاهرة عليه فانه كان يحتاج الى ميت وثلاثة احياء وقد وجد الاحياء وهم الفتيان الثلاثة فكيف يجد الميت .

ولذلك عول على ان يكتفي بالاثنين من الاحياء ويقتل احد الثلاثة فيستعيض به عن الميت .

ولكن القتل يجب ان يكون دون اهراق دم وذلك سهل فان نقطة واحدة من تلك السموم التي عنده تصعقه .

أما سبب قلقه فهو ان الكتاب الذي أخذ عنه طريقة اكسير الخلود جاء فيه ان الاحياء يجب ان يكونوا غلماناً صغاراً وان يكونوا ثلاثة فجعل يقول في نفسه :

لماذا لا يصح أن يكونوا فتياناً وان يكونوا اثنين بدلاً من ثلاثة ألا يمكن ان يكون الكتاب مخطئاً ؟

وفوق ذلك فقد ارجعت ذاكرتهم الى سن الحداثة وعبثت بها كما اشاء مثل ما فعلت بلورانس .

ثم مشى اليهم وهم مقيدون على الكراسي فسأل برايسكال قائلاً :

قل لي كم لك من العمر واحذر ان تكذب .
فاصطكت اسنان برايسكايل من الرعب وقال :
اربعة عشر عاماً .
فقال لبرانكايل : وانت ؟
ــ خمسة عشر .
وقال لبرا كايل ، وانت ؟
ــ ستة عشر .
قال : انهم لا يزالون احداثاً وما زالوا قد عادوا بكل مـا بهم الى دور الحداثة فلماذا لا تعود دماؤهم ايضاً .
وقد تركهم وانصرف ثم عـاد اليهم قبل انتصاف الليل بنصف ساعـة وجعل يفحصهم ويقول :
من منهم يحب ان يكون الغلام الميت دون اراقة دمائه .
وبعد ان فحصهم بملء الانتباه دنا من برانكايل ووضع اصبعه على جبهته .
فصاح برانكايل صيحـة رعب وهو مع ذلك لا يفهم لمـاذا خصه ساتان بهذا التشريف ولكنه كان موقناً انه ما اختصه دون رفيقيه إلا لأمر هائل . وجعل الاثنان ينظران دون ان يفوها بكلمة ولكن عيونهما كانت تتقدان .
أما ساتان فقد قال :
حسناً فسنبدأ عند انتصاف الليل .
فجعل الثلاثة يصيحون ويرتجفون على كراسيهم وهم عاجزون عن الدفاع .
وعند ذلك فتح الباب ودخلت منه امرأة فقالت لساتان .
ألا تسمع انهم يقرعون الباب الخارجي ؟
فارتعد ساتان وقال للثلاثة بلهجة المتوعد .
اسكتوا او ابدأ منذ الآن .
فسكتوا ولم يعد يسمع غير صوت قرع الباب .
فقال ساتان : من الذي يقرع الباب ألعلهم كثيرون ؟

فقالت جيرود : لا فانه لا يوجد غير رجل واحد ولكنه يتقلد حساماً .
ـ أأنت واثقة انــه وحده ومن عسى ان يكون ومن يجسر على المجيء الى منزل ساتان عند انتصاف الليل ؟
وقد اجتاز القاعات الثلاث مسرعاً وذهب الى الباب الذي يقرعونه من الخارج وفتح نافذة صغيرة من ذلك الباب وقال للطارق :
من انت .. اذهب في سبيلك .
ـ كلا لا اذهب فاني قادم اليك فافتح .
فارتعش ساتان لهذا الصوت وقال :
ألا تعلم اي باب تطرق وان الليــل قد انتصف وان الاحياء لا يدخلون في مثل هذه الساعة الى منزل ساتان ؟ .
ـ لا بد لي من ان ادخل ميتاً او حياً فقد تلاقينا من قبل وهــذه هي المرة الثالثة التي يدخل فيها هردي دي باسافان الى هذا المنزل .
ـ هردي دي باسافان ؟
فضحك هردي وقال :
نعم أنا هو ويظهر ان اسمي سحري يفتح الأبواب .
ولكنه لو علم بما كان يجول تلك الساعة في ضمير ساتان لامتنع عن الضحك بالرغم عن بسالته .
وفتح ساتان الباب ودخل هردي وهو يضحك وكذلك ساتان فانه كان يضحك ايضاً ويقول في نفسه :
لا شك ان القدرة الخفية التي تريد نجاح مشروعي قــد ارسلت إليّ هذا الرجل والحق إني أأسف عليه فاني كنت اود ان اعده للانتقام من الدوق دي بورجونيــا ولكنه ليس هردي دي باسافان الذي حضر بــل هو الميت الذي عاد الى محله ذلك الميت الذي ينتظره الأحياء الثلاثة .
ودخل الاثنان الى القاعة الأولى وكانت جيرود قد وضعت فيها مصباحاً بينما كان ساتان يحكم اقفال الباب الخارجي فقال له هردي :

انك عارف باسرار جهنم فهل الذين يقضي عليهم بالعذاب فيها يضطرون حين يدخلون الى الانتظار كما انتظرت وهل يحكم رصيفـك رئيس الأبالسة اقفال بابها كما تحكم انت اقفال بابك ؟

ــ دون شك ايها الشفاليه إذ يجب علينا حماية انفسنا .

ــ وماذا عساك تخشى أالملك تخاف اللصوص ؟

ــ كلا ولكني اخشى الأموات الذين يريدون الدخول الى منزلي بالرغم عني.

ــ اذن لماذا تخافني ألست من الاحياء ؟

ــ من يعلم .

فارتعش هردي ولكنه تغلب على ضعفه العارض وقال له :

كفى فاني اريد ان اسألك عن اكذوبة كذبتها .

فانحنى ساتان امامه وقال وهو يبتسم .

اذن تفضـّل بالجلوس هنيهة إلى ان أعود اليك فقد وضعت قدراً على النار اريد انزالها .

فجلس هردي وانصرف ساتان فدخل إلى القاعة التي كان فيهـا الثلاثة فأخرج زجاجة من خزانة وأخذ منديلاً فصب فوقه بضع نقط منهـا وهو يحبس أنفاسه كي لا يشمها ثم خبأ ذلك المنديل تحت ردائه وعاد الى هردي وعيناه تتقدان فقال له هردي :

اذن انت من السحرة كما يقولون ؟

هو ذاك ايها الشفاليه .

ــ اذا كان ما تقول فلا بد لك ان تعرف السبب الذي دفعني الى زيارتك.

ــ ليس ذلك بصعب فانك قادم من قصر الدوق دي اورليان وقد قلت انـك تريد ان تسألني عن اكذوبة كذبتها وذلك واضح لديّ فانك علمت هناك بأن روزالي لم تنقذها الملكة كما اوهمتك بل الدوقة فالنتين وقد علمت ايضا ان روزالي لا تزال في قيد الحياة أليس كذلك ؟

فقطب هردي حاجبيه وقال له :

اذن لماذا كذبتني ؟

ـ لانه كان لي فائدة يومئذ بالكذب عليك لاعتقادي انك كنت من الأحياء وانك متمسك بالحياة .

فارتعش هردي وقال :

انك كذبت عليّ في تلك الساعة لاعتقادك اني من الأحيـاء واما هذه الليلة فلماذا لا تكذب لنفس السبب ؟

ـ ذلك لاني ارى من انت ايها الشفاليه .

ـ ماذا ترى ومن انا ؟

ـ انك الميت الذي ينتظره الأحياء الثلاثة .

فتبين الغضب في وجه هردي ونهض عن كرسيه فدنا من ساتان وقال :

اني اغفر لك كونك أردت قتلي على مائدة الرخام وأما تلك الاكذوبة فسأعاقبك عليها شر عقاب .

وكان ساتان يراقب حركات هردي أتم المراقبة فقال له :

لا انكر اني مخطيء وانه يجب معاقبتي ولكن كيف ذلك ؟

ـ انه كان يجب ان اقتلك كما تستحق ولكن يقيني الآن من حياة روزالي غير قصدي فأنا اعفو عن قتلك واكتفي بقطع اذنيك .

وقد مشى اليه وهو يريد تنفيذ وعيده لا محالة ولكن ساتان وثب اليه وثبة منكرة وقبض على عنقه .

فضحك هردي وقال: اني أفضل ان ارى منك هذا الدفاع كي لا يقرعني ضمـــيري .

ثم قبض على وسطه بذراعيه القويتين وضغط عليه ضغطاً عنيفاً .

ولكن ساتان بدأ يشعر ان هـــذا الضغط أخذ بالضعف ورأى عينيه قد غارتا والعرق يسيل من جبهته وذلك ان ساتان لم يدافع أقل دفاع بل تركه يضغط عليه واكتفى بوضع ذلك المنديل على انفه .

فلم يمر بضع ثوان حتى سقط على الارض لا يعي فاتقدت عينا ساتان ببارق من الرجاء ونادى جيرود فقال لها : اسرعي وساعديني على نقله إلى مائدة الرخام .

وبعد هنيهة كان هردي ممدداً على تلك المائدة لا يعي وساتان يقول : انه لا يستفيق قبل ساعة وهي كافية لانقاذ مهمتي فيه وقتله دون ان أريق دمه .

وقد رأى الفتيان الثلاثة ما جرى وعرفوا لفورهم الشفاليه فجمدت الدماء في عروقهم وصاحوا صيحات منكرة .

فقال لهم ساتان : اسكتوا ايها البلهاء واعلموا انه يجب ان تكونوا راضين فهذا هو الميت قد عاد اليكم .

وقد أخذ عند ذلك يكشف الملابس عن صدر هردي .

٤٧

ولنعد الآن إلى قصر سانت بول فانه بينما كان الكلب ماجور قد اطلق سراحه وهرول إلى اوديت يلاعبها وهو لا يعلم السبب في سجنه .

وبينما كانت اوديت مطرقة مفكرة مهمومة تنظر من حين إلى حين إلى ذلك الكلب الهائل وتقول له في نفسها : انك لو كنت حاضراً لما قتلوا الشيخين .

كانت ايزابو جالسة في غرفتها المحاذية لغرفة النمرة وهي تفكر في امر هائل لا يخطر في بال .

وفيما هي على ذلك دخل اليها ريدون فقال :

سيدتي لقد جاء الخادم بطعام النمرة .

فاتقدت عينا النمرة ببارق من نار كأنها قد فهمت معنى لفظة الطعام .

غير ان ايزابو أجابت ريدون قائلة :

ارجعوا الطعام إلى موضعه .
فدنا منها مروض الوحوش وقال :
ولكن النمرة اذا لم تأكل يا مولاتي تهيج ويستحيل بعد ذلك الدنو منها .
فنظرت اليه نظرة وحشية وقالت :
يظهر انك يئست من الحياة وتريد ان اشنقك .
فتراجع الرجـــل مذعوراً ثم انحنى بملء الاحترام وانصرف وهو يقول في نفسه :
لا شك انها في حاجة الى استخدام براثن النمرة في اغراضها الهائلة .
فلما اصبحت ايزابو وحدها جعلت تخاطب النمرة ضاحكة وتقول :
نعم ، انك ستجوعين ولكنك ستأكلين خيراً من اللحم الذي تأكلينه .
ثم جعلت تجلدها بالسوط ، وتدفعها الى غرفتها الخـاصة بها حتى اذا دخلت اليهـا ، اقفلت عليها الباب ، فكان القصر يضطرب كل ذلك اليوم بزئيرها .
ففي الليـل ، وفي نفس الساعة التي دخـل فيها هاردي الى باريس ، نادت ايزابو رئيس حراسها ريدون ، فجاء اليها وهو مصفر الوجه مضطرب الاعضاء .
فنظرت اليه محدقة وهي تعلم سبب اضطرابه وقالت له :
أفعلت ما أمرتك بفعله ؟
قال : نعم ، فان الطريق باتت خالصة الى غرفة أوديت .
ـ ولكني أراك تضطرب، يا ريدون فقل الحقيقة هل أنت خائف ؟
ـ الحق ، يا سيدتي ، اني اشعر بخوف لم أشعر به طول حياتي .
فابتسمت وقالت : ألعل خوفك من النمرة لجوعها ؟
ـ كلا ، فانهـا لو مزقتني بأنيابها امامك ، لما خفت ، لاني لا أخاف الموت .
ـ إذن ، مما تخاف قل الحقيقة واعلم يقيناً اني اغفر لك .

فنظر اليها محدقاً كأنه يريد ان يستوثق من صدقها وقال لها :

اني اخاف ، يا سيدتي ، مما سنصنعه فانه هائل فظيـع .

فسكتت الملكة هنيهة كان ريدون يضطرب في خلالها اضطراب الريشة في الهواء ، ثم قالت :

حسناً ، فاذهب .

قال : سيدتي .

قالت : قلت لك اذهب فاني اطردك ما زلت تخاف ولا اريد بعد الآن ان أراك .

وأنت ترى اني صفحت عنك ، ولم اقبض عليك، ولم اطرحك في سجن هيدرون ولم انفك من باريس ، بل اني اطردك فقط فاذهب .

وكانت تتكلم دون غضب فكان هذا الذي يخيف ريدون على انه لم يركع كما كان يفعل عادة حين يلتمس الغفران ، بل لبث مطرقاً واجماً يضطرب ولا يعلم ما يقول .

فقالت له برفق :

إذهب يا ريدون ما زلت تخاف ؟

فحلت عقدة لسانه وقال لها :

اقتليني ، يا سيدتي ، فاني أؤثر المـوت على فراقك .. أأنا اذهب ولا اعود ارى جلالتك.. ولكن أيمكن ذلك ان يكون.. ومن أنا ، يا سيدتي، في هـذا الوجود إني كنت رجلاً من النبلاء حين تدانيت ونظرت اليّ في شامبانيا وبعد ذلك اصبحت كلبك الأمين لا اعيش إلا بقدر ما تسمحين لي ان اعيش واموت حين تريدين ان اموت. سيدتي، انك تستطيعين قتل كلبك حين تريدين ولكنك لا تستطيعين طرده

فنظرت اليه ايزابو نظرة تشف عن ملء الرضى وهي تقول في نفسها : لا شك في صدق ما يقوله فهو أوفى من الكلب ، ثم قالت له :

حسناً فابق .

فتنهد ريدون تنهد المتفرج بعد ضيق وقالت له ايزابو :

نعم ، لقد رضيت ان تبقى ولكني اشترط عليك ان لا يصفر وجهك ولا يضطرب قلبك ولا ترتجف اعضاؤك ، فما عيبك إلا الطاعة والامتثال ، واذا مت تموت معي ، أليس كذلك ؟

ـ دون شك .

ـ إذن ، فاعلم اني اموت لا محالة اذا بقيت هذه الفتاة في قيد الحياة أفهمت ؟

واني لا اريد ان تكون اسيرة الدوق دي بورجونيا لاني أنا احب هذا الدوق أفهمت ؟

قال : سيدتي ، اذا لم يكن القصد إلا قتل هذه الفتاة ، كان الأمر سهلاً .

ـ هو ما تقول ولكنها اذا قتلت قتلاً علم جميع الناس في اليوم التالي ان الملكة الشريرة قتلت ملاك القصر .

كلا ، يا ريدون اني لم استقل بعد استقلالاً ظاهراً فأستطيع ان اصدر الأمر بالاعدام ولكنها اذا ماتت لحادث عارض لا يستطيع ان يتهمني أحد وان الحيوان المفترس قد يتفق له ان يهرب من قفصه ويدخل الى البيوت فان ذلك قد حدث مراراً .

واطرقت الملكة مفكرة ، ثم قالت :

أعلمت بالتدقيق ماذا يصنع الملك ؟

قال : ان الملك لا يخرج هذه الليلة من قاعاته لأن الدوق دي بورجونيا ارسل اليه طبيبان يلازمانه .

ـ من هما هذان الطبيبان ؟ أما هما الناسكان بطرس توزانت ومرتين المنسلوت ؟

ـ هو ذاك فانها سيعملان كل هذه الليلة لإخراج الشيطان من صدر الملك وهذا كل ما اعرفه بهذا الشأن .

ـ وهذا يكفي فأذهب الآن وتأهب للحضور الى حين ما ادعوك وائتني مدججاً بالسلاح .

فانحنى ريدون وانصرف وبقيت الملكة وحدها تصغي الى زئير النمرة وتفكر في حين واحد بذلك الفارس الذي انقذها من الغابات من عصابة المردة وحال بين البورجونيين وبين أوديت فتحتدم غيظاً وتقول :

آه لو كان هذا الرجل لي إذن لكان ينتقم لي من الدوق ومن الملك ومن أوديت ولكن هيهات ان اظفر به .

ثم هزّت رأسها وقالت : لقد دنت ساعة العمل ، ونادت ريدون فقالت له :

يجب ان تمهد السبيل للنمرة فلا تلقي أحداً من الأحياء في طريقها .

فذهب ريدون ، وعاد بعد هنيهة ، وقال : لقد قضي الأمر وخلت الطريق .

ـ حسناً فأذهب الآن ومتى رأيتني خرجت مع النمرة فاتبعني على مسافة قصيرة وكن متأهباً لكل طارىء .

ـ ولكن ، سيدتي ، أتذهبين وحدك ؟

ـ قلت لك اذهب وكن متأهباً لا لمقاومة النمرة فاني اكتفي لصدها بل لمقاومة من تلقاهم من الرجال اذ اتفق لنا لقاء أحد .

فنظر ريدون نظرة رعب وإعجاب الى الملكة وانصرف .

فاسرعت ايزابو الى إحدى غرفها فلبست ثوباً يشبه ملابس القتال وأخذت حربة من الفولاذ وفتحت باب غرفة النمرة فوثبت الى القاعة وثبة الحيوان الجائع فاستقبلتها ايزابو الحربة فردتها الى إحدى زوايا الغرفة .

وهناك وقفت النمرة حائرة غضبى وقد دنت تلك الساعة الهائلة ، التي انما تفوز فيها ايزابو باخضاع النمرة أو تقتل .

وقـد ربضت تلك النمرة ، ونظرت الى ايزابو نظرة دموية ، وتحفزت للوثوب .

ورأت ايزابو انها ستثب عليهـا فبدأتها الهجوم وأدنت تلك الحربة من رأسها وجعلت تضربهـا بالسوط وكلما حاولت ان تثب تشعر بوخزة الحربة وبوقع السوط .

وقد دام ذلك بضع دقائق الى ان القت ايزابو السوط من يدها ووضعت الحربة على مائدة ذلك ان النمرة قد خضعت أتم الخضوع .

وعند ذلك أخـذت طوقاً من الجلد فوضعته في عنقها وربطت به سلسلة طويلة من الحـديد ، ثم اخذت حربتها وسوطها وامسكت بالسلسلة وقالت النمرة : سيري الآن .

فامتثلت خاضعة وخرجت من الغرفـــة الى الرواق وايزابو في اثرها تطـاردها بوخز الحربة وجلد السوط وريدون وراءهما ينظر الى تلك المرأة الناعمة الحسناء في اثر النمرة فاشبهها بهرقل حين كان يخرج الى الاسود .

وجعلت تدخل بها من رواق الى رواق فتجد جميع الأبواب مفتحة ولا ترى أحداً من الحراس الى ان وصلت الى القاعة التي تقيم أوديت فيها وكانت أبوابها مفتوحة ايضاً فان ريدون كان قد اغرى الجميع حتى حراس أوديت وخادماتها .

وعند ذلك فكت ايزابو قيد النمرة فاندفعت الى ذلك الباب المفتوح .

***

ولنعد الآن الى أوديت فقد كانت في ذلك اليوم متأهبه لأستقبال الملك حسب عادتها في كل يوم .

ولكنه لم يحضر اليها فرأت ان تذهب اليه .

فلما وصلت الى قاعاته استقبلها رئيس الحجاب وقال لها :

ان الملك لا يدخل اليه أحد اليوم ، حتى الملكة نفسها ، فأنه مختل مع طبيبه .

فرجعت أوديت الى غرفتها وهناك جاءتها إمرأة فقالت : ان الملك قد ارسلها اليها لتكون في حراستها وخدمتها كما كانت مرجنتين التي قتلها رجال الدوقة فقبلتهـا أوديت شاكرة ودلتها على الغرفة التي يجب ان تقيم فيها وأمرتها ان لا تؤذن لخادمة من خادماتها بالدخول اليها فانها تحب ان تكون وحدها .

وقد كان قلقها شديداً فجعلت تقول في نفسها :

ترى لماذا لا يؤذنون لي ان ارى الملك ؟.. ولماذا لا يأتي الملك الي وما هذان الصبيان ، فلا بد ان يكون هناك أمر خطير ، ولكن ما عسى ان يكون ؟

وبقيت على ذلك الى الليل فطلبت ان تأتيها احدى خادماتها التي كانت تثق بها فجاءت بدالها الخادمة الجديدة فأعدت لها كل ما تحتاج اليه كأنها كانت تخدم عندها منذ عهد بعيد .

غير ان اوديت طلبت تلك الخادمة التي تأتمنها فخرجت الخادمة الجديدة كي تأتي بها ومضت ساعة دون ان تعود .

وكانت اوديت في خلال ذلك جالسة على كرسيها وهي تائهة في مهامه التفكير وكلبها ماجور يذهب ويجيء امامها ثم يجلس عند قدميها وينظر اليها نظرات حنو .

إلى ان دقت الساعة التاسعة فانتبهت اوديت من غفلة تأملاتها وذكرت انها طلبت خادمتها فلم تحضر فدقت جرساً ودخلت اليها الخادمة الجديدة وهي تبتسم .

وقد نظرت اوديت اليها نظرة المؤنب وقالت لها : ادعي لي جميع خادماتي فرفعت يديها الى السماء وقالت :

. رباه العلي اخطـأت فهم كلامك فقد قلت لي يا سيدتي انك تريدين ان تكوني وحدك فأطلقت سراح جميع الخدم .

فاصفر وجه اوديت ولم تفه بكلمة ولكنها اسرعت إلى تلك القـــاعة الخاصة بالحراس فرأت انه لا يوجد احد منهم وان الأبواب مقفلة من الخارج بحيث لو ارادت الخروج منها لما استطاعت .

فلم تشعر عند ذلك بعاطفة خوف بل بنفرة واشمئزاز فعادت الى الخادمة الجديدة وقالت لها :

اين حراسي ؟

ـ ان جلالة الملك يا سيدتي اصدر امره بأن يحشد جميع الحراس في هذه الليلة حول قاعاته لسبب لم يعلمه أحد .

فنظرت عند ذلك إلى تلك الخادمة نظرة منكرة وقد ايقنت انهـا من صنائع الملكة فقالت لها :

ان جلالة الملكة حاولت منـذ ليلتين ان تقبض عليّ فأنقذني الله منهـا باعجوبة وبرجل لا أجده الآن هنا لانهم قتلوه دون شك كي لا يعـود الى انقـــاذي .

وهم يحاولون ان يصنعوا لي هذه الليلة ما صنعوه في ذلك .

اذن لقد تقرر قتلي لأن سيدتك لا تحب ان تراني في قيد الحياة ؟

فتمتمت الخادمة قائلة : سيدتي !

ـ نعم سيدتك الملكة .

فعضت الخادمة زندهـــا واختنق صوتها بالبكاء وزجر الكلب فقالت اوديت :

انك لم تأتي إلا لخيانتي .. اسكتي واقتصري على سماع ما اقوله واعلمي اني لا انظر الى عواطفك ، فلو كان لك قلب لما رضيت بهذه المهمة الشائنة، ولكني انظر الى فائدتك فانك دون شك محبة للمال رضيت خيانتي ، غير

انك كما خنتني للمال فانك تستطيعين خيانة الملكة ايضاً بالمـال دون ان تعرضي نفسك لشيء من الخطر .

— سيدتي ما هذه التهم الجارحة ؟

— اني اقول الحقيقة وهي جارحة في اغلب الأحيـــان ولقد قلت انك تستطيعـين انقاذي دون خطر وانا لا اريد ان تخرجيني من هنا ولو كان في بقائي الموت ولكنك تستطيعين ان تصلي إلى الملك وتخبريه بما سيجري الآن.

فبكت الخادمة وقالت : ما هذه التهم الجائرة يا سيدتي ؟

فلم تجبها اوديت وذهبت إلى علبة فجاءت بها وافرغت امام الخادمة ما كان فيهـا من أساور وسلاسل وخواتم وعقود الى غير ذلك من الحلى التي تدهش الأبصار.

فدهشت الخادمة لهذه الجواهر البراقة وكانت اوديت تراقبها فخـامر قلبها في البدء شيء من الرجاء ولكن هذا الرجاء ما لبث ان انطفأ بانطفاء شعاع الطمع الذي كان يتقد في عيني الجارية .

وقد ايقنت انها قضي عليهـا بالموت ، فدنت من الجاسوسة وقالت لها برفق ..

اريد ان اعلم على الأقل كيف يكون قتلي ؟

فارتعشت الخادمة عند ذلك ارتعاشاً ظاهراً وانقطعت عن البكاء وتأثرت من الاهانة ، فان الخائنين يسوءهم ان يقال لهم خونة .

وعادت اوديت الى سؤالها فقالت :

كيف يريدون قتلي ، اخبريني بذلك على الأقل وما زلت تعلمين .

— كلا يا سيدتي اني لا اعلم .

فأطرقت مفكرة ، فلما رفعت رأسها وجدت ان الخادمة قد توارت عن الانظار ..

فعادت الى الكرسي وجعلت تذرف الدموع السخينـة وتبكي شبابهـا الناضر إذ لم يبق لديها شك بأنها ستموت .

وقد ذكرت عند ذلك ساعة دخلت الى سجن هيدرون ورأت هاردي يبكي فقالت له :

« لا تبك فقد انتهت ايام شقائك » .

فشعرت انها لا تبكي شبابها ، بل انها تبكي هاردي ، إذ لم يكن يتمثل لها سواه في تلك الساعة الرهيبة التي كانت تنتظر فيها الموت كل لحظة وهي لا تعلم كيف تموت .

وكان الكلب ماجور يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً فيهدر ويزمجر وينبح وهي غير مكترثة له .

الى ان سمعت حركة ارتجفت لها هولاً فوقفت وقد كبرت عيناها من الرعب وحدقت بذلك الذي رأته وهي تحسب انها مصابة بكابوس وحاولت ان تهرب فشعرت ان رجليها قد سمرتا بالأرض .

وخطر لها في تلك اللحظة بسرعة التصور ان تذهب الى المائدة فتأخذ خنجراً وتطعن نفسها به ، وقد خيل لها انها فعلت ، ولكنها لبثت في مكانها .

ذلك انها رأت النمرة امباريا قد دخلت من الباب ووقفت تنظر اليها نظرات نارية وهي تضرب الهواء بذنبها .

ولم يكن بينها غير خمس خطوات وقد فتحت النمرة شدقيها وبلغت انفاسها الحارة الى وجهها .

فصاحت اوديت صيحة هائلة وسقطت على كرسيها واهية القوى ، ثم أغمضت عينيها فلم تعد ترى .

ولكنها ما لبثت ان فتحتهما حين سمعت زئير ذلك الوحش المفترس فرأت النمرة تتحفز للوثوب ولكنها رأت ايضاً ان كلبها ماجور قد حال بينها وبين النمرة .

وقد رفع ذلك الكلب الأمين عينيه الى اوديت ونظر اليها نظرة حنو كأنه يقول لها :

لا تخشي فسأفديك بنفسي .

ثم وقف بجانبها وقد نفش ذنبه واحمرت عيناه وكشر عن أنيابه وجعل ينبح وهو في مكانه كأنه ينتظر ان تكون النمرة البادئة بالعدوان .

والغريب ان اوديت على ضعفها النسائي وعلى هول هـذا الموقف لم يغشَ عليها .

اما النمرة فجعلت تسير ببطء الى الكلب فلم يتحرك الكلب ولم يبرح موضعه ولكنه كان يرتجف ، ولبث ينظر الى النمرة .

وقد ضربت النمرة مائدة بذنبها فقلبتها الى الأرض وتبعثر ما عليها ، وزأرت زئيراً مخيفاً وتقدمت فرأت اوديت عند ذلك مـا لا يراه الناس في الاحلام وبذلت جهداً عنيفاً كي لا ترى هول ذلك المنظر .

فان الكلب كان قد وثب الى النمرة وعضها باذنها واقتلع تلك الأذن .

وكذلك النمرة فانها نشبت مخالبها في عنقه فجرحه جرحاً بالغاً فسالت الدماء منها على الارض .

وقد لبثت تلك المعركة نحو نصف دقيقة .

ثم ارتد الاثنان ووقف كل منهما في موقفه يجدد قواه وينظر الى خصمه نظرة الفاحص فيوازن بين القوتين .

اما امباريا فقد تبين الغضب في عينيها ووقف ماجور بجانب اوديت وقد كشر عن انيابه وتأهب للقتال .

فان المعركة الاولى لم تكن إلا مناوشة مع ان امباريا اصبحت بلا اذن وبات ماجور كأنه بلا عنق .

الى ان كان الهجوم الثاني فكانت امباريا البادئة فيه وبعد هنيهة كان فم الكلب ومخالب النمرة قد صبغا بالدماء .

وقد دامت هذه المعركة الثانية عشرين ثانية فابتعد كل منهما عن خصمه خمس خطوات هذه المرة وقد اصبح الكلب لا يعرف لكثرة جراحه وكذلك النمرة ..

وكان الكلب ينتفض كأنه في حالة النزع ، ومع ذلك فقد كان ينظر الى النمرة نظرات تدل على انه غير خائف ولا وجل وانه ينتظر إعادة الكرة ..

وأما النمرة فقد تحول زئيرها الى انين ، فان الكلب كان قد انتزع اذنها الثانية .

وأصابها بستة جروح في مواضع مختلفة .

فجلست على السجادة وبسطت مخالبها امامها وأقامت تستريح .

وكان ماجور واثقاً ان هذه الهدنة لا بد ان ينقضي زمنها فلبث واقفاً يتأهب للقتال الأخير .

ولبثت تلك الهدنة دقيقتين الى ان وقفت امباريا وعاد الخصمان الى القتال ..

وكان قتالاً هائلاً تشيب له الشعور رعباً أظهر فيه الخصمان منتهى ما يمكن إظهاره من العنف .

وكان كلاهما قد انتهكت قواه ولبثا يتقاتلان ، غير ان النمرة لم تعد تثب وثوباً بل كانت تمشي ببطء لضعفها ولما نزف من دمائها .

وكذلك ماجور فانه لم يعد يهجم بل صار ينتظر ، وقد رفعت امباريا يدها وحاولت ان تسحق بها رأس ماجور ولكنها رفعتها ببطء وأنزلتها دون قوة فلم تجرح الكلب بل خدشته .

وكذلك الكلب فانه أدار رأسه ببطء ايضاً وعض عنق النمرة ففتح فيه مجرى جديداً للدماء .

وحاولت النمرة ان تنتقم وتعيد الكرة ولكنها لم تستطع رفع يدها ، فانتقمت بنظراتها الدموية .

وبينا هم على ذلك ينظر كل منهما الى الآخر ولا يستطيع ان يقاتله لضعف قواه سمع الكلب تنهد اوديت فثارت به قوة جديدة وهجم على النمرة هجوم المستميت يغرس انيابه في عنقها .

وكان هذا ختام هذه المعركة العجيبة التي استتب فيهـا النصر لهذا الكلب الكبير على النمرة الهائلة فتراجعت خائفة والكلب في اثرها وكلاهما يسيران سيراً يشبه الزحف حتى خرجت من قاعـات اوديت ودخلت الى الرواق تاركة وراءها اثراً طويلاً من الدماء وهي تئن من جروحها .

ووقف الكلب في الباب ينظر اليها وهي منهزمة حتى اذا توارت عن انظاره عاد الى اوديت فانطرح عند قدميها وجعل ينظر اليها كأنه يبسم لها بتلك النظرات.

ولنعد الآن الى ايزابو ، فانها حين رأت النمرة عائدة اليهـا وهي تشبه الاموات حدثها قلبها بأن مساعيها قد اخفقت وان اوديت قد نجت منها .

فأسرعت الى مناداة ريدون وأمرته ان يكشف لها الخبر .

فانطلق مسرعاً وأقامت هي تعالج جراح النمرة وتبكي إشفاقاً على ما أصابها وقد نسيت الدوق والملك وأوديت ولم تعد تفتكر إلا بذلك الوحش المفترس .

وبعد هنيهة عاد ريدون وأخبرها ان النمرة التقت بالكلب وانه حدثت بينهما معركة هائلة .

ثم عقب على ذلك فقال :

انك لو أذنت لي بقتله في تلك الليلة لما ..

فقاطعته قائلة :

وهي ؟

ـ انها سليمة وهذا الذي كنت اتوقعه فانهذا الكلب مأجور واشد مني.

فتميزت الملكة غيظاً وقالت :

ولكن ماذا تعمل ؟

ـ لا أدري ، يا سيدتي ، اذ يستحيل الدنو منها .. فان الملك ..

ـ تكلم أيها الأبله .. ماذا حدث ؟

ـ ان الملك الآن عنـد أوديت ، فقد تخلص من ذينك الناسكين ، ولا أدري من الذي اخبره ، فقـد جاء اليها يصحبه خمسة عشر من رجاله ورئيس حراسه .

فسكتت ايزابو وارتعدت وقد اصفر وجهها وعضت يدها من اليأس كي لا تفوه بكلمة .

وقد رأت انه لا بد لها من قتل أوديت ، في هذه الليلة ، ولكن كيف السبيل الى قتلها والى من تلتجيء ؟

ذلك ما كانت تفتكر به حين ثاب اليها رشدها.

وقد افتكرت ملياً ، ثم ظهر ابتسامة فجائية على شفتيهـا المرتجفتين فاتشحت برداء متسع وقالت لريدون : هلم بنا .

فقال لها : الى أين تريدين الذهاب ، يا سيدتي ؟

ـ الى منزل ساتان .

* * *

خرجت الملكة من قصر سانت بول في نفس الساعة التي دخل فيها هاردي الى منزل ساتان ليعاقبه على كذبه .

وقد عرف القراء كيف ان ساتان قد تغلب على هاردي بالحيلة ونومه بذلك المنديل الذي كان مبتلاً بالسائل المخدر .

فلما سقط هاردي دون حراك حمله مع جيرود الى تلك المائدة في القاعة التي كان فيها الفتيان الثلاثة مربوطين الى الكراسي وهم يصيحون .

وقد بدأ ساتان يكشف الملابس عن صدر هاردي .

وكانت حركاته تدل على السكينة ولكن عينيه كانتا تقدحان ناراً وهو يقول في نفسه :

يجب قتله دون ان أريق دمه ولكن ذلك سهل فاني سأقتل هذا الشفاليه

بنفس الطريقة التي كنت عازماً علي ان أقتل فيها برانكايل ، أي بأن اضع نقطة واحدة على طرف لسانه تفعل به فعل الصاعة .

وعزائي اني سأقتل هذا الشاب المنكود دون ان ادعه يتألم لأنه لا يستحق العذاب .

وعند ذلك شعر ان يداً قد لمست كتفه فانتبه كما ينتبه النائم من رقاده والتفت فرأى جيرود فقال لها :

لا حاجة بي اليك الآن فاذهبي .

ـ لم اجيء اليك لحاجتك اليّ ، ولكن ألا تسمع انها تطرق الباب ؟

ـ من هذا الذي يطرق الباب ، اتسلطت الشياطين على منزلي في هذه الليلة .. دعيهم يقرعون قدر ما يشاؤون الى ان يملوا فينصرفوا .. إذهبي فاني اريد ان اكون وحدي .

فأجابته جيرود بلهجة المتهكم قائلة :

هو ذاك غير ان هذا الشيطان الذي يقرع بابك الآن لا يمكنك التغاضي عنه أو طرده لأنه يستطيع ان يشويك على النار .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ اعني انك اذا لم تفتح بلغ أمرك غداً الى الحاكم فحكمت بشنقك أو إحراقك واذا كان لا بد لي من الشنق معك فسأذهب وافتح الباب .

فجرد خنجره وحاول ان يطعنها به ليأسه .

ولكنها لم تهرب ولم تخف بل اجابته بسكينة قائلة :

ان الملكة ايزابو تقرع الباب ألا تريد ان تفتح للملكة ؟

ـ الملكة .. ماذا تريد مني في هذه الساعة ؟

ـ سوف تعلم فاني سأفتح لها لأني لا اريد ان يحكم عليّ بالشنق .

فأطرق ساتان رأسه وجعل يقول في نفسه :

الملكة عندي .. ولماذا اتت الليلة وفي هذه الساعة ؟

وبعد هنيهة اقبلت الملكة يتقدمها ريدون فقال لساتان بلهجة المغضب .

يا ابن الأبالسة ورسول جهنم أهكذا تستقبل امثالنا ؟

فانحنى امام الملكة دون ان يفوه بكلمة ..

وكان كل ما به يدل على القنوط فانه لم يستطع منع الملكة عن الدخول الى منزله اذ كان بوسعها ان تهلكه بلحظة ويكفي ان تتغاضى عنه فيحاكم كساحر ويعدم شنقاً او إحراقاً دون ان تقبل شفاعة فيه .

وكان قد استقبلها في القاعة الأولى وقدم لها كرسياً كي تجلس عليه .

ولكن الملكة هزت رأسها وقالت :

ادخل بنا إلى غير هذه القاعة فاني اريد ان احادثك ملياً .

فتنهد ودخل بها إلى القاعة الثانية وقال :

تفضلي يا سيدتي بالجلوس فلا يسمع حديثنا هنا غير الله .

فقالت بلهجة الانذهال .

الله والشيطان .

فرسم ريدون علامة الصليب على وجهه وكانت الملكة صادقة بانذهالها إذ كانت تعتقد ان لساناً اتصالاً بالأبالسة فعجبت كيف يجسر على ذكر الله .

وقد دعاها إلى الجلوس ولكنها أبت وقالت :

اني أتيت اليك ايها الساحر استعين بعلمك الشيطاني فان العلم الانساني لم يفدني وقد افسدت الصدف كل ما فعلته ومهدته بالعقل والحساب ولذلك أتيت اسألك اصلاح ما افسدته الصدفة .

ولكني اريد قبل كل شيء ان اعلم كيف تتكلم عن الله وانت لا يحق لك ان تتكلم إلا عن الشياطين .

ـ انك تتكلمين ، يا سيدتي ، عن الله وعن الشيطان فاستدل من لهجتك أنك تريدين بالأول سلطان الخير وبالثاني سلطان الشر .

ولكني اسألك اين يبتدىء الخير ، واين يبتدىء الشر ، وما هي الحدود الدقيقة الفاصلة بينهما .

ولا اريد الخير والشر تلك القواعد التي وضعها الناس فعلم بعضهم بعضاً

بهـا معاني الإساءة والإحسان ، بل اريد ما يجول في ضمير كل واحد منا ، ذلك الضمير الخفي ، الذي لا يدرك مراميه غير صاحبه ، وكيف يحدد هذا الضمير الخير والشر .

ان تلك المبادىء التي يتعلمها الناس تقول ان القتل من اعمال الشر .

والآن اسألك : اي رجل لم يكن له ، ولو مرة في حياته ، عدو يكرهه ويتمنى له الموت ، فلو كانت إرادة الضمير تقتل ، اما كان كل إنسان قاتلاً ؟

وهنا انقطع فجأة عن الحديث ونظر نظرة قلقة الى القاعة الثالثة وهو يقول في نفسه :

لقد حان الوقت الذي يستفيق فيه هاردي ومع ذلك يجب ان اوقف هذه المرأة هنا .

اما الملكة فكانت تصغي اليه اتم الإصغاء وقد سمعت مقدمته الغريبة ، فقالت :

اني لا اسألك عن الخير والشر ، بل عن الله والشيطان .

فاندفع هذا المجنون ببيان مبادئه الكفرية التي نذكر منهـا بعضها ملخصاً لبيان مبادىء اولئك الكفرية الذين كانوا يحسبون من العلماء في ذلك العصر ، فقال .

ان الناس ، يا سيدتي ، يمثلون الله بالخير والشيطان بالشر .

ونعم انه يوجد خير وشر ، كما يوجد جمال وقبح وغير ذلك من الاضداد لكن أين هما ؟ وما هي حدودهما ؟

ان الله موجود ، والشيطان موجود وليس من يستطيع إنكارهما ولكن إسمعي اصل الحكاية ، يا سيدتي :

فقد كان الله والشيطان منـذ الأزل يحكمان هـذه المملكة العظيمة الجميلة التي يدعونها الوجـود ، فجرت بينهما معركة عظيمة انخذل فيها الشيطان

وارتد الى الظلمات ، واستتب فيها النصر لله! فساد على الوجود وكل ما يهمنا معرفته هو ان نعلم ما يريدان منا .

وهنا جعل يضحك وريدون يصلي وعاد الى الحديث فقال :

انك ستعجبين لكلامي لأنه سيخالف المألوف فان المعروف عندكم معاشر المؤمنين ان الله يريد الخير واما عندنا فان الشيطان الذي يريد الخير وأما الله فانه متكبر لا يريد الخير إلا لنفسه .

فذعر ريدون وحاول ان ينقض عليه لكفره ولكن الملكة أوقفته باشارة ومضى ساتان في حديثه فقال :

ولا تعجبي ، يا سيدتي ، فان كل تلك الملاهي واسباب السرور والسعادة والتنعم بالملاذ والشهوات انما يوحيها الينا الشيطان فنتنعم بها في حين ان الله يمنعنا عن كل ذلك فكأنه يمنعنا من ان نفرح ونسر ونتنعم وينذرنا بالعقاب الشديد .

فإلى أيهما نميل ، يا سيدتي ، فإلى الذي ينذرنا ويعذبنا ويأمرنا ان نشقى ، أم الى ذلك الذي يبكي في جهنمه ويشفق على شقائنا ويفتكر مثلنا ويحب حبنا .

أما أنا فقد اخترت الشيطان ولا اعبد غير الشيطان وكفى انه لا يأمرني إلا بأن أتنعم والتذ فليختر غيري ما يشاء .

وكانت ايزابو ترجو ان تسمع كلاماً صالحاً ولكنها علمت ان جنون العلم قد أدركه فأوحى اليه هذه المبادىء الفاسدة .

غير انها كانت أشد منه تهوراً إذ قالت له :

اني لا اريد ان أكون مرؤوسة لأحد منهما فما خلقت إلا للرئاسة .

على إني ما أتيت لمثل هذه الابحاث .

ــ سيدتي اني رهين امرك فمري بما تشائين .

ــ هو ذاك ولكن توغل بنا ايضاً ولندخل الى غير هذه القاعة .

وقد قالت هـــذا القول ومشت إلى القاعة الثالثة ولكن ساتان اسرع وحال بينها وبين الباب فانتهرته قائلة :

ابعد .

فلم يسعه غير الامتثـال ففتحت باب تلك القاعة الهـائلة وبعد هنيهة كانت واقفة عند المائدة الرخامية تمعن بوجه هردي دي باسافان .

اما ريدون فقد دخل مع الملكة ووضـع يده على خنجره فلولا وجود الملكة لكانت تلك الساعة آخر ساعات ساتان .

وأما الفتيان الثلاثة فقد برقت عيونهم ببارق من الرجاء .

ولبثت الملكة تتمعن في وجه هردي إلى ان نظرت الى ساتان فقالت له : ماذا فعلت به الآن ؟

قال : اني نومته يا سيدتي .

وماذا تريد ان تصنع به الآن ؟

فركع ساتان امامها وقال لها :

ان جلالتك تذكرين بأنك انت وهبتني إياه فيما مضى واذكري يا سيدتي ان ريدون جاءني به مرة محمولاً على كتفه .

ولا شك ان القدرة الخفية تريد اتمام مشروعي فانه عاد إليّ من تلقـاء نفسه .

فصاح الفتيان الثلاثة وكانوا يسمعون الحديث .

الينا يا أهل النجدة .. الينا يا أهل المروءة .

فقال ساتان :

انك تعدين يا سيدتي منذ اثني عشر عاماً بمساعدتي وقـد دنا يوم التجربة الكبرى فقد كنت محتاجاً إلى الأحياء الثلاثة وهم الآن عندي كما ترين .

واشتد صياح الثلاثة ولكن ساتان لم يصغ اليهم ومضى في حديثه فقال : وكنت محتاجاً الى ميت وها هو عندي جـاءني دون ان ادعوه وجلس

في المكان الذي عينته له القدرة الخفيـة ولذلك التمس منك ان تفي بتلك الوعود السابقة.

ـ ماذا يجب ان اعمل ؟

ـ لا أحب ان تعملي شيئاً بل التمس منك ان تدعيني اعمل .

ـ وماذا تريد ان تصنع ؟

ـ ألم أوضح لك مائة مرة .. سيدتي اشفقي عليّ وانصرفي فاني أراه يرتعش واخشى ان يستفيق وعند ذلك ..

فضحكت وقالت : وعند ذلك ماذا يكون ؟

ـ يكون انك تقتليني يا سيدتي أي انك تقتلين الرجلين الذي سيكشف سر الوجود . .

وقد جعل عند ذلك يبكي فلم تحفـل الملكة ببكائه وجعلت تنظر إلى هردي ينازعهـا عاملان عامل الحقد الذي يدعوها إلى قتله وعامل آخر لم تستطع هي نفسها ادراكه كان يقضي عليها بانقاذه .

وجعل ساتان يشتمها بسره اقبح شتم ويقول :

الويل لي ولمشروعي فقد بحت بسره لامرأة فاسدة الاخلاق لا يهمهـا في هذا الوجود غير شهوات نفسها فهي تبيع الخلود بنظرة من رجل يروق لها وتبيع العلم واهله بابتسامة من فتى تهواه .

وعند ذلك تنهدت الملكة تنهداً عميقاً وحولت نظرها عن هردي .

وقد تغلب عليها عامل الحقد واسلمت هردي الى ساتان .

فقال لها ساتان وقد رأى منها ذلك التغيير .

ماذا تقولين يا سيدتي ؟

قالت : اقول انه اذا كان لا بد لك من قتله لاتمام مشروعك فافعل .

ففرح ساتان فرحاً لا يوصف ووثب الى خزانـة كي يحضر ذلك الشراب المنوم فيجدد تنويم هردي ثم يقتله دون ان يريق دمه .

ولكنه لم يكد يصل اليها حتى سمع قهقهة من ورائـه فالتفت مذعراً فرأى هردي جالساً على مائدة الرخام ينظر اليه ويضحك .

٤٨

ثروة باسافان

فلبث ساتان جالساً في مكانه وقد اصفر وجهه وكاد المنديل يسقط من يده .

فقال له هردي : دع هذا المنديل فقد نومتني به مرة علي غرة أما الآن فلم يعد يفيدك .

فاضطرب ساتان وسقط المنديل من يده .

ولبث هردي يضحك ضحكاً طبيعياً دون تهكم او استهزاء .

وقد كان سروره وضحكه لسببين اولهما انه شعر بأنه نجا من موت رهيب .

وثانيهما انه كان يأخذ الأمور بظواهرها وقد رأى من هيأة ساتان ما دفعه الى الضحك .

أما ساتان فانه كان خائفاً من ضحكه اكثر مما يخاف من وعيده .

واما الفتيان الثلاثة فانهم حين رأوا هردي يضحك جعلوا يضحكون ايضاً لوثوقهم من النجاة .

وكذلك ريدون فانه رأى رعب ساتان ورأى الجميع يضحكون فجعل يضحك ايضاً بحيث تحولت تلك الرواية المحزنة الى رواية مضحكة ولم يعد يسمع في تلك القاعة غير الضحك .

وعند ذلك جرد هردي خنجره واسرع الى الفتيان الثلاثة فقطع قيودهم وأخذوا يقولون اقوالاً لا تفهم فلا ندري أكانت شكراً لهردي ام شتماً لساتان .

وأما ساتان فقد لبث جامداً لا يتحرك ولو كان الفكر يقتــل لكانت الملكة سقطت صريعة .

وقد احتاط الثلاثة بهاردي ودنت الملكة منه وهو لا يراها فقالت له :

أتريد ايها الشفاليه ان تخفرني الى قصر سانت بول ؟

فتمتم هاردي قائلاً .. الملكة .. ثم انحنى امامها وقال وهو يبتسم :

اتدعوني جلالة الملكة الى قصرها ؟

ـ هذه هي المرة الثانية التي ارجوك فيها هذا الرجاء .

فابتسم ابتسام المتهكم وقال :

ان الملكة لا ترجو ولكنها تأمر

ـ وانك تعصي هذا الأمر إذن فاعلم ان ما أمرتك به في غرفة أوديت دي شامديفر آمرك به الآن ، فهل تطيع ؟

مريني ان اقتل نفسي وسأرى اذا كان يجب عليّ الا اطيع ؟

ـ اذن انت تخشى ان تقتل عندي .

ـ هو ذاك يا سيدتي فاعذريني لهذا التصريح فاني عشت قليلاً حتى بت شديد التمسك بحبل الحياة لأرى اذا كان يوجد في هذا العالم غير ما رأيته من الكذب والنفاق والشر .

فابتسمت ايزابو ودنت من مائدة الرخام فلمستها بيدها وقالت :

انك كنت ممدداً على هذه المائدة منذ هنيهة فلو كنت اريد لك الموت لما احتجت لاصدار الأمر بقتلك بل تغاضيت عنك وبذلك اكون قد انقذتك من الموت .

ولكني أراك غير مقيـــد معي بشيء حتى ولا بذلك الأدب الفرنساوي الذي ملأتم الدنيا افتخاراً به .

ولا أراك تفعل ذلك إلا لأنك انقذتني مرة في الغابة فاذا انقذتك اليوم فواحدة بواحدة .

ولكني انكر على الفارس الفرنساوي ان تسأله امرأة الاعتماد على حسامه فيرفض .

استودعك الله ايها الشفاليه وانت يا ريدون فاتبعني

وعلى اثر هذا القول تأثر تأثيراً عظيماً على هاردي ، فاصفر وجهه وقال في نفسه :

نعم هي التي أنقذتني ويستحيل ان يكون الأمر قد جرى على غير ذلك ثم اسرع اليها وقال :

تفضلي يا سيدتي بالعفو عني ، فاني رهين امرك ، وسأذهب معك الى القصر ..

ثم قال لساتان : ايها الساحر افتح الابواب .

فغضب ريدون حين رأى الملكة قد اتكأت على ذراع هاردي ولكن الملكة صعقته بنظرها .

وفتح ساتان الباب الخارجي فخرجت الملكة وهاردي وتلاهما ريدون ، وخرج بدهم برانكايل وبراكايل ، فأشار اليهم وسأل الملكة قائلاً : ألعل هؤلاء الثلاثة من حراس جلالة الملكة ايضاً ؟

فقال هاردي : بل هم من حراسي .

وبعد هنيهة كانوا في شارع الجزيرة ، فأقفل ساتان الباب بيده وهو يود لو ابتلعته الأرض ليأسه .

وسارت الملكة مع هاردي وريدون ينظر اليه نظرة الخائف ويقول في نفسه :

من يعلم ، فقد يخلفني في رئاسة حراستها .

والفتيان الثلاثة يهمس بعضهم في آذان بعضهم والفرح ملء قلوبهم : أنحن حراس الشفاليه دي باسافان ؟

حتى وصلوا الى القصر فطرق ريدون الباب وقال كلمة السر ففتح الباب.

وعند ذلك قالت الملكة لهاردي :

اذا كنت قد خفت فارجع .

فكان جواب هاردي ان تقدمها ودخل ومشى بقدم ثابتـــة الى قصر الملكة وهو يشدد نفسه ، فانه لم يكن يأمن هـــذه الملكة بعد ان عرف حقيقة امرها .

وأقفل الباب من ورائه وقد حاول الفتيان ان يدخلوا ايضاً ولكن ريدون منعهم عن الدخول .

فوقفوا في منعطف الطريق وجعلوا يتشاورون ، فقال برايسكايل .

انا من غير مأوى ولا درهم لدينا وقد انهك قوانا الجوع وقيود الساحر ، فنحن جياع عطاش ، فما ترون ان نصنع ؟

فقال برانكايل : أرى ان نذهب الى كنيسة سانت جـاك فنبيت فيها ليلتنـا ..

وقال براكايل : بل نذهب الى خمارة فنأكل ونشرب فيها حتى يبلغ منا السكر حده ، وعند الصباح نغافل الخمار ونهرب .

فقال برايسكايل : أما انا فاني أرى غير ما ترياه .

قالا : ماذا :

أرى ان نعود الى مولانا القديم الدوق دي بورجونيا .

فأجفل الاثنان وقالا :

ويحك ، اتعود الى الدوق وهو الذي دفعنا الى الساحر ؟

قال : نعم فهو شجاع محتال يحب اهل البسالة والحيلة ، ومتى اوهمنـــاه اننا نجونا من الساحر بفضل شجاعتنا وصبرنا ودهائنا اعجب بنا وصفح عنا وهو يحتاج في كل حين الينا .

وقال برانكايل : انه يشنقنا لا محالة فلا أذهب .

وقال برانكايل : ليس هـــذا الرأي رأي عاقلين ، وخير ما أراه ان

نذهب الى امرأة الي بها اتصال فنبيت عندها الليلة ، وسنرى غداً ما يكون ..

فوافقه الاثنان على رأيه وساروا جميعهم الى تلك المرأة .

اما هاردي فقد دخل الى قصر الملكة وهو يعتقد يقيناً ان جب الأسود أقل خطراً من هذا القصر .

وكان يسير وهو يصغي ، إذ خيل له انه يسمع همساً وان الكامنين سيقبضون عليه

ولكنه كان يطمئن حين يذكر ان ايزابو قد أنقذه من الموت ، ويقول في نفسه :

انها لو ارادت قتلي لتخلت عني فقتلني ذلك الساحر .

وقد دخل مع الملكة الى غرفة النمرة فرأى الملكة قد أكبت عليها وجعلت تلاطفها

وهناك رجل كانت قد عهدت اليه ان يغير ضماد جراحها فسألته عنها فأكد لها انها لا تموت .

وقد دهش هاردي دهشاً عظيماً حين رأى الملكة تبكي .

ولا تدري أكانت دموعها دموع فرح ام دموع قهر لما اصابها في هذه الليلة ..

ولكن هذه الدموع أثرت على هاردي وأضعفت كرهه للملكة ، فان أكثر اهل القلوب الكريمة تؤثر عليهم الدموع ولا سيا دموع النساء .

وعند ذلك ادخلته الملكة الى قاعة فخمة الأثاث لم يسع هاردي إلا الإعجاب بها على كبريائه وقالت له : اجلس على هذا الكرسي امامي .

فامتثل هاردي وهو يقول في نفسه :

ترى ماذا تريد مني ولكن مهلاً فسوف نرى .

اما الملكة فانها اطرقت هنيهة ، ثم التفتت اليه وقالت له فجأة :

قل لي ايها الشفاليه أعرفت اولئك الذين هجموا على منزلك ايام حداثتك واختطفوا تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تدعى روزالي ؟

قال هاردي في نفسه : يجب ان اظهر لها لأول وهلة اني لا أخافها ، ثم التفت اليها وقال

كلا يا سيدتي لم اعرفهم ولكني عرفت ذلك الملاك الذي بسط جناحيه علي تلك الطفلة كما اخبرتك وأنقذها .

– من هو هذا الملاك ؟

هو الفاضلة النبيلة السيدة دي اورليان .

فابتسمت الملكة وقالت :

اذن كيف قلت لي اني انا التي أنقذت الفتاة وانك من أجل ذلك تسفك دمك في سبيلي ، ألست انا التي أنقذتها ؟

– كلا يا سيدتي فقد كنت منخدعاً .

يسوءني ذلك ، فقد كنت أود ان أكون ملاكاً ولو مرة في العمر ، فلنقطع المباحثة في هذا الشأن وقل لي ..

وهنا توقف عن الكلام ، فكانت تشبه النمرة حين تتحفز للوثوب ، ثم قالت :

هل عرفت قاتل ابن عمنا الدوق دي اوليان ؟

فارتعد هاردي حينئذ وأدرك ذلك الخطأ العظيم الذي ارتكبه بدخوله الى قصر سانت بول

ولكن وقت الندم كان قد فات ولم يبق لديه إلا ان يظهر بسالته لهذه الملكة فقال ؟

ليس علي يا سيدتي ان اجد قاتل الدوق دي اورليان فان ذلك من شؤون رجال الشرطة والقضاء

على اني اعلم ما تريدين ان تعني بما تقولين وهو اني متهم بقتل هذا

الدوق المنكود وانهم اذا لم يجدوا القاتل الحقيقي كنت انا القاتل وعوقبت عقاب القتلة أي بالاعدام .

فليقبضوا عليّ يا سيدتي اذا اردت تسليمي ، ويحاكموني اذا أردت ان تسلمي ضيفك الى المحاكمة ، وليحكموا علي بالإعدام اذا كنت قد أتيت بي الى قصرك لهذا الغرض .

ولكن اقسم لك بشرفي ان القاتل الحقيقي سيعـاقب ولو دفعني إلى يد القضاة .

فاتقدت عينا الملـكة وقالت :

اذن انت تعرف القاتل ؟

— نعم اعرفه .

— قل من هو .. قل الحقيقة .

— سيدتي لقد قلت لك انه ليس من شأني ايجاد القـاتل وما انا من اهل الوشاية ولكنه سيعاقب لأن ذلك امر خاص بيني وبينه .

اما الذين دفعوا القاتل إلى قتل الدوق المنكود فسيقتلون ايضاً وأكون أنا ايضاً قاتلهم .

وكانت الملكة تسمع اقواله بانذهال ورعب معاً فقد عجبت كيف انـه يعرف القاتل وذعرت من تهديده الذين دفعوه الى القتل .

وساد السكوت هنيهة بينهما فكانت الملكة يتنازعهـا عاملا الرفق والخوف .

أما الخوف فلانها أيقنت ان هذا الرجل يعرف اسرار هذا القتل .

وأما الرفق فلانها ذكرت انه انقذها من الموت وانهـا تحتاج الى مثـل هذا الباسل .

ولذلك قالت في نفسها : أما يكون لي واما يموت .

وبعد ان أقرت هذا القرار قالت له :

أتعلم ايها الشفاليه انك قلت اقوالاً هائلة ؟

— هو ذاك يا سيدتي فان معرفتي قاتل الدوق اورليان وتصريحي بذلك أشد خطراً من ان أكون القاتل نفسه .

على اني أعيد ما قلته وهو اني لست القاتل واني اعرف الرجل الذي دفعهم الى القتل .

— ولكنك قلت ايضاً انك تريد معاقبتهم .

— ذلك ما حتمته على نفسي ولا بد لي من قتلهم إلا اذا قتلوني .

— ألا تريد ان تذكر لي اسماء القتلة ؟

— كلا يا سيدتي .

— اذن أنا اذكر لك اسماءهم فاعلم انهم يدعون كين و ..

— ان كين قد قتل يا سيدتي .

فارتعشت ايزابو وخافت لحظة من هردي إذ خيل لها انه رسول تلك القوة الخفية الهائلة التي لا سبيل إلى الدفاع معها .

وربما كان الخوف لديها في تلك الساعة أعظم من الإعجاب بحيث لو دخل ريدون لأصدرت اليه امرها دون شك بقتله .

ولكنها ضبطت نفسها وقالت :

والآخرون يدعون غيليوم وكورتيز وتونفيل فهل قتل هؤلاء ايضاً ؟

— كلا يا سيدتي ولكن الذي قتل كين سوف يقتلهم لا محالة .

فوقفت ايزابو واقتدى بها هردي فوقف وقفة احترام فقالت له :

اجلس .. اني آمرك بالجلوس .

فامتثل هردي وجعلت الملكة تسير ببطيء ذهاباً وإياباً وجعل هردي يقول في نفسه :

لقد قضي امري ومن يعلم ما تصنعه بي فهل تدفعني الى السجن او انها تأمر بقتلي بخناجر رجالها .. لتفعل ما تشاء فانهم لا يقتلونني قبل ان اقتل بعض منهم .

اما الملكة فانها وقفت فجأة وقالت :

ان الذي دفع اولئك الأربعة إلى قتل الدوق دي اورليان يدعى الدوق دي بورجونيا .. اسكت وأصغ إليّ واجتهد ان تفهم ما سأقول لك لأني لا أقوله غير مرة .

وقد اتقدت عيناها وارتجفت شفتاها فخيل لهردي ان الشر بعينه قد تمثل بشكل امرأة .

وفي تلك الساعة دخل ريدون غير ان الملكة لم تكترث لدخوله إذ كانت تحسبه حيوانا ألوفاً يقيم في القصر ومضت في حديثها فقالت :

ان هذا الرجل ، بل هذا الدوق الذي يدعونه جان الذي لا يخاف ، قد أحببته أفهمت ؟

اريد ان أقول اني كنت مستعدة لمساعدته في كل ما يريد من خير وشر .

نعم اني احببته وصرحت له بحبي ووعدته أن اجعله سيد العالم ولكن هذا الذي يلقبونه بأنه لا يخاف قد خاف وخانني .

فقال هردي في نفسه :

ترى ألعلها تريد ان تعهد إليّ بقتل الدوق دي بورجونيا كما عهدت إليّ بقتل دي اورليان .

ثم نهض وقال لها :

انتبهي يا سيدتي فانهم يسمعون ما تقولين .

— من هذا الذي يسمعني أهو ريدون ... انه يسمع ولكنه لا يفهم ما أقول أليس كذلك يا ريدون ؟

قال : كلا يا سيدتي اني لم اصغ ولكني أتيت لأقول لك :

— أسكت فستقول لي ما تريد قوله بعد الآن وعادت الى مخاطبة هردي فقالت :

ان الدوق دي بورجونيا أيها الشفاليه لم يعد لديّ شيئاً مذكوراً وسيان عندي حياته ومماته إذ ليس هو الرجل الذي ابحث عنه .

واني أريد رجلاً يقدم على كل امر خطير لمجده ولمجدي فأكون له بجملتي ويكون بجملته لي .

وهذا الرجل ايها الشفاليه اقدم له ثروة لا يدركها بالأحلام ولا تخطر له بالأماني ولا احتاج منه إلا لسيفه وعقله .

ولكني قد ادفعه إلى العرش وفي مقابل ذلك ينـال حبي . حب ايزابو فهمت ؟

انظر إليّ أتجد بين نساء البلاط بل نساء فرنسا امرأة اجمل مني ؟

فاذا أحبني هذا الرجل الذي ابحث عنه ايها الشفاليه حبـاً صادقاً نزيهاً وضعت يده بيدي وارتقيت به إلى اعلى قمة من قمم المجد الانساني .

فاصغ إليّ فاني سأقول لك ما افعل .

فدهش هردي لاقوالهـا وعجب لهذه الوعود التي لم تخطر في بال رجـل فقير مثله لا مال له ولا مأوى وكيف يخطر له ان تحبه الملكة .

وقد رآها تنظر اليه نظرات تشف عن غرام لا تحاول اخفـاءه ولكنه كان يحفل لهذه النظرات ويبيع كل عروش الأرض بنظرة من التي يحبهـا ويعيش بها .

ولذلك كان يسمع حديثها بأذنيه لا بقلبه وكانت الملكة تراقب وجهـه فلا ترى منه ما يدل على تأثره بأقوالها فغلا الحقد في قلبها وقالت :

أتعلم اذا كان يوجد رجل في الوجود مثل هذا الرجل الذي ابحث عنه .. ان هذا الرجل يجب ان يفهمني وان يحبني بقلب لا يقيم فيه مثـال اوديت دي شامديفر .

فوقف هردي وقد اصفر وجهه وايقن ان حياته متعلقة بكلمة يقولها ; ولكنه لم يقل شيئاً فقالت :

ما بالك لا تجيبني . أحق انك تحب هذه الفتاة ؟

فقال هردي : تسألني اذا كنت احبها ؟

قالت : ما بالك لا تجيب ألا تجسر على الاعتراف بهذا الحب .

ولكني أجبتك يا سيدتي وأنا اقسم بالله اني احب ..

وعند ذلك سمع الاثنان صوتاً رناناً يقول :

احذر ايها الشفاليه مما ستقوله .

فالتفت الاثنان إلى مصدر هذا الصوت فرأيا ساتان قد دخل وهو مرتد بذلك الثوب الذي كان يلبسه يوم الحفلة الراقصة في قصر سانت بول .

فسألت الملكة ريدون بالنظر .

ولكن ريدون هز كتفه إشارة إلى انه غير مسؤول فانه دخل اليهـا لينذرها ولكنها أبت ان تسمع كلامه .

فارتدت بنظرها إلى ساتان وجعلت تحدق به ويحدق بها فأدركت من نظراته انه لم يأت إلا لقتل هردي .

وكانت قد ابتعدت عن هردي حين دخل ساتان فعادت اليه وهي تحاول ان تجرب التجربة الأخيرة ووضعت يدها على كتفه ونظرت اليه نظرة حب كادت تضيع رشاده وقالت :

أيهـا الشفاليه أتريد ان تكون هذه الثروة العظيمة وهـذا المستقبل الفخم لك ؟

لا تسرع باجـابتي واصغ إلى رجائي .. أتريد ان تكون ضيف ملكة فرنسا ثلاثة ايام فلا يمسك احد بسوء حتى ان الدوق دي بورجونيـا نفسه لا يجسر على ان يدنو منك .

قل ايها الشفاليه أتريد ان تكون ضيفي ثلاثة ايام ثم تجيبني بعد ذلك عما اقترحه عليك واذا اردت الابتعـاد عني بعد ذلك خرجت من القصر سالماً كما دخلت اليه قل أتريد ؟

فلم ينحن هردي ولم يظهر لها احتراماً كاذباً بل نظر اليهـا نظرة اخلاص وقال لها :

سيدتي اسمحي لي ان التمس العفو جاثياً عند قدميـك فاني اذا قبلت هذه الضيافة كنت كمن يتردد في الجواب الذي تريدينه .

فتراجعت منذعرة وقالت :

وانت لا تتردد ؟

ــ كلا يا سيدتي فاني لست من الكاذبين وقد اقسمت واني اقسم الآن،

فقاطعه ساتان قائلاً : احذر مما تقول :

ثم نظر الى الملكة نظرة مفادها :

أتسلميني اياه الآن ؟

فأجابته قائلة : نعم .

والتفت عند ذلك هردي الى ساتان وقال له :

لست انت الذي تستطيع منعي عن القسم بأني احب الآنسة اوديت دي شامديفر .

فقاطعه ساتان قائلاً : لقد كذبت .

فانتفض هردي غيظاً في البدء ثم ما لبث ان عاودته السكينة فابتسم ابتسام الهازىء وقال :

انك مدين لي بأذنيك ولكن أرى انه لا بد لي من قطع لسانك ايضاً .

فأجابه ساتان ضاحكاً :

لا حق لك بذلك فقد قلت انك كذبت وسأبرهن عن ذلك .

فهرب الابتسام عن شفتي هردي واحمر وجهه من الغضب فقال :

أنت تبرهن اني من الكاذبين !

قال : نعم فانك لا تحب اوديت دي شامديفر كما تتوهم بل انك تحب روزالي فأقسم الآن اذا كنت تجسر .

فتراجع هردي منذعراً وقد صبغ وجهه بصفرة الموت واطرق برأسه الى الأرض وهو لا يدري ما يقول .

فقال له ساتان عند ذلك بلهجة المنتصر .

اينا الكاذب ايها الشفاليه فلو كانت اوديت هنا أتجسر على ان تمنحهـا

قلبك وهـذا القلب قد وهبته منذ حداثتك لفتاة لا يزال رسمها مطبوعاً في صدرك الى اليوم .

فقال هاردي في نفسه ،

تباً لك من شيطان مريد يقرأ ما في القلوب .

وقال له ساتان .

ما بالك لا تجيب ، ثم دنا منه وقال له بصوت منخفض :

أتريد ان تراها ؟.. اني استطيع بعد ساعة ان اذهب بك الى روزالي .

فارتعش هاردي وشعر كأنما قلبه يثب في صدره وقبض على يد ساتان وقد اتقدت عيناه ببارق من الرجاء .

فقال له الساحر :

أتريد ان تتبعني ؟

قال : نعم للفوري .

فنظر ساتان عند ذلك الى الملكة كأنه يسألها رأيها فأجابته بنظرة مثل نظراته مفادها « لقد اسلمتك إياه » .

ثم نظرت الى هاردي فتنهد وبرحت القاعة فتوارت عن الانظار .

٤٩

في الظلمات

أما ساتان فانه قال لهاردي : تعال .

قال ؟ الى أين ؟

قال ؟ لنخرج في البدء من قصر سانت بول فاني لا أمان فيه على نفسي ولا عليك .

فأزالت هذه الجملة كل ريب من نفس هاردي ، ولم يعد يفتكر إلا بأن الساحر يعرف أين هي روزالي وانه لا يذهب به اليها إلا لأن ضميره يوبخه عما كذب به عليه من قبل ، ولذلك كان واثقاً كل الوثوق بأنه سيجمعه بروزالي .

وخرج الاثنان من قصر سانت بول دون ان يتعرض لهما أحد .

وكان ساتان يسير بسرعة وهاردي يتبعه وهو لا يفتكر بما حدث عند الساحر ولا عند الملكة ، بل كان يفتكر بروزالي وحدها .

أما ساتان فانه بعد ان خرجت الملكة من منزله وبعد ان رأى الأحياء الثلاثة والميت قد افلتوا منه كبر عليه ذلك حتى انه اغمي عليه .

فلما استفاق من إغمائه جعل يفتكر بالملكة وبهاردي ويقول :

لا بد لي ان انتقم من هاردي ، فقد اصبح من ألد اعدائي، وكذلك من تلك الملكة البليدة التي تضحي أهم الاكتشافات في سبيل شهواتها الفاسدة فأطعنها بقلبها وأتخلص من ذلك الرجل الذي يقتلني لا محالة اذا لم أقتله .

ثم ضحك وقال : أيجوز قتل رجل مثلي يبحث عن اكسير الخلود ، كلا، ان ذلك لا يكون اذ لا يمكن ان يكون .

وكان يخاطب نفسه بهذه الأقوال ، وهو يلبس ملابسه ، فلم يتقلد سلاحاً ولكنه خبأ تحت ملابسه ثلاثة مفاتيح وشمعة قصيرة، وبعد انصراف الملكة بربع ساعة ذهب تواً الى قصر سانت بول .

وكان يعرف كلمة المرور ، لأن الملكة كانت تجيز له الدخول اليها حين يشاء .

فذهب الى قصر الملكة ، ولقي ريدون ، فقال له بضع كلمات وقد رأينا كيف ان ريدون دخل الى الملكة ليخبرها بأمره فلم تشأ ان تسمعه .

ولنعد الآن الى سياق الحديث فان ساتان كان يسير مسرعاً وهاردي يتبعه فقال له :

أين هي مقيمة ؟

قال : في مكان قريب من دير كليتي ، فعدني انك لا تخاف مهما كان هذا المكان الذي سأذهب بك اليه وان تثق بي .

قال : ويحك فمن كان لا يخاف مائدتك الرخامية ومنزلك السحري يخاف شيئاً في الوجود ؟

واما ثقتي بك فان هذا الخنجر يضمنها لي فسر بي الى حيث تشاء .

قال : الحق انك غلبتني، أيها الشفاليه، وأنا اعترف بانك اشد مني جلداً وثباتاً في الخطوب ، أتعلم ان حكايتك معي من اعجب الأمور .

ـ أهي حكايتي ؟

ـ حكايتك اني ظفرت بالأحياء الثلاثة مرتين وقيدتهم بالكراسي ومددتك على مائدتي مرتين وأنا اعتقد انك من الأموات فكنت في المرتين تقوم من الموت وتنقذ الثلاثة و..

فقاطعه هاردي قائلاً :

لا تذكرني بهذه الأمور أو ينفد صبري .

ـ ليكن ما تريد وفوق ذلك فقد وصلنا.

فخفق قلب هاردي وقال : الى أين الى المكان الذي تقيم فيه روزالي ؟

ـ هو ذاك؟

وقد وقف فوضع يده على كتف هاردي وقال :

ولكن هل تعرفها حين تراها ؟ انك فارقتها طفلة ، وهي الآن في مقتبل الشباب وكانت جميلة واما ان لا فان جمالها يدهش العقول فهي تشبه..من.. حقاً انها تشبه الآنسة أوديت دي شامديفر .

فارتعش هاردي إرتعاشاً بيناً وقد مرت غمامة كثيفة على بصره ، فقال له : لنمشي .

قال : لنمشي .

وواصل الاثنان السير ، حتى اجتازا الجزيرة ، واقتربا من الدير ، فوقف

ساتان ونظر هاردي فرأى الدير عن يمينه، ورأى ساتان قد وقف عند بيت منخفض .

وفتح ساتان باب ذلك البيت بمفتاح كان معه ، ودخل فتبعه هاردي واقفل ساتان الباب فأنار شمعته القصيرة ودخل بهاردي الى قاعة كان في أرضها باب خشبي فرفعه فانكشف عن سلم نزل عليه ، وتبعه هاردي دون تردد

وبعد ان نزلا عشرة درجات بلغا الى قبو رصت فيه براميل الخمر وفي آخره باب متين .

فذهب ساتان تواً الى ذلك الباب وفتحه بمفتاح آخر كان معه أيضاً وهناك ظهر لهما سلم ثان ينزل الى عمق الأرض .

فقال هاردي : ما هذه الأعماق لعلنا نازلان في طريق جهنم ؟

وكان ساتان قد بدأ ينزل فوقف والتفت الى هاردي وقال :

ان الوقت لا يزال فسيحاً ، أيها الشفاليه ، فاذا شئت ان ترجع فلنفترق .

قال : ولكن ما هذه الطريق وأين روزالي .

قال : اننا سائران اليها .

ـ ألا يوجد طريق آخر ؟

ـ لا يوجد غير هذا الطريق لك .

فتردد هاردي هنيهة، واستمر ساتان في نزوله ولكن هذا التردد لم يطل فكان ساتان يقول في نفسه .

انه اذا خاف نجا وكان هاردي يقول في نفسه :

ما هذه الطريق الغريبة ، ولكني لو كنت واثقاً انها طريق الموت فلا بد لي من سلوكها لأنها تؤدي الى روزالي .

وفوق ذلك فما اخاف فانه لو بدر اقل بادرة من هذا الساحر تحملني على الريب به قتلته دون إشفاق .

وعنـد ذلك تبع ساتان مسرعاً فانتهيا من السلم الى رواق طويل تحت الأرض خرجا منه الى منعطفات وأروقة مختلفة .

وكان هاردي يسير وهو يعجب من هذه الطريق العجيبة ويظن الظنون الى ان خطر له ان روزالي تقيم خصيصاً فيهذا المكان السري ولكن لماذا .. ومن اقامها فيه ؟

وقد التفت الى ورائه فلم يجد اثر الرواق الذي دخل منه فداخله الرعب ووضع يده على كتف ساتان فقال :

قل لي أين نحن الآن ؟

ـ ولكنك ترى اننا تحت باريس .

ـ تحت باريس ؟

ـ دون شك فان باريس مدينة عظمى فيها ما لا يعد من القصور والفنادق والكنائس والبنايات على اختلافها فمن أين أتوا بحجارة هذه البنايات إلا من جوف الأرض ومن مثل هذه المغاور ، أفهمت الآن ؟

ـ نعم ، ولكن الى أين تؤدي هـذه الدهاليز المظلمة في جوف الأرض ؟

فضحك ساتان ضحك الهازىء وقال :

انها لا تؤدي الى مكان فانها مسدودة ، أيها الشفاليه ، ما خلا ثلاثة منها لا يعرف منافذها غير أفراد قلائل وأنا منهم .

ان هذه الدهاليز عروق ذلك الجسم الضخم الذي يدعونه باريس ولكن عروقها لا دم فيها .

ـ أيها الساحر أرجو ان لا تكون عامداً الى خيانتي ؟

ـ أنا أخوك .. ولماذا ؟

فجرد هاردي خنجره وقال له : ان حياتك متصلة بحياتي فسر الآن كما تشاء .

ـ ليكن ما تريد ، ولكنك سألتني عن هذه الدهاليز ، أيها الشفاليه الباسل، ولا بد ان تعرف أمرها انظر الى هذا الدهليز الذي ظهر عن يمينك،

فليس من يعرف أين ينتهي، ثم ان هذه الدهاليز والاروقة كلها يتصل بعضها ببعض بحيث لو سار المرء فيها عاماً عرف مداخلها ومخارجها وكان كحجر الطحن يدور على المحور ، ثم ضحك وقال :

انك لو كنت وحدك ، أيها الشفاليه ، لمت موتاً هائلاً بعد نزاع أليم طويل يدوم بضعة أيام .

نعم ، انك تموت هنا عطشاً وجوعاً ، هذا اذا لم تمت من الرعب فانك تسير كالمجانين ، من مكان الى مكان ، دون ان تهتدي الى طريق تخرج منها .

ولكنك معي لحسن الحظ وأنا اعرف هذه المنافذ فقد اجتزتها نحو مائة مرة على الأقل.

فقبض هاردي على ذراعه وقال له : متى نصل ؟

ـ قريباً

وكانا قد وصلا الى قاعة مثسعة لها نحو عشرة منافذ ، فقال ساتان :

اني طالما اضطررت الى الاختباء في هذه القاعة حتى بت استطيع الخروج من هذه الدهاليز دون نور لعلائم خاصة وضعتها في الجدران فكنت أهتدي بها .

اما أنت فانك لا تستطيع الإهتداء ، ولو كان لديك نور تستضيء به فتموت من الجوع والعطش والرعب .

ـ كفى واسرع بالمسير كي تصل .

ـ ولكننا وصلنا ، أيها الشفاليه .

وعند ذلك أطفأ الشمعة فذعر هاردي ومد يده الى ساتان كي يلتقطه فلم يعثر به ولم يجد أمامه غير الظلمات .

فجعل يركض ركضاً عنيفاً بغية إدراكه الى ان وقف وقد هلع قلبه من الرعب ، وأيقن ان ساتان قد ابتعد عنه في تلك الظلمات ، ولا سبيل الى إدراكه .

وقد وقف يصغي عله يسمع وقـع خطواته ، وبقي له رجاء وهو ان الساحر لا بد له ان يكلمه قبل انصرافه فيسمع شتمه او ضحكه وهزءه به .

ولكنه لم يسمع شيئاً من ذلك ولم يرَ شيئاً غير تلك الظلمات الكثيفة التي كانت تحدق به من كل جانب .

وقد بلغ الرعب منه مبلغاً عظيماً فبذل جهداً عنيفاً كي يخفف هـذا الرعب عله يهتدي الى طريقة النجاة .

فجلس على الأرض وعاد الى الإصغاء،وقد عاوده الرجاء بأن يهتدي على أثر ساتان .

ولكنه لم يسمع شيئاً فان ساتان لم يكن من اولئك الذين يريدون الانتقام للمباهاة بل كان يريده لمجرد الانتقام .

وكان بوسعه ان يهزأ بهاردي دون ان يمكنه من الوصول اليـه ، ولكنه حين انطفأت الشمعة محا إسم هاردي واعتبره كأنه لم يكن وجعل يفتكر بسواه ..

وقد عاد بتلك الطرقات التي يعرفها وبلغ السلم وخرج الى سطح باريس وهاردي لا يزال ينتظر ان يهتدي اليه بصوته او بوقع خطواته .

فلما وثق انه لم يبق له رجاء به قال في نفسه :

ان هذا الشيطان المريد قد اخترع طريقة لقتلي لا يهتدي اليها الأبالسه، ولكن الويل له إذا قدر لي الخروج من هذه الظلمات .

فلأدع التفكير به الآن ولأفتكر في طريقة الخروج من هذا القبر المتسع، فلم يخطر له إلا أبسط الطرق وهي ان يسير في احد الدهاليز دون ان يعرج إذ لا بد ان ينتهي الى منفذ .

وقد نهض عن الأرض وجعل يسير مهتدياً بيديه حتى انتهى الى احـد جدران القاعة وبلغ منه احد تلك الدهاليز التي رآها قبـل انطفاء الشمعة ، وسار به سيراً شاقاً لا يدركه إلا من يجرِ به بالسير مائة خطـوة معصوب العينين في طريق يعرفها .

وكان يلتطم كل خطوة بجوانب ذلك الدهليز الضيق ويداه منبسطتان أمامه كالعميان .

فسار بضع ساعات وهو مشغول عن طول الوقت بما هو فيه الى ان بدأ يعجب من طول هذا الدهليز ويحسب انه ليس له آخر ، وأخذ يوسع خطواته .

وفيما هو يسير عرف فجأة كيف انه لا ينتهي من هذا الدهليز ، وذلك انه التطم الى جهة اليسار بجدار التطاماً اقوى من التطامه السابق فتراجع خطوتين .

ثم خطر له ان يعلم بأي شيء التطم فتقدم خطوتين الى الجهة نفسها وبسط يديه فما اصابتا غير الخلاء فعلم انه دخل في دهليز آخر وان الجدار الذي التطم به كان منعطف ذلك الدهليز .

فجلس على الارض خائر القوى وقد ملأ اليأس قلبه وجعل العرق ينصب من جبينه وتمكن منه الرعب أشد تمكن إذ خيل له انه يسمع صوتاً متصلا ولكنه علم ان هذا الصوت لم يكون إلا صوت رعبه .

وعند ذلك خجل من نفسه وقال بصوت مرتفع .

ترى مما اخاف فان الموت لا يرعبني ... وكيف أخاف عذاب العطش والجوع وانا استطيع الانتحار حين أشاء ما زال خنجري معي .

وكان قد اطمأن لهذا الخاطر فتنهد تنهد ارتياح وواصل سيره .

غير انه لم يسر بضع خطوات حتى عاوده ذلك الرعب ونسي انه له عزاء الانتحار ..

ذلك انه شعر ان الارض قد تحدبت تحت قدميه بعد انبساطها وان الأخاديد والحفر قد تكاثرت وانه لم يعد يسير على ارض مسطحة بل كان كأنه يهبط الى واد فبات يتوقع في كل لحظة ان يسقط في هاوية وليس له مرشد غير يديه وهما لا تقيانه العثار .

فرأى ان خير واقٍ يقيه ذلك المثار أن يزحف زحفاً كالأفاعي او يمشي على الأربع كالحيوان .

وقد جعل تارة يزحف وتارة يدب وهو يواصل السير إذ لم يكن له رجاء إلا به حتى انتهكت قواه وطال به الزمن فعضه الجوع واشتد به العطش وهو لا يجد منفذاً بل يخرج من دهليز الى دهليز ومن ظلام الى ظلام .

الى ان شعر بان ركبتيه لا تحملانه وان الدوار اصاب رأسه ، ولكنه مع ذلك واصل السير لأنه كان آخر برهان لديه بانه لا يزال من ابناء الحياة.

وكان قد أحس بالعطش فجأة فجف حلقه والتهب صدره وشعر ان الظمأ أشد عذابات الارض ، ثم اشتد به الظمأ فعقبه حمى ولدت هذياناً ، فكان يصيح ملتمساً الماء إذ خيل له انه يسمع صوت نبع يسيل ولكنه كان يخال له انه كل ما اقترب من النبع هرب منه .

ثم مثلت له الحمى انه مقيم في فندق ليتبود فجعل ينادي صاحب الخمارة قائلاً : يا ليتبود : أشرع الكؤوس ... إملأ القناني ... أسقنا ... واسقِ الرفاق ..

وأخذ يشرب ولكنه كان يشعر ان هذه الكؤوس تزيده ظمأ على ظمأ وانها ناراً محرقة الى جوفه فيصيح مستنجداً بأعلى صوته فلا يجيب نداءه غير صدى تلك الدهاليز .

وبقي على هذيانه نحو ساعتين الى ان زالت الحمى وذهب الهذيان ، ونظر في حالته فأيقن انه يهيم في تلك الظلمات وان هذه الدهاليز لا اول لها ولا آخر ، وذكر اقوال ساتان فأيقن انه سيموت في جوف الأرض ، فانبطح على الرمال يترقب الموت وقد خارت قواه ، فلم يعد يخطر له الانتحار .

وكان على أشد حالة من الاضطراب بحيث انه لم يكن يستطيع التفكير بما هو فيه ..

ولكنه كان واثقاً من انه سيموت ، فبذل جهداً عنيفاً كي يستطيع ان يقول كلمة فلم يستطع ان يلفظ إلا إسم روزالي .

وكان يتنفس ببطء وقد انحلت قواه وبات عاجزاً عن كل حركة ، فلم يكن بينه وبين أهل النزع شيء من الفرق .

على انه بعث من الموت الى الحياة فجأة ، فان هذا الرجل الذي انهكه التعب وهد حيله الجوع وقتل عزيمتــه الرعب حتى انه لم يستطيع التنفس نهض فجأة عن الارض وقد رجعت اليه قواه وذهب جوعه واشتد حيله

ذلك انه سمع عن بعد اصواتاً إنسانية كانت تبلغ الى مسمعه كالهمس .

وهذا الذي رد اليه قواه بل رد اليه الحياة ، فان في مثل هذه الظلمات يكون السمع آخر ما يموت في الانسان .

وقد مسح وجهه وبذل كل قواه الفكرية كي يتمكن من السكينة ، فلما وثق من ضبط اضطرابه اغمض عينيه وجعل يصغي والرجاء ملء قلبــه ، فانه كان يشبه مع هذه الاصوات رجلاً تتقاذفه امواج المحيط وهو على وشك الغرق فيرى سفينة قادمة اليه من بعيد

وعند ذلك جعل يسير الى جهة هذه الاصوات وهو خافق القلب يخشى كل لحظة ان تنقطع الأصوات او يتغلب عليه الضعف فيغشى عليه ، ولذلك كان يسير بملء الحذر ويداه منبسطتان امامه .

وإنما كان يسير الى الحياة ، فاذا ضل الطريق او تاه عن مصادر هــذه الأصوات عاد الى ما كان فيه من النزع ولم يبق له رجاء بالحياة .

ولكن هذه الاصوات لم تبتعد بل زادت وضوحاً ، وقد رأى في وسط تلك الظلمات المتكاثفة نوراً يضيء فكان هــذا النور من أدق ما يتغزل به الشعراء . .

نعم انه كان ضعيفاً يشبه نور النجم البعيد ولكنــه كان نوراً مزق حجاب الرعب الذي كان مستولياً على هاردي وأزال عطشه كأنه قــد شرب من افخر خمور ليتبود وشعر ان قواه قــد تجددت كأنه ناهض عن المائدة فمشى دون حذر الى ذلك النور لوثوقه الآن من انه يصل الى الغاية .

وكان كل ما تقدم تزيد الأصوات وضوحاً والنور اتساعاً الى ان تألقت

تلك الانوار ورأى هاردي عن بعد نحو مائة إنسان يستنيرون بأنوار المشاعل فعجب لأمرهم وقال في نفسه : ترى من هؤلاء الناس وما يصنعون في هذه الدهاليز ؟

حتى اذا صار على قيد مائة خطوة منهم لم يعد يمشي مشياً بل جعل يركض ركضاً وهو واثق من انهم سينقذونه مهما يكن من أمرهم .

وقد عرف من هذه الاصوات صوتاً كان يقول :

هذه هي أوامر مولاي يا كابوش ابلغتك إياها .

وكان هذا الصوت صوت تونفيل .

فنظر هاردي الى ذلك العدو الهائل فرأى بجانبه كورتيز وغيليوم وكثيرين من البورجونيين .

وأما الآخرون فقد كانوا من فريق العامة ولم يكن يعرف احداً منهم ، ولكنه كان واثقاً من ان جميع اولئك البورجونيون كانوا يريدون له الموت وعلى ذلك فقد كان واقفاً بين خطرين ، فانه إذا رجع الى الوراء لقي الظلمات والعطش والجوع والرعب ، واذا تقدم الى الأمام لقي أعداء ألداء ينهبون جسمه بخناجرهم وسيوفهم .

وقد وقف هنيهة وقفة الحائر المضطرب ، ثم قال في نفسه :

اني أوثر الف مرة ان يقتلني البورجونيون على ان تقتلني هذه الظلمات، فاني اذا ألقيت أعدائي قتلوني بلحظة ، فارتاح من النزع الأليم .

وعند ذلك تقدم بضع خطوات ولكنه عاد الى الوقوف وقد تمثلت له الحياة بأجمل معانيها فولدت في نفسه الحكمة وأراد قبل هجومه على البورجونيين ان يبحث عله يجد طريقة يتمكن بها من الصعود الى سطح الارض .

٥٠

كيف اعدوا الحرب المدنية

وقد تقدم بضع خطوات ولاحظ أمرين خطيرين أحدهما ان أولئك الناس كانوا مقيمين في قاعة متسعة ، وانه يوجد في آخر هذه القاعة سلم نزل منه البورجونيون دون شك .

وانه لا يوجد دهليز متصل بهذه القاعة غير الدهليز الذين هو فيه بحيث انه لا خوف عليه الآن من ان يضل السبيل .

والثاني انه بات واثقاً من الصعود الى سطح الارض، فانه متى صعد ذالك السلم ينتهي الى باب ومهما كان الباب متيناً فانه يتمكن بالصبر والقوة والحيلة من فتحه .

وعلى ذلك فقد رسم لنفسه خطة النجاة .

وكان هؤلاء النـــاس منهمكين في شؤونهم بحيث كان يمكن لهاردي ان يدنو منهم دون ان ينتبهوا اليه .

واذا أبى ان يخاطر هـذا الخطر فانه يستطيع ان يصبر الى ان تنتهي جلستهم فيخرج كما خرجوا اذ عرف الطريق .

وكان كابوش يمثل عشرين الفاً من رجال الشعب ، كما ان تونفيل كان يمثل الدون دي بورجونيا .

فقال له تونفيل :

اني سأبسط لك ولرجالك نيات مولاي الدوق دي بورجونيا .

فأجابه كابوش :

ان مولاك الدوق وعدنا ان يحضر بنفسه لمناقشتنا بشأن الحرب المدنية .

ولا شك ان هذا المكان الذي اخترناه للمباحثة مظلم كمستقبلنا ، منقبض

كنفوسنا ولكنه ليس لدينـا قلاع يحفظها الجند فاضطررنا الى اختيار هـذا المكان لوثوقنا بان لا يرانا احد فيه .

وهـذه هي قلاعنا التي نلجأ اليها ، فهل خاف مولاك ان يحضر الى هذا المكان ؟

قال : ان مولاي يدعى جان الذي لا يخاف .

ـ إذن ، لمـاذا لم يحضر ألعله يحتقرنا اذا كان لا يخاف فقد ذهبت أنا مراراً الى قصره فلماذا لا يريد ان يزورنا وقد شربنا بكؤوسه الذهبية فلماذا لا يشرب بكؤوسنا فاعلم يا تونفيل اننا لا نحب ان نعرف منك مقـاصد الدوق بل نريد ان نعرفها منه .

فأجابه صوت قائلاً :

هو ذا أنا .

فالتفت الجميع الى مصدر الصـوت والتفت هاردي أيضاً فرأوا الدوق دي بورجونيا فنزل السلم ببطء .

حتى اذا وصل الى القـاعات كشف الجميع قبعاتهم إحتراماً ودنا كابوش منه فقال له :

السلام على الدوق دي بورجونيا .

أما الدوق فانه مشي الى مائدة كان عليها أقداح الخمر، فتناول كأساً ، وقال :

انك ، يا كابوش شربت عندي نخب مجدي وأنا أشرب عندك نخب نجاح أمانيك .

ثم قرع كأسه بكأس كابوش فصاح البورجونيون قائلين :

ليمت الأرمانيكيون (حزب الكونت دي أرمانياك) .

وصاح رجال كابوش قائلين :

ليمت الظلم والظالمون .

وصاح كابوش قائلاً :

لتحيى الحرية .

فلما انقطع هذا الصياح التفت الدوق الى كابوش ورجاله فقال لهم :

اني تأخرت قليـــلا عن الوصول ، ولم يكن ذلك عن خوف ولا عن احتقـــار ، كما توهم كابوش ، ولكني تأخرت لأني أحببت ان اعلم حقيقة ما يفعله أعداؤنا جميعاً ، أي الأرمانيكيون وقد عرفت الآن ما يصنعون وأنا مخبركم به .

فساد السكوت على الجميع ، وعرف كابوش من هيئة الدوق انه قـادم بانباء خطيرة فقال في نفسه :

ان هذا الدوق اذا كان موجـوداً بيننا فذلك يدل على انه بات يخـاف الأرمانيكيين أكثر مما يخـاف الشعب فلا أبيعه محالفتنا بالثمن البخس ومن يعلم فقد ننال حريتنا بهذه المقابلة .

وعاد الدوق الى الحديث فقال :

أيها السادة اصغوا اليّ ولنتفق في البدء ليس على الحرب التي سنثرها بل على الأسلاب التي سنغنمها من هذه الحرب اذا أتيح لنا النصر فيها اذ لا يجب ان يغبن احد منا .

فوافقت هـذه الأقوال أفكار كابوش ، لأنه لم يكن يريد الحرب لمجرد مساعـدة البورجونيون على الأرمانيكيين ، بل كان يريد الفائدة الكبرى للشعب

اذا كنت مخلصاً ، يا مولاي، فيما تقول فاني أضمن لك النصر منذ الآن.

واسمح لي ان اشكرك اذ هـذه هي المرة الأولى التي عرفت فيها قدرنا وعاملتنا معـاملة الحليف للحليف ، وعلمت ان كل أمر لا يستقيم إلا بموافقة الشعب .

إذن، لنتحالف محالفة إخلاص ونحن نبذل آخر درهم من أموالنا ونسفك آخر نقطة من دمائنا .

ولكن دعني اكون البـادىء بالكلام ما زلت قد ذكرت اقتسام الغنائم

فانك تقدر حصتنا حق قدرها دون شك ومن أجـل ذلك يجب ان تعرف قوتنا وتقدر أعمالنا فاصغ اليّ .

ثم نادى قائلاً : الجزيرة .

فتقدم أحد رجاله وقال :

هو ذا أنا .

قال : كم لديك من الرجال ؟ وكم عندك من المال ؟

قال : مائتا رجل وثلاثة آلاف دينار .

فدهش الدوق وقال :

ألديه من المال هذا القدر الكثير ومن الرجال هذا العدد اليسير ؟

فابتسم كابوش وقال :

هذا في شارع الجزيرة وحده ، يا مولاي ، وهو شارع تجـار الذهبَ ، فاسمع .

ثم نادى قائلاً :

شارع البحرية .

فانبرى رجل نحيف البنية وقال :

لدي اربعة آلاف مقاتل لا يهابون الموت .

فقال الدوق : اني افضل هذا .

ونادى كابوش قائلا :

شارع الهيكل .

فتقدم رجل وقال :

ستمائة رجل والف دينار .

فنادى قائلاً :

شارع الجامعة .

فأقبل رجل وقال :

لدي أربعمائة رجل لا يعوزهم غير السلاح .

فقال الدوق : سنعطيهم كل ما يشاءون .

وجعل كابوش ينادي كل فرد من رجاله باسم الشارع الذي يمثله فيجيبه ويخبره بما لديه من المال والرجال حتى بلغ المجموع ثمانية عشر مقاتل وخمسين الف دينار .

لقد رأيت ، يا مولاي ، اننا نستطيع بهذا العدد ان نقاوم جيش الملك ، بل نقاوم جيشك أيضاً .

وفوق ما لدينا من المال والرجال فان لدينا تلك الارادة الثابتة التي لا تتزعزع فاننا نريد الحرية أو الموت .

أما وقد عرفت ، يا مولاي ، مددتنا فقد بقي ان تعلم ما تريد .

وكان الدوق يصغي بملء الاصغاء الى هذا الرجل الخامل الذي يكلمه بلهجة المستكبر الجسور لأنه يمثل تلك القدرة الخفية ، أي قوة الشعب الذي اذا غضب كان كالتيار الجارف .

وبعد أن اطبق هنيهة قال له :

اني اقدر هذا التحالف الذي تقترحه عليّ حق قدره ولكني قبل ان اعلم ما تريد احب ان تعلم ما اريد .

ـ لا فائدة من ذلك ، يا مولاي .

فقطب الدوق حاجبيه وقال :

ابلغ من كبرياء الشعب انه لم يعد يستطيع ان يعلم إرادتنا .

وعند ذلك كثر الصخب بين الجمهور وانقسموا الى قسمين فوقف فريق من النبلاء بجانب الدوق ، وأحاط العامة بكابوش الى ان رفع كابوش يده فسكت الجميع وقال :

أيها الدوق ، وأيها النبلاء ، أننا نعلم ما الذي تريدونه ولذلك قلت لك يا مولاي ، ان لا فائدة مما ستقوله فانك تريد العرش ونحن مستعدون لحملك على اكتافنا الى قصر سانت بول وهذا كل تريده كما اظن .

فارتعش الدوق وقد امتزج في نفسه الرعب والغضب والرضى والرجاء .

ولكنه كان معجباً كيف ان هذا الرجل الفقير قد تولى رئاسة هذا المؤتمر وانه واثقاً من إحراز النصر الاكيد يمثل هذا الحليف ، فنظر نظرة سريعة الى النبلاء المحيطين به مفادها :

« دعـوه يفعل ومتى ادركنا مرادنا نعرف كيف ننتقم من هذا الحليف الجسور الوقح».

وعاد كابوش الى الحديث فقال :

انالملك شارل مجنون والدوق دي‌أورليان قتيل والدوق دي‌بيري خبيث لا نثق به وليس لدينا غير الدوق دي بوربون الذي يستطيع ان يساعـدنا دون ان يسألنا جزاء ولكنه ملتزم الحياد .

وعلى ذلك قـد اتسع المجال للملكة في ملك رقابنا وبات أولئك النبلاء يطوفون بيننا بملابس الذهب استقطروه من دمائنا ولذلك بتنا في حاجة الى رجـــل نضعه على العرش بشرط ان يضمن لنا حياتنا فان من يعمل الليل والنهار لإسعادكم ، أيها النبلاء ، لا يحسب من اهل الحياة .

وقد انتفخت عروق صدغيه واحمرت عيناه وارتعد النبلاء لجرأته، وقال في نفسه :

نعم ، ساعدونا في البدء على تطهير قصر سانت بول من الظالمين وبعـد ذلك نخلص منكم جميعاً ، أيها الأوغاد، فلا فالوا ولا بورجون ولا بوربون بل الحرية .

وقال الشفاليه هاردي ، وكان يسمع الحديث :

والله لو اعطي الملك باستحقاق لما استحقه افضل من هذا الرجل .

وعاد كابوش الى الحديث فقال .

أما الآنفانكم معنا يا معشر البورجونيين ويسركم كما اسمع مناقوالكم ان ينال الشعب حقه خلافاً للارمانيكيين فانهم يقولون :

لقد آن لنا ان نخضع الشعب .

ولذلك ترون ان الحكمة تقضي علينا بأن ننضم اليكم ونمد معكم يداً واحدة .

وعند ذلك اشرق وجه الدوق بنور البشر ونسي البلاء المحيطين به ان هذا الرجل الذي يخالفهم من الفقراء فمدوا اليه أيديهم وصاحوا بصوت واحد قائلين :

ليمت الأرمانونكيون .

ليمت أرمانياك .

ولكن يجب بعد موته ان ننال حصتنا ، فهل انتم عازمون على اعطائنا كثيراً ؟

فرفع الدوق يده وقال :

اقسم بالله اني حين ارتقي الى عرش فرنسا أفي بجميع الشروط التي تقترحها عليّ .

قال كابوش مخاطباً النبلاء :

وأنتم أيها السادة ؟

فأجابوه قائلين :

اننا نوافق على ما قاله مولانا الدوق .

ـ هل بينكم من يعرف القراءة ؟

فقهقه الجميع ضاحكين وقال الدوق :

أنا اكتب بيدي الشروط التي تطلبها .

فارتعش كابوش سروراً ليس لاعتقاده ان الاتفاق اذا كان معقوداً بالكتابة يكون ابلغ نفوذاً ولكنه سر لاعتقاده ان إكراه الدوق على كتابة الشروط دليل على إذلال النبلاء وخضوعهم للشعب .

وعند ذلك جلس الدوق على مائدة في المغارة كانت معدات الكتابة عليها فجعل كابوش يملي عليه شروط الشعب .

وهي شروط كنا نود ان نذكرها بجملتها إظهاراً لحالة الشعب وحكامه في

ذلك العصر ولكنها لا تخرج في معناها عن شروط الشعوب المظلومة فاضربنا عنها خوف الملل مكتفين بالاشارة اليها وان الدوق أجاب كابوش الى كل ما طلب وكل منهما يخدع الآخر .

فان الدوق كان يرجو ان يعبث بهذه الشروط متى تعين ملكاً وانما رضي بقبول شروط الشعب التماساً لمساعدته .

وكذلك كابوش فانه لم يكن يخطر في بال ان يساعد الدوق على إرتقاء العرش ولكنه اراد ان يتذرع به الى كبح جماح المستبدين .

حتى اذا اتم الدوق الكتابة قال له :

أهذا كل ما تريده ؟

قال : نعم ، يا مولاي ، فلم يبق غير التوقيع .

فلما وقع الدوق على الشروط ، التفت كابوش الى النبلاء، فقال لهم :

أتريدون أنتم منحنا هذه الشروط ؟

قالوا : اننا نوافق على ما امضاه الدوق .

فقال كابوش للدوق :

انك ، يا مولاي ، منـذ الآن زعيمنا الاكبر ونحن نقسم لك يمين الطاعة الى ان نبيد اعداءنا وستجدنا متأهبين عند أول الاشارة .

قال : حسناً فسيأتيك أحد رجالي بتلك الاشارة .

قال: أيهم؟

قال: هذا .

وأشار الى كورتيز .

ثم التفت الى رجال كابوش وقال لهم :

اني معتمد عليكم ، فاعتمدوا عليّ .

وعند ذلك انتهت الجلسة .

فتنهد هاردي ، وقال :

لقد فرغوا والحمـد لله من هذه المناقشات العقيمة فاني أكاد اموت جوعاً

وعطشاً وما كان اخلق بهذا الرجل الذي اقترح شروطه على الحكومة الجديدة ان يقترح ايضاً نصب موائد الطعام والشراب على قارعات الطرق حتى إذا جاع من كان لا درهم لديه مثلي يجد ما يأكله .

ولكن هؤلاء الناس يخرجون فلأنتبه .

وكان الدوق اول الخارجين فتبعه رجاله وجعلوا يصعدون السلم الواحد تلو الآخر .

وقد اتفق ان كورتيز كان في آخرهم ، فبينما هو يصعد السلم سمع صوتاً يناديه .

فالتفت فرأى رجلاً لم يتبين وجهه ولكنه رأى انه يتقلد حساماً ، فأيقن انه من رفاق رجال الدوق لأن عامة الشعب لا يتقلدون السيوف، وقال له :

ماذا تريد مني ؟

قال : لي كلمة اقولها لك ولا أحب ان يسمعها رفاقنا فانزل معي الى الدهليز نتحدث دقيقتين

فأيقن كورتيز انه عدو يريد قتله وجعل يبحث بسرعة عن اسماء اعدائه ولكنهم كانوا كثيرين ، فرجع عن عدهم وقال لهاردي :

اتريد ان يكلمني انا شخصياً ؟.

قال : نعم أنت .

فناداه غليوم من اعلى السلم قائلاً :

ما بالك لا تأتي يا كورتيز ؟

قال : اسبقوني فاني قادم اليكم ، ثم قال لهاردي :

ارأيت يا سيدي ، انهم ينتظرونني ، فاسرع وقل ما تريد .

وكانا قد وصلا الى الدهليز وأشعة المشاعل نافذة اليه فكشف هاردي الرداء عن وجهه فرآه كورتيز وقال بلهجة شفت عن الرعب :

الشفاليه دي باسافان ؟

ثم نظر إلى اعلى السلم كأنه يلتمس النجدة .

فقال له هاردي : لقد قتلت كين وسأقتلك واقتل رفيقك ورئيسك .

ثم وثب فحال بينه وبين السلم ، فقال له كورتيز : إذن انت تريد قتلي؟

قال : نعم كما قتلت كين .

ـ ولكن لماذا تريد قتلي ؟ فاني أحب ان أعلم سبب حقدك عليّ كي إذهب مطمئن البال للقاء صديقي في العالم الاخير الذي يفضل هذا العالم دون شك لأنك لم تذهب اليه بعد .

فابتسم هاردي ابتسام المتهكم وقال :

ثق اني حين أذهب الى هذا العالم الاخير لا تكون انت الذي يهديني الى الطريق وثق اني إذا لقيتك فيه قتلتك ايضاً لأن الحقد قد يبقى في قلوب الأموات .

إذن فاعلم اني سأكرهك في الآخرة كما اكرهك في هذه الدنيا لأنك قتلت غدراً وخيانة مع اخوانك رجلا لا ذنب له غير المروءة .

وانكم حين قتلتم الدوق دي اورليان أقسمت انانتقم له منكم لأنهانقذني من الموت .

وكنت اود قتلك في كل حين أما الآن فاني اقتلك بسرور عظيم لأني أرجو ان تعوض كل نقطة من دمك كل دمعة من دمعة أرملة الدوق التي رأيتها تبكي .

ولم يكد هاردي يتم كلامه حتى عاجله كورتيز بطعنة غدر كاد يقضي عليه بها .

فقال له هاردي : يسرني ان أراك على ما اعهده فيك من الغدر ،فاني اقتلك دون إشفاق على الأقل .

ثم انقض عليه ، فلم تكن غير هنيهة حتى سقط كورتيز صريعاً .

وعند ذلك سمع هاردي صوت تونفيل يقول من أعلى السلم :

ابن أنت يا كورتيز وما بالك لا تأتي؟

إني موافيكم

قال : إنا ذاهبون ، فوافنا الى قصر الدوق .

قال اني قادم

وأسرع لفوره الى قبعة كورتيز فلبسها ثم أخذ رداءه فاتشح به وصعد السلم ببطء حتى اذا وصل الى آخره وجد نفسه في قبو ولقي هناك رجلاً دله على سلم آخر وقال له :

اسرع فان رفاقك ملوا الانتظار فذهبوا وهم الآن في الطريق .

قال : ان الاجتماع في قصر الدوق دي بورجونيا ، أليس كذلك ؟

قال : نعم.

وصعد هاردي السلم الآخر وانتهى منه الى غرفة كان فيها امرأة عجوز .

فحياها مبتسماً وقال لها : في أي يوم نحن من الاسبوع ؟

فعجبت العجوز لسؤاله وقالت له : في يوم الجمعة .

فارتعش هاردي إذ دخل الى تلك الدهاليز في يوم الثلاثاء فيكون قد أقام فيها ثلاثة ايام .

وقد عجب كيف انه يستطيع ان يقيم ثلاثة أيام دون طعام وشراب إذ لم يكن يعلم ما يعلمه ساتان وهو ان نزاع الموت من العطش والجوع قد يدوم عشرة أيام وأكثر

فقالت العجوز : هل انت محتاج الى شيء يا سيدي ؟

فظهرت على هاردي علائم الخجل مما سيقول وقال :

نعم اني محتاج الى كأس ماء .

قالت : بل زجاجة خمر يا سيدي ، فان من كان مثلك لا يشرب الماء .

قال : بل شربة ماء ولكن إسرعي .. إسرعي بالله .

وقد شعر عندئذ بعطش أشد من عطشه حين كان في الدهليز ، فجاءته العجوز بكأس ماء فشربها جرعة واحدة وقال : هاتي ايضـــاً ، فجاءته

بالثانية والثالثـــة حتى شرب خمس كؤوس وهي تعجب كيف ان النبلاء يعطشون هذا العطش وكيف يقتصرون على شرب الماء القراح .

وبعد ان روى ظمأه شعر بارتياح عظيم فابتسم للعجوز وشكرها ، ثم خرج من عندهـا الى الشارع فرأى ضوء النهـار ورأى النـاس يذهبون ويجيئون ، ولكن تونفيل ورفاقـه كانوا قـد ابتعدوا في الشارع وتواروا عن الانظار .

٥١

اطباء الملك

كانت غاية الدوق واضحة جلية ، فان هذا الرجل الطامع الجسور حين رأى البلاد باتت فوضى بعد جنون الملك وان كثيرين من عظمائها يطمعون في التاج ويعملون على نيـله بالسر ، ورأى انه أشد اولئك العظماء قوة كان بالطبـع أشدهم طمعاً بنيل ذلك التاج وأخذ يعمل على إزالة كل مـا يعترض سبيله .

وقد رأى ان اقرب الناس الى العرش وأحقهم به شقيق الملك الدوق دي اورليان فقتله كما تقدم .

ورأى ان ايزابو أشد المقربين هولاً فعمـل على اغتنامها بالغرام الكاذب والوعود الكاذبة

ونظر نظرة الى غيرهما من الطامعـين كالدوق دي بيري والدوق دي بوربون فرأى انه لا يخافهما بعـد ان اشتد أزره بمحالفة ايزابو .

ولذلك لم يبقَ عليه من اهل القوة والبأس غير الكونت ارمانياك ، فقد كان من اهل الشجاعة والبأس وكان يمثل فريقاً عظيماً من النبلاء ، فرأى ان يستعين عليه بجيشه وبالشعب .

ولذلك حالف كابوش في الدهليز حتى اذا ارتاح باله ووثق من احراز النصر بدأ بتنفيذ خطته

وكانت خطته منحصرة في ما يأتي:

وهو ان يقتل الملك كما قتل أخاه ، أي دون ان يظهر ان له يداً في هذا القتل حذر الناس ، فان الملوك كانوا مقدسين عندهم في ذلك العهد .

وحين يرده خبر قتله يصدر إشارته الى كابوش ويزحف الى قصر سانت بول فلا يجد فيه غير الحلفاء من امثال ايزابو ورجالها ويكون جيشه والشعب خارجاً لمقاومة رجال ارمانياك .

أما حليفاه ايزابو وكابوش فلا يعدم وسيلة للتخلص منهما متى استتب له النصر واستولى على أريكة الملك .

وقد تقدم لنا القول في غير هذا المقام ان الخرافات كانت كثيرة الشيوع في ذلك العهد لا سيما ما تعلق منها بالأبالسة والارواح ، فكانوا يعتقدن ان من اصيب بالجنون فقد اصيب بمس من الشيطان ولذلك كانوا يعالجون المجانين بأهل الزهد والعبادة ، فيعالجونهم بالصلاة كي يطردوا بها الأرواح الشريرة من نفوسهم ..

وبهذا ومثله كانوا يعالجون الملك ، غير ان جنون الملك لو كان من شيطان غير منظور لشفاه منه أهل النسك ، ولكن جنونه كان من شيطان منظور أي من امرأته كما صرح به مرة أمام هاردي .

ومع ذلك فقد كان يرضى بعلاج الزهاد والنساك على اعتقاده ان شيطانه غير مقيم في صدره بل في قصره .

وكان اهل النبل والمقربون يتسابقون الى إحضار من اشتهروا من أهل النسك باخراج الشياطين ، فاغتنم الدوق دي بورجونيا هذه الفرصة وجاء بناسكين من رجاله وقدمها له مبيناً بذلك صدق اخلاصه لولاء الملك ..

فلم يسع الملك إلا قبولها وإظهار رضاه من غيرة الدوق وإخلاصه .

فلازم الناسكان الملك لا يفارقانه ، وكان الدوق قد أصدر اليهما اوامره الخاصة وأقام في قصره ينتظر على أحر من الجمر ان يعودا اليه بخبر موت الملك فيصدر الإشارة المتفق عليها مع كابوش ويزحف الى قصر سانت بول .

وفيما هو ينتظر دخل اليه ذانك الناسكين وقد بدت عليهما علائم الاضطراب ، فما شكك الدوق انهما قتلا الملك وصاح بهما قائلاً :

أقضي الأمر ؟

فتمتم أحدهما بكلام لا يفهم وعقد لسان الآخر ، فمشى الدوق إلى واحد منهما فهز كتفه هزاً عنيفاً وقال له :

ويحك قل أقضي الأمر ؟

قال : كلا يا مولاي ، فقد فشلنا في آخر لحظة بعد ان بلغنا آخر درجات الفوز .

فسال العرق من جبين الدوق وقال :

كيف ذلك ؟

قال : ان الملك بعد ان أخذ الكأس من يده ووضعه على فمه دخلت الشيطانة .

فارتعش الدوق وقال : أية شيطانة ؟

قال : رسولة جهنم .

وقال الآخر : حليفة بعلزبول ، فقد ارسلها خصيصاً لمنع شفاء الملك .

ـ ولكن من هي ؟

ـ هي المدموازيل دي صامديفر .

فاضطرب الدوق وقال : يا الهول .

وذلك ان الغضب والحب قد ازدحما في قلبه ، فهو يلعنها الآن ، ولكنها لو مثلت له لسقط على قدميها .

ومضى الناسك في حديثه فقال :

انها دخلت والكأس بيد الملك وقد أدناه من فمه ليشرب فانتزعتــه من يده بعنف وكبت ما فيه .

فنظر الملك اليها دون ان يغضب بل كان يبتسم لها يا مولاي بحيث بت موقناً انه لا يمكن إخراج الشيطان من صدر الملك إلا بعد إخراج هــذا الشيطان من قصره .

فانتهره الدوق قائلاً :

كفى ، فلا تسيء اليها بكلمة إذا كنت تحب الحياة .

فجعل كل من الناسكين ينظر الى رفيقه ويقول في نفسه :

أرى ان مولانا الدوق أحق بالمعالجة من الملك ، فان هذه الشيطانة حاكمة على الاثنين .

وسكن غضب الدوق فقال :

امض في حديثك .

قال : بعد ان افرغت تلك الآنسة الكأس مشت الينا وقالت لنا بصوت منخفض :

انكما أقدمتما على أمر هائل .

قلنا : كيف؟

ـ اسكتا وأحمدا الله الذي جعلني من اهل الخير فلا اكشف امركما كي لا يقضى عليكما بالموت ، ولكن إحذرا ان تعودا الى هنا .

فلبثنا حائران لا نعلم ما نقول وذهبت هي الى الملك وقالت له :

أسألك يا مولاي ان تطرد هذين الرجلين من القصر .

ـ ليكن ما تريدين يا ابنتي .

ثم نادى رئيس حراسه وأمره باخراجنا من القصر ، وهكذا عدنا اليك يا مولاي واليأس ملء قلبنا .

فأطرق الدوق مفكراً ثم جعل يسير في قاعة السلاح ذهاباً وإياباً ويحدث نفسه فيقول :

هوذا الأقدار قد حالت بيني وبين قصدي فقد كاد يقضي الأمر ولم يبق عليّ إلا ان أشير إشارتي الى كابوش فتثور المدينة وبينما يكون القتال ناشباً بين رجال كابوش ورجال أرمانياك، أكون أنا في قصر سانت بول ، حيث لا يوجد ملك فيه سواي .

ولكن كل ذلك كان من قبيل الاحلام ويجب الآن ان اتوقف .

وبعد فمن يعلم فقد يعلمون غداً ، بل قد يعلمون الليلة اني أنا قاتل الدوق دي أورليان وعند ذلك ..

وقد ارتجف رعباً لهذا الخاطر الذي خطر له فانه على جرأته ونفوذه وقوة جيشه كان يخشى ان يعلموا بحقيقة أمره فيقبضون عليه ويدفعون به الى الجلاد فجعل يقول في نفسه :

أوديت ، أوديت انك لم تقتصري على حبك وتسلطك على قلبي ، بل أصبحت حائلاً عظيماً بيني وبين العرش .

ثم التفت الى الناسكين وقال لهما :

اقبلا ضيافتي لقصري الى الغد وغداً تعودان الى مقركما .

فانحنى الرجلان شاكرين ، ونادى الدوق مدير بيته ورئيس حراسه فقال لهما : إكرما هذين الناسكين وأعدا لهما خير مكان في القصر علهما ينسيان فيه ضيافتهما في قصر سانت بول .

فسار الناسكان مع المدير وتقدم رئيس الحراس من الدوق فقال له :

على الباب ، يا مولاي ، ثلاثة من النساك يلتمسون مقابلتك

فذهل الدوق وقال : ثلاثة نساك ؟!

٥٢

تنسك برايسكايل وشركاه

ثم اصدر أمره بادخالهم اليه فدخلوا وهم ممزقوا الملابس منبوشوا الشعور شأن النساك في ذلك العهد .

فلما تمعن الدوق في وجوههم بهت وقال :

برايسكايل ؟

فأجابه برايسكايل قائلاً :

نعم ، يا مولاي ، فليس الذنب ذنبي اذ لم امت .

فقال براكايل :

نعم ، يا مولاي ، ، بعثت بعد الموت .

فقال برانكايل .

نعم ، يا مولاي ، فقد اشتد بي الظمأ الى الخمر وعند ذلك ..

فقاطعه الدوق قائلاً لرئيس حراسه :

أنظر كيف جسر هؤلاء على الدخــول الى قصر دي بورجــونيا بهذه الملابس .

والحقيقة ان الدوق كان يحبهم لما كان يراه من حسن طاعتهم في خدمته فلما سلمهم الى ساتان وعلم بانهم سيموتون نسيهم ولم يعد يفتكر بهم فلما رآهم الآن امامه عاد الى ميله القديم اليهم واحب ان يخدعهم فقال لهم :

اخبروني الآن كيف نجوتم من سجن قصري ؟

فدهش برايسكايل لجرأة مولاه ، وقال : أنجونا من السجن ؟

قال: رئيس . كنتم في سجني فلم يعلم أحد كيف خرجتم منه فقد هربتم دون شك من ما .

وأطرق برايسكايل ولم يعلم ما يجيب وأوجس براكايل شراً اما برانكايل فأجابه قائلا :

هو ذاك ، يا مولاي ، فقد هربنا .

قال : ولكن كيف ؟

قال : بالنوم .

فحسب الدوق انه يتهكم في حين انه قال ما قاله بملء الاخلاص فقال له : حسناً ، فاخبروني الآن ماذا جرى لكم واحذروا ان تكذبوا .

وهنا رأى برايسكايل انه دنا وقت تداخله لأنه كان رئيس العصابة وخطيبها في مثل هذه المواقف فنظر الى رفيقيه نظرة يوصيهما بها بالسكون والحكمة وقال :

لا بد لي ، يا مولاي ، ان ارجع الى بدء الحكاية ، اذا أردت ان تعلم الحقيقة .

قال : حسناً ، ولكن احذر ان تسهب في القول كالنساك .

ـ النساك ؟

فقال رئيس الحراس ضاحكاً :

نعم ، النساك ألستم من النساك أيضاً ؟

فقال الدوق : نعم، فقد تكونون نساكاً فامض في حديثك يا براسكايل واحذر الاسهاب .

قال : ان ما أقوله يستحيل تصديقه ، مولاي ، فان هـذا الرجل الذي عهدت الينا به يموت حين يريد ، ويعيش حين يريد ، وهـذا الذي دعا الى غضبك علينا .

فرسم رئيس الحراس علامة الصليب على وجهه وقال :

الحق اني رأيت هاردي دي باسافان ميتاً في الكيس .

فقال برايسكايل : ان برانكايل قتله بضربة واحدة على رأسه .

فكشف برانكايل عن ساعديه وقال :

اذا كنت لا تصدقنا فانظر الى يدي فهي خير برهان .

فنظر الدوق الى ساعده نظرة اعجاب وقال لبرايسكايل :

امض في حديثك .

قال بعد ان سرنا بالرجل وهو في داخل الكيس الى النهر حسب الاوامر التي تلقيناها وضعنا حجراً في مقدم الكيس وحجراً في مؤخره ووضعناه في قارب ومن هنا يبتدىء كذبنا ، يا مولاي .

وقد ركع عند ذلك امام الدوق ، وجعل يقرع صدره ، ويلتمس العفو ويبكي .

فأدرك براكايل قصده ، واما برانكايل فجعل يقول في نفسه :

ترى من أين جاء هذا الحزن وقد كنا فضحك منذ ساعة ؟

اما الدوق فانه انتهر برايسكايل قائلاً : كفى .

فنهض برايسكايل وكف عن التوسل وقال بصوته الطبيعي :

اننا لم نلق الجثة الى المياه ، يا مولاي ، ولكن كان لنا في ذلك عذر فانه حينا حاول برانكايل وبركايل القاء الكيس في النهر وجدنا ان الجثة قد وقفت من تلقاء نفسها . نعم ، يا مولاي ، انها وقفت داخل الكيس ، واقسم بالله ، يا مولانا ، اني لا اخاف أن ارى المشنقة ، كما أخاف ان ارى هذا الكيس الذي أوشك ان يقتلنا رعباً .

فقال له قائد الحراس : إذن لقد خفتم ؟

قال : نعم ، يا سيدي ، وانك أنت على بسالتك لأضطربت خوفاً لو رأيت ما رأيناه من هذا الكيس .

ثم خاطب الدوق قائلاً :

لا أدري ما كنت تصنع ، يا مولاي ، لو كنت مكاننا ، أما نحن فاننا القينا انفسنا في النهر دون رشاد حتى اذا بلغنا الى الشاطىء نظرنا فرأينا القارب والجثة والكيس قد اختفوا عن الانظار وهذا هو سبب سجننا .

ولما دخلنا الى السجن نمنا نوماً عميقاً ، فلما استفقنا وجدنا أنفسنا مقيدين الى الكراسي في منزل ساتان .

ثم رأينا الميت على مائدة الرخام، ولا أدري ما كان يريد ان يصنع به ذلك الشيطان.

ولكنه حين اراد ان يعمل ..

ـ ماذا اراد ان يعمل ؟

ـ لا أدري ، ولكنه حين اراد ان يعمل رأينا ذلك الميت قد صار حياً وهو الشفاليه هاردي دي باسافان الذي انقذنا من الساحر .

غير انه أنقذنا من الموت فلم نجد من ينقذنا من الجوع .

فقال برانكايل : ومن العطش .

وقال برايسكايل :

مر بقتلنا ، يا مولاي ، فاننا نؤثر الموت على ان نهيم كالذئاب فنشبه الاموات ونحن من أهل الحياة .

قال : بل انكم من أهل الخداع والنفاق ، ايذهبوا بهم الى ما وراء السجن .

وعند ذلك همس الدوق بضع كلمات في اذن رئيس حراسه فهلعت قلوب الثلاثة من الخوف اذ كانوا يعلمون ان ما وراء السجن غير المشنقة ، وجعل كل ينظر الى رفيقه نظرات تحمل على الاشفاق اذ علم كل منهم ان حبل حياته قد انقطع .

حتى اذا خرج الدوق جعل برايسكايل يبكي وبراكايل يتنهد ، أما برانكايل فقد كان أوفرهم عقلاً فانه ذهب الى المائدة التي كان الدوق جالساً عليها .

وهناك زجاجة من الخمر وكاس من الذهب فصب في تلك الكأس وشربها جرعة واحدة ، وقال وهو يلحس شفتيه :

لله ما أطيب هـــذه الخمر فاني ارضى ان يشنقوني في كل يوم بشرط ان يسقوني كل مرة من هذه الخمر .

وبعـد هنيهة دخل الحراس وساروا بالثلاثة الى ساحة الاعدام فوجدوا هناك ثلاث مشانق منصوبة وقد وقف امامها الدوق ورئيس حراسه والجلاد فالتفت الدوق الى الجلاد وقال له :

اسرع باعداد المعدات فقد منحتهم مدة خمس دقائق ليعترفوا بخطـاياهم قبل الموت .

وكان الناسكان موجودين هناك فدنا أحدهم من برانكايل فابتعد عنه وهو يقول :

ليس لي ما اعترف به .

اما براكايل وبرايسكايل فقد رضيا انيعترفا فان الاول كان يعتقد بوجوب الاعتراف ، والثاني كان يرجو بذلك إطالة الوقت، فانه كان يعتقد انه ما زال المرء يستطيع ان يفتح عينيه ، فلا بد له من الرجاء .

فلما انقضت المدة قال الدوق :

كفى فضعوا الحبال في رقابهم .

فاعترضه برايسكايل قائلاً.

ولكني لم أبدأ اعترافي بعد ، ولي اقوال كثيرة احب ان اعترف بها لهذا الرجل الصالح.

فمد له الدوق الأجل خمس دقائق ايضاً ، ثم سيقوا الى المشانق ووضعت الحبال في اعناقهم ، فأمر الدوق ان يشدوا الحبال .

فضغطت الحبال على أعناقهم حتى لم يبق بينهم وبين الموت غير لحظة ; وعند ذلك صاح الدوق بالجلاد قائلاً :

قف .

ونظر الى الثلاثة فقال لهم :

هل تتوبون اذا عفوت عنكم ؟

فلم يستطيعوا الكلام لما تولاهم من الرعب ولكن عيونهم كانت تتكلم عن توبتهم وإخلاصهم بأفصح لسان .

فقال لهم الدوق :

نعم ، اني اعفو عنكم ، ولكن بشرط واحد وهو ان تصيروا من النساك .

فقال براسكايل :

أننا نصير نساكاً وكهنة وأساقفة وكل ما تريده ، ، يا مولاي .

وبعد هنيهة كان الثلاثة في مطبخ القصر ، فان الدوق كان قد أمر ان يطعموهم ويلبسوهم ويريحوهم بالنوم الى الغد .

وفي اليوم التالي صحوا من رقادهم اشداء مرتاحين ولكنهم رأوا عندهم ملابس الرهبان .

فقال برايسكايل : إذن لم يكن الدوق هازلاً في قوله ولكن لماذا يريد ان يجعلنا من النساك ؟

فأجابه برانكايل : ولماذا تريد ان تعلم السبب ألا يرضيك ان تكون من الرهبان وأي عيش يفضل عيشهم الهنيء ؟

واخذوا يلبسون تلك الملابس الجديدة ، فقال براكايل :

اني اجد في الثياب خنجراً .

فقال برانكايل : وأنا أيضاً .

وقال براسكايل : وأنا كذلك وهذا يدل على انه لا يريد ان يجعلنا من النساك إلا بالظاهر .

فسر الثلاثة وجعلوا يضحكون .

وعند ذلك دخل عليهم الناسكان .

فقال لهما براسكايل : ألعلكما آتيان لسماع اعترافنا ؟

فقال له أحدهما : كلا ، بل اننا آتيان لتعليمكما المهنة .

ـ المهنة .. وأية مهنة تفضل مهنتنا ؟

ـ مهنة النساك، فاننا نريد ان نعلمكم طرد الشياطين من النفوس .

فوضع برانكايل يده على خنجره وقال :

ـ ان هذا الخنجر يكفي لقتل جميع الشياطين .

ـ ولكننا نريد تعليمكم إخراج الشياطين بالكلام لا بالخناجر .

فحاول الثلاثة عبثاً ان يمتنعوا عن تعلم هـذه المهنة ولكن الناسكان إكرهاهم على تعلم الامثولة الاولى .

وبعـد ان قضوا ذلك اليوم بهذا التعليم ، ذهب الناسكان الى الدوق ، فسألها قائلاً :

هل أصبحوا يعرفون المهنة ؟

قالا : انهم باتوا يعرفونها كما نعرفها .

ـ أيستطيعون الآن إخراج الشياطين ؟

ـ دون شك ، فانهم يعرفون جميع الأشائر والكلام المقدس .

فاتقدت عينا الدوق وقال :

أتعرفونها كلها ؟

فقال براسكايل : نعم يا مولاي، وإذا لم نستطع إخراج الشيطان بكلامنا وأشائرنا أخرجناه بخناجرنا بحيث لم يبق علينا إلا إسم المراد إخراج الشيطان من صدره ..

ـ ستعرفوه فهلموا معي .

وخرج الدوق يخفره حراسه ، فكانوا يسيرون مبتعدين عنـه وهو يسير مع الفتيان الثلاثة جنباً الى جنب ويلقي عليهم الأوامر حتى وصل الى قصر سانت بول فدخل ودخلوا معه .

٥٣

قصر سانت بول

وهناك سأل براسكايل الدوق قائلاً :

إذن ان هذا الرجل الذي تريد ان تخرج الشيطان منه مقيم في قصر الملك ؟ .

قال : بل هو الملك نفسه .

فاضطرب الثلاثة اضطراباً عظيماً أجفل منه الدوق وخاف ان يحملهم الخوف على الخيانة فقال لهم :

اذكروا ان المشانق لا تزال منصوبة واختاروا .

فقال له براسكايل بالإصالة عن نفسه وبالنيابة عن شريكيه :

لقد اخترنا يا مولاي ان نخرج الشيطان من الملك ومن الملكة ومن جميع سكان القصر اذا أردت ، فاننا عندك نشنق في الحال وأما هنا فلا نشنق إلا بعد بضعة أيام ومن يدري ما يحدث في خلالها .

ـ لقد فهمتم ؟

ـ كما ينبغي

ـ عند أي قول وعند أية إشارة يجب ان تعملوا ؟

ـ نعم فانك منحتنا الحياة وأكرهتنا على المخاطرة بها وقد رضينا فلنذهب الى حيث تشاء.

ـ إذن تعال معي واذكر الثروة التي ستنالها .

وسار الدوق يتبعه براسكايل وشركاه حتى وصلوا الى حديقة وهناك التقى الدوق بأمرأة يخفرها رجلان .

فتكلمت المرأة مع الدوق هنيهة ثم انصرفت ، فقال الدوق لبراسكايل ورفيقيه :

إتبعوا هذين الرجلين .

ثم تركهم وانصرف الى قصر الملكة ولو تمعن براسكايل بوجه هذه المرأة لعلم انها الملكة ايزابو .

وكان الرجلين قد تلقيا الأوامر منذ النهار ، فقال احدهمـــا للثلاثة : هلموا بنا .

فامتثلوا لهما ، وساروا بهم الى قاعات الملك فكـــان الحراس ينحنون احتراماً للفتيان الثلاثة لاعتقادهم انهم رجال الله حتى وصلوا الى القاعة التي كان فيها الملك

وكان الملك عالماً بقدومهم وهو ينتظرهم فأدخلوا الثلاثة اليه .

وكانت القاعة غاصة بالنبلاء على اختلافهم ، فقـال الملك وهو يبتسم : انصرفوا ايها السادة ودعوا المكان لرجال الله .

فأحدقت الأنظار بالثلاثة ، ثم تفرق الجميع امتثالاً لأمر الملك فلم يبق في القاعة غير جاكمين المصور وأوديت .

فقال براسكايل في نفسه :

هذه هي الفتاة التي أمرت ان أحذر منها وان اقول لها ..

وقد منعه عن تتمة حـديث نفسه قول الملك لهم : ادنوا مني أيهـا المحترمون .

فامتثلوا طائعين ، وأوديت تنظر اليهم نظرات الارتيـاب ، وتقول في نفسها :

ان ذينك الناسكين أرادا قتل الملك بالسم ، فهـل يريد هؤلاء الثلاثة قتله بالخنجر ؟

وكان جاكمين يدور حولهم وقـد حاول ان يكشف وشاحاتهم ليرى ما يخبئون تحتهـا فقبض برانكايل على يده بعنف شديد بحيث ارتد جاكمين مذعوراً متألماً .

أما الملك فانه سأل أحدهم قائلاً : ماذا تدعي ؟

قال : اني ادعي الأخ براسكايل الشهير الذي اخرج خمسين شيطاناً من بطون خمسين رجلاً .

فضحك الملك وقال : انه إسم جميل وأنت ماذا تدعي ؟

قال : اني أدعي ، يا مولاي ، برانكايل العظيم الذي يقتل ثور بضربة ويشرب برميلاً بجلسة .

فقهقه الملك ضاحكاً وقال :

ان إسمك أجمل من إسمي رفيقيك وكل إسماءكم جميلة تعين الشعراء على القوافي ، فكيف تريدون ان تشفوني ؟

فقال براسكايل : اننا نشفيك ، يا مولاي ، بالاشائر .

وقال برا كايل : وبالصلاة .

فقال برانكايل : بل بالشراب ، يا مولاي ، فهو خير دواء عرفته .

قال : لا حاجة اليّ باشائركم وصلاتكم بل اشفوني بالضحك اذا استطعتم وهذا كل ما أطلبه .

وكان جاكين المصور يراقب وجوههم كل هذه المدة ، وقد عرفهم حق العرفان حين عرف أسماؤهم فدنا منهم وقال لهم :

أظن ، أيها المحترمون ، اني عرفتكم لأني رأيتكم قبل الآن .

فأجابه براسكايل قائلاً :

أنت واهم فان دير تنسكنا بعيد جداً اذ هو قرب نورش .

قال : بل ان ديركم في فندق ليتبود .

فاسرعت أوديت ووقفت بينهم وبين الملك كأنها تريد ان تحميه وقطب الملك حاجبيه ، فقال له جاكين :

مولاي ، ان هؤلاء النساك يتقلدون الخناجر تحت ملابسهم .

فاضطرب الملك وقال :

ليحضر رئيس حراسي .

وعند ذلك اسرع براسكايل رهمس في اذن اوديت قائلاً :

ان الشفاليه هردي دي باسافان قد ارسلنا .

وكانت هذه الحيلة من خير ما استنبطته قريحة الدوق دي بورجونيا .

أما أوديت فقد ايقنت ان هردي قد ارسل هؤلاء الثلاثة ليحموها ويحموا الملك فدنت من الملك وقالت له :

لقد عرفت يا مولاي السبب في تسلح هؤلاء الثلاثة واني أعلم ايضاً بأنهم ما جاؤوا إلا لحمايتك وحمايتي فثق بهم نفس ثقتي يا مولاي فاني مسؤولة عنهم .

فتراجع جاكمين مندهلا وقال الملك :

ان كل من تثقين بهم أثق بهم يا ابنتي ثم التفت الى رئيس الحراس الذي كان قد دخل في تلك الساعة فقال له :

أريد ان تقيم هؤلاء النساك فيقصري وان يحترمهم الجميع وان لا يعوزهم شيء من أسباب الراحة وان يكون طعامهم من مطبخي .

فبرقت عينا برانكايل بأشعة السرور وقال :

والخمر يا مولاي ؟

فضحك الملك وقال :

اسقوهم من افضل خموري ايضاً فان افواههم المقدسة لا يجب ان يدخل اليها غير الخمر المعتقة .

اما اوديت فانها أخذت بيد براسكايل وقالت له :

ألعلك رأيته ؟

— ان برهان ذلك يا سيدتي اني لا ازال ورفيقي في قيد الحياة فقد انقذنا مراراً من الموت .

— اين هو الآن وماذا يصنع ؟

— انه يرود دون شك حول قصر سانت بول .

ـ اين رآكم وماذا قال لكم تكلم بحرية وجلاء فلا تكون من النادمين لأني احب ان اعلم كل شيء .

وكانت اوديت ترجو ان يقول لها انه كلمنا عنك .

ولكن براسكايل على خبثه لم يستطع ان يعلم ما يجول في فكرها،وفوق ذلك فقد كان شديد الاضطراب لحرج موقفه ، فانه اذا زل بكلمة قضى عليه وعلى رفيقه وقد ثارت حرب عنيفـــة في نفسه ، فانه كان يود ان يفـدي هردي بنفسه ولكنه إذا لم يطع الدوق دي بورجونيا بات مشنوقاً لا محالة .

ولذلك أجاب اوديت قائلاً :

اننا رأينا الشفالييه منذ بضعة ايام وكنا على وشك الموت فأنقـذنا من موت رهيب ، وكفى لوصفه ان تعلمي ما هي المائدة الرخاميـــة وما هي الكراسي التي كنا مشدودين اليها ولكننا نجونا .

أهو الذي أنقذكم ؟

ـ نعم يا سيدتي وقد قال لنا عند ذلك.

انكم اذا أردتم مكافئتي فما عليكم إلا ان تجدوا حيـــلة للاقامة في قصر سانت بول وهناك ترون الملك وترون المدموازيل دي شامديفر فتفعلون كل ما تأمركم بفعله وتكونون مدججين بالسلاح إذ قد تضطرون الى إثارة معركة.

ـ هو ذاك ، فقد تضطرون الى القتال دفاعاً عن الملك المسكين وعني ، فانهم يريدون قتله وقتلي .

فقال براسكايل في نفسه :

لقد أمرنا بان نقتل الملك حين تصدر الينا الإشارة وسنفعل،وأما هاردى واوديت فالويل لمن يمسها بسوء ، فان حياتها مقدسة عندنا .

ثم أجابهـا قائلا :

وعلى ذلك يا سيدتي فقد جعلنا نبحث عن طريقة تساعدنا على الدخول

الى القصر فعلمنا بعد البحث ان الناسكان الذين كانا هنا قد طردا وقد خطر لنا ان نتولى مكانهما .

وكنا فيما مضى من ادوار حياتنا قد تنسكنا التماساً للرزق ، فقد قدر علينا يا سيدتي ان نشقى في التماسه .

وإنما أقول شقينا بمهنة التنسك لأني وجدت ان مهنة السرقة أخف عناء وعلى ذلك فقد كنا نعرف الألفاظ والأشائر .

ـ ما هي هذه الأشائر ؟

ـ هي الأشائر التي يخرجون بها الشياطين .

وقد وثقت اوديت ان هاردي أرسل اليها هؤلاء الثلاثة فلم تعد تبالي ببقية الحكاية وعولت على ان لا تعترضهم في محاولة شفاء الملك ما زالوا يعرفون طريقة إخراج الشياطين .

وكان براكايل وبرانكايل قد بدأ باخراج الشيطان من الملك فأسرع براسكايل بالانضمام اليهما تخلصاً من أوديت وأسئلتها إذ خشي ان يزل وحذراً من ان يغلط رفيقاه غلطة تفضح أمرهم .

اما جاكمين فانه كان ينظر الى ما يجري نظرات تشف عن القلق والارتياب.

٥٤

مفاجأة ليتبود

أما وقد اطمأنت الخواطر الآن على هؤلاء النساك فلننتظر نظرة الى غيرهم من اعضاء هذه الرواية ولا سيما ليتبود صاحب ذلك الفندق الشهير

فقد كان في تلك الليلة التي تردى فيها براسكايل وشركاه برداء التنسك

مقيماً في فندقه وهو مهتم حسب عادته بكل ما يؤدي الى نجاح ذلك الفندق
وقد كان حسب عادته كل ما أصدر امراً شرب كأساً حتى اذا شرب بضع كؤوس فرشت له الاماني بسطها وجعل يحمد الله ويقول لخدمه :

لم يعد يعوزني شيء من أسباب السعادة بفضل الله بعد ما تخلصت من هذا الشقي باسافان فانه خربني وكاد يجلب الموت الى فندقي .

وقد ارتعش حين ذكر تلك المعركة التي اختبأ في خلالها بالصندوق فشرب كأساً ومضى في حديثه فقال :

انكم تعلمون ان هذا الشفاليه باسافان لم يكن في الحقيقة غير لص هائل فهو الذي قتل مولانا الدوق دي اورليان المحبوب .

ولا انسى حين مشيت في طليعة خمسين رجلا من البورجونيين كانوا يريدون القبض عليه ولكنهم كانوا يسيرون بحذر وخوف ففتحت باب غرفته ورآني اللص فعرف مقاصدي فقلت له :

سلم نفسك ومشيت اليه .

فتراجع مذعراً مني وفي تلك الساعة ..

وعند ذلك دنا احد الخدم منه وقال له :

لقد رأيت يا سيدي فارساً من الأسياد ترجل عن جواده عند باب الفندق .

ــ اذهب خزاك الله ألا تدعني أتم حكايتي ؟

ــ ولكن هذا السيد يكاد يكسر الابواب وهو مخيف .

ــ حسناً فاني ذاهب اليه وسوف ترى .

وذهب إلى الباب ففتحه فرأى فارساً جميلا يصخب ويلعن الفندق واهله فلما ظهر له ليتبوذ شتمه اقبح شتم وقال له :

ويحك أتريد ان ينتظر جوادي اوامرك كي يذهبوا به الى الاصطبل ألا ترى انه اجتاز ست مراحل امتريد ان اقطع اذنيك ألا تعرفني ايها الرجل؟

فانحنى بملء الاحترام وقال له :

من لا يعرفـك يا سيدي فأنت المسيو دي شاتليت الذي كان من أخص اعوان الدوق دي بورجونيا .

ـ اسكت .

ـ والذي كان الدوق ..

ـ قلت لك اسكت ايها الوقح .

ـ قد اساء اليك بواسطة تونفيل ورفاقه .

ولم يكن يعلم ليتبود الى اين تبلـغ حدة دي شاتليت لو لم يغير لهجته وحديثه في الحال فقال :

لقد اعددت يا سيدي اليوم فطيرة خاصة لا يعدون مثلهـا في مطابخ الملوك وإني لم أعدها دون شك لأولئك البورجونيين الاشقياء .

ـ اذن لمن اعددتها ؟

لقد اعددتها لك يا سيدي فقد كان قلبي يحدثني بأنك ستشرف فنـدقي اليوم .

وبينما كان ليتبود يمدح فطيره وضيفـه كان شاتليت يخفف ملابسه حتى اذا انتهى ليتبود من ثرثرته قال له دي شاتليت :

اجلس بجانبي يا ليتبود .

ـ مولاي ما هذا التشريف ؟

ـ اجلس فاني اريد ان احدثك .

فامتثل ليتبود وعند ذلك دار الحديث بينهما فقال دي شاتليت .

اذن انت لا تحب البورجونيين ؟

فنظر ليتبود نظرة مضطربة إلى الباب وقال :

اني اكرههم الكره كله يا سيدي .

اذا كان ذلك فاني استطيع ان أثق بك فقد كان بوسعي أن افضـل عشرين فندقاً على فندقك ولكنني قلت في نفسي ان ليتبود رجـل وهو لا يخونني وفوق ذلك فان طعامه خير طعام .

قال : كيف تخشى خيانتي يا سيدي أيمكن لمن يصنع مثل هذه الفطيرة ان يخون ؟

فظهرت على دي شاتليت علائم الاطمئنان وقال : اصغ إليّ يا ليتبود . فقد بلغني ان اولئك الاشقياء البورجونيين يريدون الهجوم عليّ في منزلي وأنا لم أكد اشفى من تلك الجراح التي اصابوني بها ولكنهم يريدون قتلي الآن .

ثم صب خمراً في كأسه وقال :

على اني اريد ان أعيش لسببين احدهما ان الحياة تروق لي وافضلها على الموت والثاني اني اريد ان انتقم .

ولذلك عولت على ان لا انتظر البورجونيين في منزلي وان ..

ـ وان تختبيء .

ـ ان من كان مثلي لا يختبيء يا ليتبود ولكني اريد ان اكمن في فندقك بضعة أيام وهذه حيلة حربية .

ـ نعم نعم لقد سمعت بجيل الحروب فقل يا مولاي ما تريد .

ـ لا اريد غير غرفة صالحة اقيم فيها ثمانية ايام وادفع اجرتها سلفاً .

فأطرق ليتبود إذ كان موقفه يحتاج الى التفكير فقد سره ان يستأجر هذا النبيل غرفة عنده ثمانية ايام لا سيما وانه سيدفع مقدماً .

ولكنه كان يخاف ان يعلم البورجونيون بأمره وهناك الخراب التام والموت الذريع غير انه طمع في المال وخاف أن يرفض طلب هذا الفارس على ما يعلمه من بأسه فقال له :

أتعدني يا سيدي ان لا تخرج من غرفتك وان لا تدع أحداً يراك ؟

قال : ان ذلك من فائدتي وأنا أعدك أن لا يعلم احد بأمري .

فنظر ليتبود الى الباب نظرة الفاحص وقال : اذن تعال معي .

وخرج به من القاعة الى سلم فصعد واياه وهو يقول :

لا تحسب يا سيدي اني ترددت لخوفي وقد أظهرت من البراهين ما ينفي

عني وصمة الخوف مثال ذلك اني سأقيمك في تلك الغرفة التي كان يقيم فيها ذلك اللص الشهير باسافان ؟

ـ باسافان ؟

ـ نعم ذلك الذي قتل الدوق دي اورليان وأنا قبضت عليه .

وكان يصعد السلم وهو يروي له حكاية باسافان وقد ظهر على وجهه انه كان مسروراً بهذا الكذب .

ان هذا اللص الهائل التجأ الى هذه الغرفة التي ستقيم فيها لانهـا افضل غرف الفندق .

وقد جاءت الجنود للقبض عليه وكانوا يبلغون نحواً من ٥٠ رجلاً غير ان شهرة باسافان كانت قد ملأت مسامعهم فلم يجسروا على الصعود .

ـ أيبلغ ببأسه الى هذا الحد ؟

ـ نعم لو هجم عليه عشرون رجلا لما اكترث لهم ولما خافهم واني اقسم بالله انه ابسل رجل في باريس بعدك ياسيدي ولولا انه خربني بافلاسه لاشفقت عليه وفي الجملة فان الجنود لم يجسروا على الصعود اليه فأنفت لجبنهم وأشرت اشارة الى صديقي جاكمين فتبعني وصعدنا هـذا السلم كما نصعده الآن ألا تعرف جاكمين يا سيدي فانه لا يخاف شيئاً ؟

ـ نعم وهو قادر ايضاً على الشراب ولكنه لا يستطيـع ان يجاريني فيه فقد تركته مرة صريع الكؤوس تحت مائدة .

ـ ولكنه مثلي لا يخاف ولا سيما حين يشرب فلما رأى الجنود اننـــا تقدمناهم تبعونا حتى وصلنا الى هذا الباب الذي تراه وهو باب الغرفـة التي كان يقيم فيها باسافان وقد عزمت على ان اقبض على اللص ولم يكن لدي من السلاح غير احدى سكاكين المطبخ وكان جاكمين واقفـاً حيث انت واقف الآن وسيفه إلى جنبه والجنود معسكرة وراءه وهم يحـذرونني لاعتقادهم انه سيقتلني .

غير اني لم احفل بهم وقلت لجاكمين هل انت مستعد وقـــال : نعم فدفعت عند ذلك الباب كما الآن ودخلت كما دخلت معك الآن وقلت :

ايها اللص سلم نفسك فلا فائدة من الدفاع .

وقد بقي فم ليتبود مفتوحاً وجمد الدم في عروقه وجحظت عيناه ذلك انه سمع صوتاً يقول له حين فتح الباب : ماذا اصابك ياليتبود ألعلك جننت فتوقظ النيام وهم مطمئنون اقفل هذا الباب .

أما ليتبود فقد اصفر وجهه حين سمع هذا الصوت وعقد الرعب لسانــه ثم انحلت عقدة لسانه فقال الشفاليه دي باسافان ! قال : اقفل البــاب ألا تشعر بهذا البرد ؟

ـ ولكنني احلم ؟

ـ بل اني امنعك من ان تحلم فاذا لم تقفل البــاب انذرتك بأن ابرح فندقك الى فندق آخر .

ـ ما .. أهذا انت.. أهذا انت الذي أراه !

فضحك هردي ضحكاً عالياً وقــال : إذن من تريد أن أكون وقد اسند كوعه إلى المخدة واسند رأسه الى يده وهو مضطجــع بملابسه على السرير .

وعند ذلك اقفل دي شاتليت الباب وقال : لقد اصاب الشفــاليه فان برد قارص .

فوثب هردي من السرير الي الجدار فأخذ حسامه وتقلده ثم قــال لدي شاتليت ، اهلا بك فقد شرفتني بزيارتك غرفتي .

قال : بل هي غرفتي .

قال : اني اسألك ان تتفضل بالجلوس بالرغم من تلك الطريقة الغريبة التي دخلت بها إليّ .

قال : وانا وان اكن قد ذهلت لوجودك عندي فاني ادعوك الى الجلوس دون كلفة والإقامة قدر ما تشاء .

أما ليتبود فانه رفع يديه إلى السقف وقال :
رباه لا اعلم كيف ينتهي الأمر بينهما .

وجعل هردي يبتسم الى شاتليت وشاتليت يعض شواربه إلى ان التفت الاثنان إلى ليتبود فقال له هردي .

أما أنا في غرفتي ؟

فأجابه قائلاً : دون شك .

فقال له دي شاتليت .

أما هي غرفتي يا ليتبود .

قال : ذلك لا ريب فيه .

قـال : اذن لا اجد غير طريقة واحدة وهي ان ارجو هذا الرجل بالخروج من الغرفة .

وقال هردي : وانا لا أجد غير طريقة واحدة وهي ان القي هذا الرجل من النافذة .

وعند ذلك جرد كل منهما حسامه إذ لم يبقَ بعد هـذه الاقوال غـير القتال وانقض كل منهما على الآخر فلم تكن غير جولة حتى طار السيف من يد شاتليت وسقط على الصندوق الذي كان اختبـأ فيه ليتبود حين نشب القتال ومنه إلى الارض .

فأسرع هردي إلى السيف ووضع رجله عليه وقال لخصمه .

لقد غلبتك يا سيدي .

فأجابه شاتليت : هو ذاك فاني اعترف بالغلب .

— ولكنك شجاع فخذ سيفك ولنعد الى القتال .

فنظر شاتليت الى هردي نظرة اعجاب إذ كان يحق له حسب مصطلحات ذلك العصر ان يقتله او يحمله على الخضوع لشروطه فرآه شجـاعاً شريفاً كريماً فقال له :

ايها الفتى انك غلبت اشهر رجال السيف في باريس ثم اردت ان تتفضل عليه بارجاع حسامه اليه وهو جميل لا انساه لك مدى الحياة واني احب صداقتك وان كنت من اللصوص .

فذهل هردي وقال :

أنا من اللصوص .. ولكن اسمح لي قبل الاعتراض على قولك هذا ان أرى ما يجري في هذا الصندوق فقد خيل لي انه يتكلم .

ذلك ان غطاء الصندوق كان قد كشف وبرز منه رأس ليتبود فضحك الخصمان وكانا قد اصطلحا ضحكاً شديداً .

أما ليتبود فانه خرج من الصندوق وهو يقول :

ان هذا الصندوق فقد انقذني من الموت مرتين والآن فاسمحا لي ايها النبيلان ان اقترح عليكما اقتراحاً .

فقال هردي : تكلم فاننا مصغيان الى اقتراحك .

قال : اني وعدتك يا سيدي دي شاتليت بهذه الغرفة وأنا لا اعلم ان سيدي الشفاليه قد شرفني بزيارتها دون ان يخبرني وعلى ذلك يكون لك الحق بالاقامة فيها لا سيا وقد عرضت ان تدفع لي اجرتها مقدماً .

وقال هردي : اذن هذا هو السبب ..

وقال دي شاتليت : وانا مستعد للدفع .

فقال ليتبود مخاطباً الشفاليه :

انك يا سيدي الشفاليه اردت اسعادي بزيادة نفقاتك عندي فأنت الآن في فندقك .

قال : حسناً ولكن لا تباحثني فيالنفقات فقد تقرر لدينا ان لا نتباحث في هذا الموضوع إلا حين أصبح من اهل الثروة .

فأجابه قائلاً ، ان ذلك لا يطول لدى امثالك والآن فأرجو ان تسمعا اقتراحي وهو ان رجال الدوق يطاردونكما وكلا كما محتاج الى الاختباء فلماذا لا تقيان معاً في هذه الغرفة وانتما الآن صديقان .

فنظر شاتليت الى هردي وقال له : أيوافقك هذا الاقتراح ؟
فأجابه هردي قائلا :
ولكن ألعلك نسيت اني من اللصوص ؟

قال : سواء كنت شفاليه او من قطاع الطرق فاني أعدك من الاشراف وإذ شئت محوت لفظة اللص من ذاكرتي فما ناديتك إلا بلقب شفاليه .

قال : دون شك فاني احب ان يعرف الانسان بمهنته فلو كنت لصاً لما اردت ان يدعوني شفاليه وان لقبوني بألقاب الملوك وأنا شفاليه لما رضيت هذه الألقاب اما وقد تقرر ذلك بيننا فاني موافق على اقتراح ليتبود وانت ضيفي .

قال : اذن لنفتتح التعارف بالشراب .

قال : كما تريد أسمعت يا ليتبود ؟

فأسرع ليتبود لاحضار الشراب وقال شاتليت لهردي :

اسمح لي ايها الصديق الجديد ان اسألك سؤالاً وهو هل انت تنتمي الى البورجنيون او الى ارمانياك ؟

قال : لا الى هذا ولا ذاك فاني انتمي الى باسافان .

ولكن هل تميل الى الدوق دي بورجونيا ؟

— انه من ألد اعدائي .
— وكيف انت مع تونفيل؟
— اني ازيد له المـوت .
— وغليوم .
— اقسمت على قتله .
— وكروتيز .
— قتلته .
— وكين .
— قذفت به إلى هوة الابد

اذن هلم إلى معانقتي ايها الصديق .

وبينما كان الاثنان يتعـانقان دخل ليتبود وهو يحمل بكل يد زجاجـة فلما رآهما متعانقين جعل يضحك ويقول :

ما اغرب عقل الانسان فقد كانا منذ هنيهة يقتتلان وهما الآن يتعانقان ثم وضع الزجاجتين على المائدة وقال الشفاليه :

لي سؤال يا سيدي يقلقني وأرى إني لا بد لي من سؤاله .

قال : قل واوجز المقال .

قال ما زلت انت .. الدوق دي اورليان ..

ــ ماذا تريد ان تقول ايها الأبله .

ــ كلا لا استطيع .. كلا لا اريد ان اقول شيئاً .

فدنا هردي منه وقبض على اذنه فضغط عليها ضغطاً عنيفاً وقال :

اعترف بما تريد ان تقوله أو اقطع اذنيك .

فصاح ليتبود صيحة ألم وقال :

يقولون يا سيدي انك انت الذي قتلت الدوق .

فتركه هردي دون أن يجيبه وذهب الى شاتليت الذي كان مصغياً الى الحديث كل الاصغاء فقال له :

اني اعرف قاتلي الدوق وأنا الذي سيقتلهم .

فمد شاتليت اليه يد المصافحة قائلا :

ــ لا ريب عندي ايها الشفاليه بما تقول .

أما ليتبود فانه جعل يحك اذنه فقال له هردي :

ألعلك لا تزال خائفاً على اذنك ؟

قال : كلا يا سيدي ولكن خطر لي ان اسألك سؤالاً ايضاً يقلقني .

قال : تريد ان تعرف كيف اتفق انك لقيتني في هذه الغرفة وانت تعتقد انها خالية منذ ايام .

قال : لا شك انك ساحر يا مولاي .

قال ، كلا ولكني عرفت احد السحرة فلنعد الى قصتنا فكيف قلقت لوجودي ؟

قال ، ذلك لأنك دخلت دون ان اعلم فلو اتفق ذلك اسوالك ايضاً لما تمت الليل ومع ذلك فان الأبواب مقفلة .

ـ هو ذاك ولكني لم ادخل من الأبواب .

ـ اذن من اين دخلت ؟

ـ من حيث خرجت اي من النافذة وقد اصبح الدخول والخروج من النوافذ عادة عندي فان ذلك أقل عناء من الدخول من الأبواب .

ولا ندري اذا كان هذا التعليل قد سر ليتبود ولكنه اظهر الرضى تاركاً ذينك الصديقين يشربان .

٥٥

الشاهد

وقد ألح شاتليت على هردي فحكي له جميع حوادثه ثم قال له : ان اغرب حكاياتي ما اتفق لي معك والتقائي بك فاني خرجت من تلك الدهاليز التي القاني فيها الساحر وأنا ضعيف منهزل جائع عطشان فمر بي يوم لم أجد اتعس منه .

ولما أظلم الليل جررت نفسى جراً الى هذا الفندق فرأيت النافذة مفتوحة فتسلقت اليها ونمت بملابسي الى ان ايقظني ليتبود وبفضل هذه الحادثة تعرفت بك وضمنت مكاناً آوي اليه .

فقال له شاتليت ، ولكنك نسيت اني مدين لك بالحياة .

ثم اخرج كيسه وافرغ ما فيه من الدنانير على المائدة وقال له ، هلم نقتسم .

فأظهر هردي إشارة يريد بهـا دفع الذهب ولكن شاتليت قدم الكيس اليه ونظر اليه نظرة العاتب المؤنب .

فقال له هردي ، إذن لنقتسم ثم ضحك وقال :

لو عرف ليتبود بثروتي الجديدة لمـا فارقني ولكن ليحضر فاني ألقي على رأسه الأشياء اللامعة .

فضحك وقال ، لا تفعل او تفقد احترامه .

وبمثل هذه الأحاديث قضيا ليلتهما وفي اليوم التـالي نهض هردي وقـد شفي أتم الشفاء من جوعه وعطشه فلبس ملابسه وتأهب للذهاب فقـال له شاتليت ، إلى أين ألعلك ذاهب لقتـل تونفيل وغيليوم فابق لي واحـداً منهم على الاقل .

ـ كلا فانهما يستطيعان أن يناما الليلة مطمئنين ولكني ذاهب إلى رجل وعدته ان اقطع اذنيه ولسانه فقط .

ـ فقط .. انك رحيم دون شك وانـك ذاهب إلى هـذا الساحر الذي اخبرتني بأمره فدعني اذهب معك .

فهز هردي رأسه وظهر انه يؤسر ان يكون وحده .

فلم يعترضه شاتليت ولكنه حين خرج من الفندق خرج بعده وجعـل يقفو اثره دون أن يدعه يراه وهو يقول في نفسه .

لم يكن لقلبي مثل هذا الحنو ولا اعلم سر تعلقي بهذا الشفاليه .

وبالاختصار فانه تبع هردي الى منزل الساحر وهناك وقف وفي عزمه أن يدخل المنزل عنوة اذا تأخر صديقه فيه .

اما هردي فانه طرق البـاب وبعد هنيهة فتحت نافذة صغيرة فيه فقال هردي ،

اني قادم من قبل الملكة .

ففتح الباب للحال واسرع هردي بالدخول فوجد أمامه جيرود خادمـة ساتان .

فدهشت الخادمة دهشاً عظيماً حين رأته وذهبت به مكرهة الى القاعة الثانية حيث كان الساحر مكباً على عمله بحيث لم ينتبه لدخول هردي اليه .

أما هردي فانه صرف الخادمة باشارة وجلس على كرسي فجرد خنجره وجعل يعبث بشريط منطقته .

وكان ساتان يفحص سائلاً في زجاجة وقد ادنى الزجاجة من المصباح فتأمل اللون ملياً ثم وضع نقطة منها على يده وذاقها فتنهد وقال اقوالاً لا تفهم والتفت في تلك الساعة فرأى هردي جالساً على ما وصفناه .

وقد ذعر ولكنه لم يظهر عليه شيء من الذعر ولبث جالساً على كرسيه وأما هردي فانه نهض عند ذلك والخنجر بيده فنهض ساتان لنهوضه وقال له:

ارجو ان تصبر بضع دقائق قبل ان تقطع اذني ولساني .

ـ اني لست مستعجلاً بحيث اطيق الانتظار ساعة لا بضع دقائق ، ولكن اعلم يقيناً انه لا بد من عقابك مهما قلت فقل الآن ما تشاء فاني مصغ اليه .

فقال له بلهجة تشف عن الحزن :

ولكن تفضل بالجلوس .

فامتثل هاردي ، وعاد كل منهما الى مجلسه ، فتنهد ساتان تنهداً عميقاً وقال :

ـ هل لك ان تخبرني كيف خرجت من الدهاليز ؟

ـ ذلك بسيط فقد تركت رجلاً مكاني فيها وانصرفت .

ـ كيف ذلك ومن هذا الرجل ؟

ـ هو السير دي كورتيز فقد التقيت به في أحد الاقبية فقتلته اذ كان قد جاء دوره بالقتل وخرجت بدلاً منه .

وهنا لا بد لي ان أقول لك من ان كل ما انذرتني به من الجوع والعطش والرعب قد أصبت به ، فلماذا أردت تعذيبي هذا العذاب ؟

ـ ذلك لأني اردت ان أتخلص منك ، اذ أصبحت عثرة في سبيل مشروعي العظيم ولم أجد غير هذه الطريقة .

ـ ولكنك حاولت قتلي ثلاث مرات قبل ذلك ؟

ـ بل مرة واحدة حين قدتك الى الدهاليز .

ـ إذن ما كنت تريد مني حين كنت تمددني على مائدة الرخام ؟

ـ كنت أريد ان أحييك.

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول اني كنت أريد ان أحييك وهذا الذي كنت أريد ان أقوله لك حين سألتك بضع دقائق وبعد ذلك تقتلني اذا أردت انتقتل المشروع العظيم خاضع اليّ .

ما هذه الحيـاة القصيرة التي لا يكاد يشعر المرء انه من ابنائها بعد ما يلقاه من عذاباتها حتى يفاجئه الموت قائلا :

لقد تعذبت كثيراً في هذا الوجود فاخرج منها الى العدم .

ان المرء قد حاول ان يدرك أسرار الحياة ، ولكنه لم يدرك منها شيئاً لقصرها فان كان سليم البنية يعيش سبعين عاماً يؤخـذ عشرين عاماً للرقاد وعشرة للحداثة وعشرون للأعمال الشاقة والجهاد الدائم كي يضمن غذائه، فما يبقى ليعيشه ، فقل لي أهذه هي الحياة ؟

فقال هاردي: اني لم اتصل بعد الىهذه الحسابات ولكن يجب ان تضيف اليّ السنين ، حتى تؤخـذ من الحيـاة ، تلك السنين التي تقضى في سجن هيدرون .

فلم يحفل ساتان بما سمعه من حديثه فقال :

لقد جهد المفكرون في سبيل إطالة الحياة ، فلما لم يعثروا بها في الحاضر ظفروا بها في المستقبل ونالوها بعد الحشر .

أما أنا فاني أريد الحاضر .. أريد الحياة كلها، أريد الخلود اذ أية فائدة

من هـذه الأعوام القليلة التي تبقى لي ، وفي كل يوم أكون فيها عرضة لمخاوف الموت .

كلا ، اني أريد تلك الحياة التي لا خوف فيها من الموت . اني أريد ان يعيش الانسان أجيالاً ومتى عاش هذه القرون الطويلة انتظم فكره واصطلح جسمه وعرف أبواب الهناء فدخلها ورأى ملاذ الحياة فتنعم بها .

ومتى عرف المرء ان حياته لا حد لها أقدم على كل أمر خطير وهو موقن من الفوز ولا يخاف الطبيعة اذ يتغلب عليها بخلوده. ومن يعلم الى أي حد يصل باكتشافاته وأبحاثه فقد يتصل الى الطيران من عالم الى عالم ويفوز على الوجود ويتغلب بذكائه وخلوده على الطبيعة فيقول :

ـ يوجد إله وأنا هو ذاك الإله .

وعند ذلك أطرق ساتان رأسه وجعل يعض يديه ويقول :

ولكن ماذا استطيع ان أعمـل بهذا الوقت القصير ، وفي دماغ الانسان ما لا يدرك من التصورات ، أنقتصر على هـذه الملاذ الحقيرة البسيطة التي يدعونها الحب والفرح ، وغيرها .. أهذه الحياة .. ان الانسان قد اكتشف كثيراً من الاسرار ولكنه لم يكتشف بعد سر نفسه أي لم يكتشف الانسان ولا يستطيع ذلك إلا بالعمر الطويل أي بالخلود .

وكان هاردي يسمع هذه الاقوال الغريبة بملء الاصغاء وهو يرتعد لها .

ويظهر انها اثرت عليه تأثيراً غريباً فانه أغمد خنجرة بلطف، فهل ضغط ساتان على أفكاره ؟

كلا ، ولكن هاردي قال في نفسه ؟ انه مجنون لا محالة وكيف استطيع الاساءة الى مجنون ؟

وقد رأى ساتان ذلك منه فقال له :

انك تعجبني ، يا ابني ، لأني لم أر خيراً منك الى الآن بسلامة قلبك فلا تقتلني لأنك اذا قتلتني ، تقتل مشروعي العظيم، ولا تشوه وجهي فان قلبك الحنون لا يحتمل هذا التعذيب ولا فائدة لك من تشويهي وتعذيبي .

قال : ولكن لماذا حاولت قتلي وأنا لا اعني بذلك حبسي بالدهليز ، بل القائي على المائدة ؟

ـ لقد قلت اني كنت أريد إحياءك ، ألم تفهم .. إفهم إذن ، اني قادم على إكتشاف أمر عظيم يجعل الانسان سيد الوجود .. ولكن اعلم اني كنت أجرب التجربة الاخيرة .. ألا تعلم ؟

ثم قبض على ذراع هاردي وقال له :

ألا تعلم ما يستطيع الانسان بعمله بتحويل الدم .. اني سرقت كتاب فلاميل فصرت اصنع مثله الذهب والماس واحول الدماء من العرق .. ألا تعلم ان الانسان يمكن إحياءه بعد الموت بصب دماء جديدة في عروقه ، ألا تعلم ان هذه مقدمة المشروع العظيم مقدمة الخلود.. ألا تعلم انك كنت ميتاً واني تمكنت من إعادة النبض الى قلبك أليس ذلك برهاناً قاطعاً على ان الانسان يقدر ان يحيي كما يقدر ان يميت .

نعم ، اني ركبت ذلك الاكسير الذي يحيي من الموت وجربته بجثة فرددت اليها الحياة .. نعم ، أنا ساتان احييت لورانس دي ابزيم من الموت .

فوقف هاردي عند ذلك مضطرباً وقال :

أيها الساحر أقلت جثة لورانس دي ابزيم ؟

قال : نعم ، جثه تلك المرأة التي كنت تدعوها باختك وأنا الذي انقذها من الموت .

أتقول الحقيقة هذه المرة ، أيها الساحر ؟

ـ دون شك فكل ما استطيع ان اقوله لك الآن لا يكون غير حق فقد وثقت ان القدرة الخفية تريد ان تمينك لتجربة مشروعي ، بل وثقت ان القدرة الخفية قد عينتك للانتقام من الرجل الوحيد الذي عرفت به حقيقة معنى الكره .

ـ من هو هذا الرجل ؟
ـ الدوق دي بورجونيا .
ـ وأنا ايضاً اكره هذا الرجل.
ـ ولكنك تجهـــل حقيقة الاسباب التي تدعوك الى بغضه فانك تحب لورانس دي ابزيم كما تحب اختك فاعلم إذن ان الدوق دي بورجونيا هو الذي طعن لورانس بالخنجر .
ـ لماذا .. لماذا .. واية علاقة بينه وبينها ؟
فوقف ساقان متردداً ثم قال :
اني اعلم ولكني لا استطيع ان أقول وربما قال لك ذلك غيري.
اما انا فلا استطيع ان اقـول لك غير أمر واحد وهو ان الملكة ايزابو قـد جاءت الى هنا لتأخذ سماً تقتل به لورانس دي ابزيم فأعطيتها بدلاً منه الأكسير الذي أخبرتك عنه أي الاكسير الذي يحيي من الموت ، فلما طعنها الدوق بالخنجر لم تمت لأنها شربت ذلك الاكسير .
قال : كنت اشعر بنفور عظيم من هذه الملكة على اعتقادي انها محسنة اليّ أما الآن فقـد عرفت السبب في حقدي عليها وعلى الدوق فقل لي أين روزالي فأنك تعرف مكانها دون شك .
ـ نعم اعرف ولكني لا استطيع ان اقول .
ـ ويحك كيف لا تريد ؟
ـ نعم اني اريد ان تبقى في هذا الموقف الذي اوقفك فيـه القدر ، أي ان تبقى ذلك الشاهد .
ـ الشاهد ؟
ـ نعم ذلك الشاهـد الذي رأى ما جرى في منزل باسافان في تلك الليلة التي جيء بك محمولاً اليّ ووضعت على مائدة الرخام.. نعم انك ذلك الشاهد الهائل الذي يستطيع بكلمة ان يقتل الدوق دي بورجونيا فاصغ الي .
اني اريد ان أعاند القدر وبعد فمن أنا .. ان أنا إلا رجل .. كلا ، بل

أنا العلم . اما أنت فقــد ارسلك لكبح جماح دوق دي بورجونيا فانه لا يقف في جرأته عند حد ولا اقول غير ذلك .

ـ بل تقول .

فرأى ساتان ان الحدة قد ابتدرت هاردي فلم يجبه على قوله الأخير ، بل اخــذ بيد الشفالييه وسار به الى خزانة حديدية ففتحها وظهر انها ملأى بالقناني وقال له :

اني لا أريد ان اقول لك على أي امر كنت شاهداً ولا اخبرك بما جرى للورانس دي ابزيم وروزالي التي تبحث عنها ، اذ يوجــد قدر ، ولهذا القدر حساب .

اما أنا فلست رجـــلا بل أنا العلم ولا يتسع لي الوقت ولا أريد ان امتزج بشؤون الرجال لأني ابحث عن المشروع المظيم وهذا السبب في مــا رأيته من أكاذيبي .

وليس من شأني ان اصلح خطأ الأقدار فاذا أرادت الأقدار ان تعلم ما تبحث عنه علمته لا محالة فلا تسألني مزيداً .

على ان كل ما استطيــع قوله لك هو انك شاهد هائل على الدوق دي بورجونيا وان لورنس وروزالي في قيد الحياة .

وقد أشار عند ذلك بيده الى الطبقة العليا من الخزانة فقال :

هنا محل السموم فانظر الى هذه الزجاجة الصغيرة فاني اذا وضعت نقطة منها في فم رجل قتلته في الحــال وانظر الى هذه فانها تطيــل النزع بحيث يستطيع القاتل ان يركن الى الفرار قبل افتضاح امره .

ولكن كل هــذا من المواد البسيطة فانظر الى السائــل الذي لا لون له كالماء فهو لا رائحة له ايضاً فاذا سقيت منه من تريد قتله توهم انه يشرب الماء ولا يشعر بشيء من الألم وتفارقه وهو في أتم العافية .

فاذا سافرت ثلاثة اعوام وعدت تعلم ان هذا الرجل قد مات في غيابك وقبل عودتك بأسبوعين .

ثم حدق بهاردي وقال له : ماذا تقول ؟

ـ اقول انه لو كان لي عدو أردت قتله لما استعنت على قتله بغير سيفي وخنجري .

ـ وإذا كان هذا العدو قادراً بحيث لا تستطيع الوصول اليه قبل ان تصل اليك يد الجلاد ؟

ـ لا تهتم بشأني ، فهذا يعنيني ويعني الجلاد .

ـ إذن لندع السموم ولننظر في الاكسير الذي يبحث عنه أهل البلاط .

انظر إلى هذه القناني المرصوفة في الطبقة الثانية ، فان هذه الزجاجة تحتوي على اكسير الحب ، فاذا أحببت فتاة وأردت ان يكون حبها معادلاً لحبك فاسقها من هذا الاكسير تجد انها باتت أشوق اليك منك اليها ، فمتى أردت ان تكون محبوباً ايها الشفاليه فتعال الي .

ـ إني حين اريد ان اكون محبوباً اقدم حياتي للتي اختارها قلبي ، فاذا أبت قبولها أبتعد عنها .

ـ ولكن اكسير الغرام والسموم من ألعاب الصبيان ،فانظر الى اكسيري الذي يمنح الحياة .. اني بهذا الاكسير أحييت لورنس دي ابزيم بعد الموت.

هذا اكسير احول فيه الذاكرة من حال الى حال والنفس من طور إلى طور فأجعل الجبان شجاعاً والشجاع جباناً ، فما تقول ؟

ـ اقول اني إذا اصبت بهذا التغيير فأرجو ان يبقى لي شيء من الجرأة استعين بها على قتل نفسي .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين فكان ساتان يقول في نفسه :

ترى لماذا لا يكون هذا الرجل الشجاع من اعواني في مشروعي اما كان يحميني فأتم مشروعي بسكينة وأمان .

ثم تنهد وقال بصوت رقيق :

لقد وضعتك ايها الشفاليه على مائدة الرخام مرتين وحبستك في الدهاليز لتموت فيها جوعاً وعطشاً ورعباً فنجوت وعدت الي لتنتقم مني .

وقد حسبتني منذ هنيهة مجنوناً فاغمدت خنجرك وكرهت قتلي ، والآن ألا تزال تحسبني من المجانين ؟

ـ كلا .

ـ اذاً لماذا لا تقتلني ؟

ـ لأني لم أعد حاقداً عليك ، فاني لم افهم شيئاً مما قلته لي ولم اعلم من أنت ولم أعرف بالتدقيق ماذا تريد ولكني عرفت انه ليس الحقد الذي يقودك في اعمالك .

ومع ذلك فاني على علمك وجهلي سأقول لك امراً يظهر لك دون شك انه حقير ، اما انا فاني أعده طبيعياً معقولاً .

ـ قل .

ـ انك كنت تريد قتل اولئك الثلاثة الذين كانوا مقيدين عندك بالكراسي وهذا لا ريب فيه .

ـ نعم هذه هي الحقيقة ، فاني كنت محتاجاً الى دمائهم .

ـ اذا كان ذلك فأية فائدة لبرسكايل وبرنكايل من ابحاثك عن الحياة الخالدة ولماذا تريد ان يموت رجل ليحيى سواه .

اني لو كنت في مكان برنكايل لقلت في نفسي .

اني لا اعلم لماذا يجب ان أموت ليحيى الآخرون ، فاني أعد حياتي افضل من حياة جميع اهل الارض ولو كانت خالدة .

هذا ما كنت اقوله في نفسي لو قدر لي أن اكون مكان برانكايل بل كنت ادافع عن نفسي أشد دفاع واعتبرك مجرماً بعملك مهما كانت غايته عظيمة ..

فوضع ساتان يده على كتف هاردي وقال له وهو يبتسم :

انك لا تزال غلاماً يا بني ولكنك غلام نبيل : فانك لا تعلم ان الحرب والتنازع الدائم من شرائع الانسان الطبيعية إذ يجب على المرء ان يقتل ليعيش .

ولا يوجد انسان في الوجود إلا يقرعه ضميره لجرائم ارتكبهـا ولكنه لا يفكر بها بل يتجاهلها لأنه اذا كان مجرماً فانما كان ذلك لضمانة حياته .

بل انك لا تعلم مقدار اضطرار الانسان الى الدفـاع عن نفسه والتماس مطالبه مما يسمونه بالنزاع .

على ان أقل الناس ذنوباً اولئك الذين يقتلون بالخناجر .

فعش يا بني هنيئاً ولا تحاول ان تكشف سر تنـازع الانسان ولا تذكر إلا امراً واحداً وهو :

انك كنت تريد قتلي ولكنك لم تقتلني .

ثم ذهب إلى صندوق حديدي آخر وفتحه فرأى هردي فيـــه اوراقاً مكدسة وصناديق صغيرة .

فأخذ ساتان صندوقاً صغيراً ووضعه على مائدة الرخام في نفس الموضع الذي كان رأس هردي ملقياً عليه حين كان ممدداً على المائدة .

ثم أخذ من الصندوق ورقة قديمة مطوية متسخة .

وعند ذلك تجهم وجهــه اذا اظلمت افكاره بخـاطر جديد خطر له ولم يستطع رده .

أما هردي فانه جعل يتمعن في وجه المضطرب فمد يده فجـأة كما فعل الدوق دي بورجونيا من قبل وقال :

ماذا أرى .. ما هذا الذي علي وجهك .. مــــا هذا الاثر انه اثر يد

قال : انه اثر اليد الدامية .

فذعر هردي وقال :

أية يد وما هذا الظهور الفجـائي .. انهـا قد احمرت هوذا الدم يقطر منها ! فهز ساتان كتفه وقال :

اني حاولت مراراً أن أتغلب على ضعفي الانساني فلم استطع ولبثت كسائر الناس .

اما هذه اليد فهي يد رجل صفعني انا ساتان ملك العلم الذي سيجد دون شك اكسير الخلود .

نعم ان هذا الرجل قد صفعني على وجهي واضطررت إلى تحمل هـذه الاهانة .

ولكن من هو هذا الرجل .. بل كيف بقي هـذا الاثر .. لا شك ان ذلك سحر عظيم يرعبني.. هوذا الاثر قد امحى .

فابتسم ساتان وقال : انظر الى هذه القناني والارواح التي فيهـا فقد حضرتها بنفسي .

على اني قلت لك بأني صفعت بوجهي فآليت على نفسي ان لا انسى هذه الإهانة وقد تمكنت بفضل هذه العقاقير ..

فقاطعه هردي قائلاً :

لقد امحى الاثر تماماً .

فضحك ساتان وقال :

نعم لقد اختفى بالظاهر ولكنه لا يمحى في الحقيقة لا يوم تكون ..

ــ انا .. واي شأن لي مع هذه اليد ؟

فسكت ساتان هنيهة ثم أخذ تلك الأوراق المطوية بيده وقال :

لنقطع الحديث بشأني ولنتحدث بشأنك فاصغ إليّ بملء حواسك واعلم انه لا بد ان يجيء يوم تلتقي فيه بالدوق دي بورجونيا .

ــ ذلك لا ريب فيه وسأسأله عما فعل بروزالي وامها :

ــ هذا لا يعنيني إذ هو من شأن القدر كما قلت لك ولكن اعلم انه حين تعتقد ان الساعة قد دنت لا تتردد لحظة وآت إليّ فاقرع بابي وقل لي :

« اني اسألك الورقـة التي كتبت عليهـا تلك الحوادث التي كنت شاهدها » .

فطاش رأس هردي وقال له :

ما هذه الحوادث ولماذا تكلمني بتلك الألغاز ؟

— انك الشاهد وهذا كل ما أقوله لك فمتى دنت الساعـــة فاطلب إليّ هذه الورقة .

والآن فاذهب ولا تنسَ انك ذلك الشاهد .

أما أنا فلا انسى انك اغمدت خنجرك بعد ان كنت تريد قتلي .

وعند ذلك وضع ساتان الورقة في الصندوق الصغير ووضع ذلك الصندوق في الخزانة الحديدية .

أما هردي فانه اتشح بردائه وهو يعجب لمـا سمعه ورآه يعجب كيف ان الحقد قد زال من قلبه على هذا الساحر وهو ما جاء إلا ليقتله ثم ذهب إلى الباب الموصل إلى الشارع .

فأخذ ساتان صندوقاً صغيراً وشيعه إلى البـاب حتى اذا اراد الانصراف اعطاه ذلك الصندوق .

فقال له هردي : ما هذا ؟

— مهر روزالي .

ثم اقفل الباب وعاد إلى منزله .

فوقف هردي حائراً مبهوتاً يردد قوله « مهر روزالي » .

الى ان هاج غضبه فجأة فجعل يقرع الباب بعنف ويقول :

انك وعدتني ان تذهب بي الى روزالي فأين هي .. اذا كان في صدرك قلب انسان كما اوهمتني الآن فقل أين هي روزالي ؟

وبعد هنيهة سمع هردي صوت ساتان يقول له من الداخل :

اذهب إلى قصر دي سانت بول وسل عن روزالي اوديت دي شامديفر .

فاهتز هردي اهتزازاً عنيفاً ولبث حيناً يرتعش فلم ينتبه إلا ليد وضعت على كتفه .

فالتفت هردي وقال : من انت ؟

فأجابه صديقه شاتليت قائلا :

أهكذا تنسى اصدقاءك ايها الشفاليه ؟

أهذا انت .. كيف أتيت ؟

ـ إني قفوت أثرك ووقفت انتظر خروجك من هـــذا المنزل الجهنمي وهممت ان اكسر الباب وادخل اليك لأني استبطأتك .

فسكت هردي إذ كان لا يزال متأثراً من جواب ساقان .

فقال له صديقه :

هلم بنا فانك سليم بحمد الله .. ولكن مـــا هذا الصندوق الذي تحمله بيـــدك ؟

فضحك هردي ضحكاً غير طبيعي وقال :

ان فيه مهر روزالي .

ـ روزالي ؟

ـ روزالي التي يجب ان اطلبها من اوديت دي شامديفر في قصر سانت بول .

فعض شاتليت شفته وشتم ساقان شتماً قبيحاً .

أما هردي فانه جعل يحدق في باب ساقان ويقول :

أنا الشاهد .. ولكن على ماذا ؟

فقال له شاتليت ، انك ايها الصديق نهجت معي نهجاً شريفاً حملني على التمتع بصداقتك فهل تأذن لي ان اسديك نصيحة ؟

ـ بل اشتريها منك .

فضحك شاتليت وقال : كيف تشتريها مني ؟

ـ نعم فاني لا آخذ شيئاً مجاناً حتى النصائح .

ـ انك غريب الأطوار ومع ذلك فها هي نصيحتي فخذها كما تشاء وهي: احذر ان تذهب الى قصر سانت بول .

ـ هذا ما قالوه لي قبلك وهذا ما قلته لنفسي ولكني سأذهب مع ذلك فان نصيحتك لا خير فيها ولكني اشكرك عليهـــا إذ لم يوحها اليك غير الاخلاص فهلم بنا .

وسار الاثنان ساكتين لا يتحدثان حتى اذا وصلا الى الفندق وصعدا إلى غرفتهما وضع هردي الصندوق على المائدة وجعل يقول :

مهر روزالي .

ثم أخذ يدور حول المائدة ساخطاً صاخباً وهو ينظر من حين الى حين الى ذلك الصندوق .

فقال له شاتليت :

لماذا لا تفتح هـذا الصندوق وترى مـا فيه ؟ فارتعش هردي وكان الصندوق مقفلا ومفتاحه مع ساتان ففتحه شاتليت بخنجره ووقف الاثنان منذهلـين مبهوتين لما رأياه في هـذا الصندوق فانه كان مملوءاً بحجـارة الالماس .

وكانت هذه الحجارة المضيئة مركبة كلهـا على خواتم وعلى أساور وعقود فقال هردي :

أحقيقة ما نراه ؟

وقال شاتليت :

ان ذلك لا يصدق .

ولم يجسر احـد منهما على ان يمس هـذه الحلى إلى ان مد هردي يده فأخرج خاتماً وجعل يتمعن فيه .

فصاح به شاتليت قائلا :

احذر ايها الصديق .

ـ مما احذر ؟

ـ ان هذه الحلى آتية من عند الساحر وربما احرق الخاتم اصبعك .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ بل اؤكده فقد رووا لي كثيراً من امثـال هذه الحكايات فان هـذه الالماسة التي تتمعن بها قد تنقلب الى نار محرقة فتحرق يدك وتيبس ذراعك .

ـ إذن ، سأعيد هذا الخاتم الى الصندوق فقد كنت عازماً على إهدائه اليك .

فاحمر وجه شاتليت وقال :

أتهديني هذه الماسة وهي تعادل ثروة ؟

ومد يده الى هاردي فأعطاه الخاتم وهو يقول :

أحذر من ان تحرق يدك وتيبس ذراعك.

ـ سوف نرى .

وتجدد عهد الصداقة بين الاثنين فاقسم شاتليت على ان يكون وفياً بعهده مدى الحياة ، واقترح ان يصحبه الى قصر سانت بول ، ولو لقي حتفه ، ثم قال له :

لقد اصبحت الآن من أهـل الثروة ، فان الدوق دي بيري الذي سرق مجوهرات شارل الخامس ليس له مثل هـذه الحلى فدعني ، أيها الصديق ، أسديك نصيحة .

ـ بشأن هذه الحلى ؟

ـ نعم ، فقد اتفق لي مرة انه كان عنـدي مثل هذه الجوهرة التي اعطيتني إياها ، وقد نلتها من إمرأة استحلفتني ان أبقيها عندي تذكاراً منها فأقسمت .

ولكني بعـد ثلاثة أشهر اصبت بعسر شديد فذهبت الى افراييم أتعرف افراييم ؟

ـ كلا ، ولكن امض في حديثك فانه مفيد .

ـ ان افراييم يهودي مقيم في الجزيرة وقد نهبوه مرتين وكادوا يشنقونه ثلاث مرات فهو كبير مثل متوشالح وعنده فيصندوقه الضخم موازينصغيرة ذهبية يزن بها الالماس .

فأخذ افراييم الماسة مني وبعد ان وزنها نقدني سبعين ديناراً وكان حجم ماستي يبلغ نصف حجم ماستك هذه .

ـ ان الحديث مفيد ، أيها الصديق ، فقل النصيحة .

ـ هذه هي، فمن يضمن لك ، أيها الصديق ، ان هذه الحجارة الثمينة لا تستحيل الى أوراق جافة .

ـ إذن ، نلقيها في الهواء .

ـ وقد تستحيل الى سمك صغير ، كما قرأت في كثير من التواريخ القديمة

ـ إذن ، نأكلها فقل النصيحة .

ـ النصيحة هي ان تذهب الى افرابيم ، بل اذهب وإياك ونأخذ معنا هذا الصندوق فنستبدل هذه الحجارة بدنانير ونأمن أخطارها .

ـ انها خير نصيحة ، وعلى ذلك فاذا إستحالت الى أسماك صغيرة اكلها افرابيم .

٥٦

اخراج الشيطان

وفي صباح اليوم التالي برح هاردي الفندق يصحبه شاتليت الى افرابيم اليهودي كما اتفقا .

فكان ليتبود ينظر اليهما وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر وسارا فيعجب لجرأتهما النادرة ويقول :

اني لا ارى اعجب من هذين الرجلين فان احدهما يبحث عنه البورجونيون ليقتلوه ، والآخر يبحث عنه الجنود ليشنقوه ، ثم يسيران في الاسواق غير متنكرين فيا لغرور الشباب .

وبينما كان ليتبود يأسف عليهما ، وبينما كانا ذاهبين فرحين ضاحكين الى افرابيم .

كانت تجري امور في قصر سانت بول تستلفت انظار القراء فانه في ذلك اليوم كان برايسكايل ورفيقاه ، أو النساك ، بالرغم عنهم قد دخلوا الى القصر .

فلندخل الآن الى قاعة الملك الخاصة حيث نجد فيها الملك وجاكمين المصور ، والنساك الثلاثة فان أوديت كانت قد عادت الى مخدعها بعد ان وثقت من برايسكايل ان هاردي قد ارسلهم .

وقد بدأ الثلاثة باخراج الشيطان من صدر الملك ، فدنا منه برايسكايل وقال له :

مولاي ، يجب ان نبدأ وان تكون البادىء بالصلاة .

فرسم الملك علامة الصليب على وجهه بخشوع وقال .

ولكني اؤثر ان يروي لي برانكايل حكاياته ومع ذلك فلنبدأ .

ـ حسناً ، فليتفضل مولاي بالجلوس على كرسيه وإسناد رأسه الى ظهر الكرسي وان لا يتحرك .

فامتثل الملك طائعاً وقال : أهكذا ؟

ـ نعم ، انما يجب ايضاً ان تغمض عينيك وان تصلي صلاة «أبانا والسلام» اثني عشر مرة .

فقال جاكمين: لا شك ان جلالته سيشفى فان الناسكين اللذين كانا قبلكما وصفا له هذه الصلاة ست مرات فقط .

فقال : الملك وفوق ذلك فانهما لم يطلبا اليّ ان اغمض عيني .

قال جاكمين : ولكن كن واثقــاً ، يا مولاي ، انه ما زال براسكايل يتولى معالجتك فسيعود اليك رشدك .

قال : أتعتقد يا جاكمين اني حقيقة مجنون ؟

قال : ذلك يتعلق بالأيام ، يا مولاي ، اما اليوم فلا شك بجنونك .

ففتح الملك عينيه ، وقد ظهرت عليه علائم الاضطراب شأنه في كل مرة يحادثونه بجنونه .

ورأى جاكمين ان النوبة ستفاجئه فغير حديثه فقال له :

مولاي ، ان هؤلاء الثلاثة المحترمين قـد تعبوا في خدمة جلالتك فلا بد من تقويتهم بالغذاء .

قال : حسناً ، فاذهب الى المطبخ وجئهم بخير طعام .

فقال برانكايل : ولا تنسى الشراب .

فعاد الزهو الى الملك وقال :

ـ نعم ، ومن خير الشراب .

هذه كانت حالة ذلك الملك المنكود الذي مله خدمه، ورجاله باتوا يحتقرونه بحيث بات عرضة لليأس في كل حين فلم يكن عزاءه غير أوديت .

ولم يكن يخفف عـذابه مثل الضحك فكان يرتاح الى كل من يضحكه وهو يعلم ان نكبته من مرضه ولذلك كان يقبل طائعاً كل ما يعرض عليه من انواع العـلاج وطرق المعالجة ومن هذا القبيل رضاه عن العلاج باخراج الشياطين من صدره وذلك تاريخي اكيد لا ريب فيه .

وقد جلس الملك كما تقدم على كرسيه واسند رأسه واغمض عينيه وجعل يتمتم تلك الصلاة .

اما براسكايل ورفيقاه فانهم داروا ثلاث مرات حـــول كرسي الملك ببطء وهم يرتلون باللاتينية ما خـلا برانكايل فانه كان يصلي صلاة خاصة يرتجلها وهو ينظر كل لحظة الى الباب اذ كان ينتظر الطعام والشراب .

وبعـد ان داروا دوراتهم الثلاث وقف براسكايل وصفق بيديه وقال بصوت رهيب :

باسم الله العلي القـدير أمرك أيها الشيطان الرجيم ان تخرج من صدره.

فردد براكايل هذا القول نفسه وبنفس اللهجة .

اما برانكايل فانه صبر هنيهة ، ثم قال :

انه لم يخرج ، ووالله لو وصلت يدي اليه لأنتزعت قرنه .

فانتهره براسكايل قائلاً : تباً لك من ابله .

وفتح الملك إحدى عينيه فقال :

لقد فرغت من تلاوة الصلاة اثنتي عشرة مرة .

فنظر كل من براسكايل وبراكايل الى الآخر اذ لم يكونا يتوقعان هذه الملاحظة فقال براسكايل :

لقد فرغ من الصلاة فما نعمل ؟

وقال براكايل : والله لا ادري .

فقال برانكايل : ان الأمر بسيط ، ثم التفت الى الملك وقال :

لقد فرغت من صلاتك ، يا مولاي ، فأعد تلاوتها اثنتي عشرة أخرى .

ففرح الاثنان لهذا الخاطر .

اما الملك فانه كان يعتقد ان الصلاة التي تلاها كافية فنظر نظرة تأنيب وعتب الى برانكايل ولكنه كان يرى انه لا بد له من الامتثال شأن كل مريض يلتمس الشفاء فاطبق عينيه وبدأ الصلاة .

وعند ذلك وقف براسكايل وراء الكرسي ، ووضع يده على رأس الملك .

ووقف براكايل على شمال الملك ووضع يده اليمنى على رأسه ووقف برانكايل في الوسط ، ولم يجد موضعاً على رأس الملك ، فوضع يده على كتفه .

ولما وقفوا جميعهم هذا الموقف بدأوا الترتيل فجعلوا ينشدون أناشيد كنسية لم يكن يستطيع برانكايل ان يجاري رفيقيه فيها فجعل يمزج ذلك الترتيل بغناء الخمارات .

ولما انتهت هذه الحفلة أيقن برانكايل أن الشيطان متمرد لا يريد الخروج فقال مغضباً .

آه لو تمكنت من القبض على ذنبه لأخرجته بالرغم عنه ، فانه لا يريد الامتثال .

فدار براسكايل حول كرسي الملك، ثم وقف أمامه وبدأ محاولة إخراج الشيطان بالاشارات .

فجعل يمد يده الى جهة صدر الملك ، ويردها الى صدره مرات متوالية بعنف كأنه يريد ان يجذب الشيطان بهذه الطريقة حتى تعب وسال العرق من وجهه .

فانزوى للاستراحة وحل براكايل محله ففعل فعله نحو مائة مرة حتى تعب ايضاً وانزوى .

وعند ذلك جاء برانكايل فجعل يدفع يده ويجذبها بعنف عظيم الى ان صاح قائلاً :

لقد اخرجته ، لقد فزت عليه .

ذلك انه قبض بهذه الحركة على ثوب الملك من صدره وجذبه فخيل له انه جذب الشيطان .

اما الملك فانه صاح صيحة ذعر وتراجع الى الوراء .

فهجم براسكايل على برانكايل وقال له :

لقد قبضت على الملك أيها الابله لا على الشيطان كما توهمت .

غير ان الملك لم يستاء لهذا الاتفاق ، ولكنه ارتأى اقفال هذه الجلسة ، فقال له :

لقد تعبتم ايها المحترمون فاذهبوا واستريحوا فسيرافقكم جاكمين ولكن لا تحرموه من الشراب .

فقال برانكايل : طب نفساً ، يا مولاي ، فسأتولى أمره .

ويظهر انه اذا كان برانكايل قد تعهد بجاكمين فان جاكمين قد تعهد بالثلاثة وذلك انه بقي معهم الى منتصف الليل .

فلما جاءوا في صباح اليوم التالي لإخراج الشيطان كانت السنتهم معقودة من السكر ولكن ذلك لم يضعف شيئاً من ثقة الملك بهم .

٥٧

نكبة ريدون

وبدأ برسكايل وشركاه اعمالهم حسب العادة ، فلندعهم الآن مع الملك على ان نعود اليهم ولنعد إلى الملكة ايزابو .

فانها كانت جالسة في إحدى قاعاتها تنتظر عودة ريدون بتقريره ، فلما عاد اليها كان أول ما سألته قولها :

ماذا يصنع النساك ؟

قال : انهم يخرجون الشيطان .

فأطرقت هنيهة مفكرة ثم قالت :

أتعرف هؤلاء النساك يا ريدون ؟

فأظهر ريدون نفرة وقال :

اني لا اعرف مثل هؤلاء الناس يا سيدتي .

قالت : ولكني اريد ان تعرفهم ، فانهم بواسل يأكلون جيداً ويشربون جيداً ويقامرون بحيث انك لا تضجر من صحبتهم ، وفوق ذلك فانهم سيخرجون الشيطان من صدر الملك .

فحك ريدون اذنه وقال في نفسه :

ما الذي يدعو الملكة اليوم الى السرور بشفاء الملك ؟

وعادت ايزابو إلى الحديث فقالت :

يجب ان تذهب إلى هؤلاء النساك فانهم ينتظرونك ويجب ان تساعدهم على إخراج الشيطان من الملك إلا إذا أخرجته أنت وحدك .

فدهش ريدون وقال : انا ؟

ــ نعم انت فاصغ اليّ .

ان هؤلاء النساك أرسلهم الدوق دي بورجونيا كما انه أرسل الناسكين الذين تقدماهم .

على ان هؤلاء الثلاثة قد يحبطون كما حبط الاثنان وأنا اريد ان يشفى الملك الشفاء التام .

ولكني لا أثق بعلم اولئك النساك ولذلك أردت ان تذهب انت لمساعدتهم مع اتخاذ الاحتياطات الواجبة .

مثال ذلك انه لا يجب ان يراك احد فان رجالي سيذهبون بك الى إحدى غرف الملك .

وهناك تنتظر يومين او ثلاثة او اكثر فلا يسوءك ذلك فسترده اخباري في كل صباح .

غير انه يجب ان تكون متأهباً في كل لحظة من الليل والنهار لإخراج الشيطان من الملك

ـ أأنا اخرج الشياطين ؟

ـ لا تتبـاله يا ريدن فانك ستراقب هؤلاء النساك وتساعدهم حين الاقتضاء ..

ولكن يجب ان تعتني عناية خاصة بالآنسة دي شامديفر .

ـ اوديت .. لقد بدأت ان افهم .

ان الناسكان القديمان كانا على وشك إخراج الشيطان من الملك ، وكنا قد انتهينا الآن ، فان الملك كان قد أخذ الكأس وأدناها من فمه كي يشرب الدواء المضمون.

ولكن اوديت دخلت في تلك اللحظـــة وخطفت الكأس من يد الملك فألقته في المستوقد بحيث يجب ان نعود منذ البدء .

ثم ان رجال الدوق دي بورجونيا حاولوا إنقاذ الملك بالقبض على هذه

الماكرة الخادعة وقتلوا شامديفر ومربيتها ولكن اوديت بقيت .

ثم اني استأنفت القتال فأطلقت غرتي على تلك الماكرة فعادت الي شبه ميتة لما أصابها من جراح ذلك الكلب وبقيت اوديت .

ثم نهضت وقالت :

ان النساك فشلوا ورجال الدوق خفقوا والنمرة خابت ولكن ريدون لا يخيب .

فارتعش ريدون إذ أيقن الآن بانها تريد منه قتل اوديت ، ولكنه قال في نفسه :

اني اؤثر ذلك ، فقد كنت أخشى ان تأمرني بقتل الملك .

أما الملكة فانها مشت ببطء إلى النافذة وأطلت منها تسرح النظر بالأشجار التي كانت تغطيها الثلوج الى ان استقر نظرها على قصر الملك فعادت الى ريدون وقالت :

اني لم أعد اطيق الصبر فاني اريد ان تموت الماكرة .

فمسح ريدون العرق عن جبينه وقال : ستموت .

ـ إذن برهن لي عن حبك هذا البرهان يا ريدون ، فاني أسألك إنقاذي من هذه الماكرة التي تريد موتي . إذهب يا صديقي ويا عشيقي وإنقذني .. إذهب واضرب

وعند ذلك فتحت ذراعيها وضمته الى صدرها فاهتز ريدون اهتزازاً عنيفاً ولو سألته ان يقتل نفسه في هذه الساعة لفعل .

فقالت له : إذن ستقتلها ... اقتل ولا تخف إذا هجم عليك رجال القصر لأني ..

فقاطعها ريدون وقد سكر بخمرة الغرام فقال :

إني سأطعنها طعنة واحدة تكون القاضية ، وأما الآخرون ..

وهنا ضحك ضحكة عصبية وجرد حسامه كأنه تمثل له انهم يقاتلونه ، فقالت له :

تعال ايها الباسل وانقذ عشيقتك ، وأما بشأن الملك فاصغ .

فأغمد ريدون حسامه وقد اصفر وجهه وقال في نفسه .

الملك .. انه مقدس .. لتطلب الي كل ما تريده ما عدا قتل الملك .

فقالت ايزابو

ان النساك يدعون براسكايل وبرانكايل وهم سيخرجون الشيطان من الملك ، فلا أدري أيكون ذلك بعد يوم او بعد اسبوع .

غير انك ستعلم ، والذي ينبغي عليك ان تكون متأهبـاً في كل حين .. فمتى نادوك تسرع اليهم فتنقل في البـدء اوديت ، وإذا تردد النساك ..

ـ اذا ترددوا ؟

ـ نعم اذا ترددوا تنوب عنهم وتقتل انت الملك .

وكانا في تلك الساعة واقفين عند سلم من الرخام عريض وهو نفس المكان الذي كانت تنتظر فيه ايزابو الدوق دي بورجونيا .

غير انها كانت حين تنتظره تصدر اوامرهـا فلا يأتي احد الي هذا المكان ..

اما الآن فقد كانت الحادثة في رائعة النهار .

وقد رفعت الملكة عينها الى ريدون حين اصدرت امرها اليه بقتل الملك فرأته مصفر الوجه وعلمت ما يجول في نفس ذلك الجندي الذي يعتـبر الملك مقدساً وان يد الله على قلوب الملوك وان الملك نائبه على الارض .

فوضعت يدها على كتفه وقالت له ، اقسم بأنك تقتله .

فشعر ريدون انها قد التصقت به وشم رائحة شعرها العطرية فأسكرته فتغلبت عليه الشهوات واتقدت عيناه وطاش رأسه فطوق خصرها بذراعيه وقال لها .

اقسمي بان تكوني دائماً لي .

قالت : اقسم بأن أكون لك وحدك منذ الآن ولا أدع مجالاً للغيرة في قلبك وأرفع مقامك فلا يجسر احد ان ينظر اليك فاقسم لي انت بدورك انك تقتلها في البدء ثم تقتل الملك .

فكاد يجن من الحب وقال :

الملك .. ملك فرنسا .. نعم اني سأقتله بطعنة واحدة في القلب .

فطوقت عند ذلك عنقه بذراعيها وحملها بين يديه فرفعها اليه وجعلت شفتاه تبحث شفتيها .

وعند ذلك سمعت صيحة منكرة في اسفل السلم .

***

لقد وعدنا القراء بالعودة إلى قاعة الملك حيث تركنا برسكايل ورفيقه يشتغلون باخراج الشيطان من الملك .

ولم يفعلوا شيئاً جديداً يختلف عما فعلوه بالامس سوى ان الملك اوقفهم عن العمل قبل ان يفرغوا منه وقال لهم .

لقد تعبتم اليوم فاستريحوا وسامر لكم بمائدة فتأكلون وتشربون امامي إذ يروق لي ان اراكم في مجلس شراب .

وقد امر باعداد مائدة فجيء بها ،وبسط الطعام والشراب عليها فوضعت كؤوس الذهب وجلس الثلاثة حولها علىالكراسي المخملية دون كلفة وجعلوا يأكلون ويشربون بينما كان الملك يسير ذهاباً واياباً في القاعة وينظر اليهم من حين إلى حين .

إلى ان دنا منهم فأخذ زجاجة من الخمر فصب لهم في الكؤوس بيده ودعاهم إلى الشراب فلما فرغت تلك الكؤوس الذهبية اخذها الملك واعطى كلا منهم كأساً منها قائلا :

ابقوها لديكم تذكاراً مني .

فدهش براكايل وقال :
كيف ذلك يا مولاي أهذه الكؤوس الجميلة لنا ؟
وقال برسكايل : يعز علينــا يا مولاي ان يقيم الشيطــان في صدر ملك كريم مثلك .
وقال برنكايل : لقد خطر لي خاطر .
فقال الملك:
اني سأستقبل الآن النبلاء فانصرفوا وستعودون بعد انتهاء الاستقبال .
وكان الشراب قد اثر على برنكايل واطلق لسانه فقال :
ولكن الخاطر الذي خطر لي صالح واني موقناً بأن استطيع به اخراج الشيطان في الحال .
فارتعش الملك وعاوده الرجاء بالشفاء فقال :
ما هذا الخاطر ألعله طريقة جديدة لاخراج الشياطين ؟
— كلا ليست الطريقة جديدة بل جربتها بنفسي .
وهل نجحت ؟
— في الحال.
— اذن لينتظر النبلاء فقل ما هي طريقتك ؟
— مولاي انها حكاية يجب ان اقصها عليك .
فخاف برسكايل عاقبة سكر رفيقه والتفت اليه وقال :
دع حكايتك إلى الغد ايها الرفيق .
قال الملك : كلا بل الآن .
ثم جلس في كرسيه وتأهب لسماع الحكاية فقال برنكايل بعد سكوت .
لا بد ان أقول يا مولاي اني في بدء حكــايتي هذه كنت اعشق امرأة ماريون .
فأجفل براكايل وقال : أتكون عاشقاً وناسكاً معاً ؟
وقال برسكايل :

مولاي ان رفيقنا برنكايل كان جندياً قبل أن يكون ناسكاً ولا شك انه عشق قبل التنسك ؟

فضحك الملك وقال : دعوه يتكلم ثم قال له :

امض في حديثك فأنت الذي ستشفيني .

فقال برنكايل : لماذا ينكرون عليّ الحب ألا يحق للنساك ان يحبوا فلا تنظر اليهما يا مولاي واعلم يقيناً اني اضمن خروج الشيطان منك .

اذن فاعلم اني كنت اعشق ماريون أتعرفها يا مولاي فقد عرفها جميع الباريسيون انها كانت ممشوقة القد سوداء العينين قرمزية الشفتين .

وبالاختصار يا مولاي انه اتفق لي اني وجدت نفسي يوماً حزيناً منقبض الصدر تلوح لي اشباح لا اعرفها واشعر انها تمسني بأصابعها وتطوف حولي .

فقال الملك : هذا نفس ما اتفق لي ايضاً .

قال : وقد شعرت فجأة ان احدى هذه الاشباح او الشياطين قد دخل إلى بطني .

فجعلت اشتم واعربد وعدت الى الخمارة التي كنت فيها حين شعرت بما أصابني وعدت إلى الشراب ليس بقصد السكر بل بغية اغراق الشيطان في بطني .

غير ان الوقح كان من اهل العناد فكنت كل ما افرط في الشراب زادت قحته الى ان علمت بأنه يشرب كل ما اشربه من الخمر فيسكر دوني .

فخرجت من الخمارة لسببين احدهما اني لم استطع ان اغرقه والثاني انهم طردوني إذ لم استطع دفع ثمن الشراب .

ومع ذلك فان الشيطان سكر في بطني وجعل يتمايل فيه فاضطر إلى ان أتمايل معه ولا أكاد استطيع الوقوف فذهبت إلى ماريون .

فاحمر وجه برسكايل وقال :

كفى ايها المحترم وستروى لنا غداً بقية الحديث .

غير ان الملك أمره ان يتم حديثه فقال :

من اين يستطيع ان يخرج الشيطان إلا من فمي .

– هذا أكيد .

– فلما رأتني ماريون على هـذه الحالة وكانت امرأة كريمة الأخلاق اشفقت عليّ وعانقتني وشعرت بفمها على فمي فماذا حدث ... اني لا ازال اسائل نفسي إلى الآن ولكن الذي ارجحه انه حين التصق فمي بفمها نحبس الهواء عن الشيطان فمات اختناقاً .

وربما كانت طريقة مبتكرة من ماريون غير ان الذي لا ريب فيه اني شفيت في تلك الساعة وذهبت الى الكاهن لاعترف .

فقال الملك : وماذا قال لك الكاهن ؟

– انه كان يا مولاي من اهل العلم والصلاح فقال لي : ان هذه الطريقة من خير الطرق .

فقال الملك ، نعم لقد سمعت بأنهم كانوا منذ القدم يخرجون الشيطان بادخال الهواء اليه من الفم .

– هو ذاك يا مولاي غير ان هذا الكاهن الصالح قال لي ، انه كان يجب ان اعهد لامرأتي بتجربة هذه الطريقة بي اي امرأتي التي اتحدت بها برباط الزواج المقدس وقـد اعترضت عليه اني غير متزوج فأبى ان يغفر لي ذنبي على الاطلاق وقـال لي خير لك ان تكون مجنوناً لا ذنب لك من ان تنـال العقل بالذنوب .

فارتعش الملك وقال ، اذن يجب ..

فقال برانكايل ، يجب يا مولاي ان تتولى جلالة الملكة ايصال انفاسها من فمك الى الشيطان واي شيء اسهـل من ذلك ومتى فعلت فاني اضمن لك الشفاء .

فوقف الملك وجعل يمشي في تلك القاعة حائراً مضطرباً ويقول ،

الملكة ... الملكة ... ولكن أتوافق على ذلك وهي لا تحبني وماذا عليها لو شقيت وتألمت .. ولكنني اريد ان اشفى .

وقد اتقدت عيناه وبدأت شفتاه ترتجفان وضحك ضحكاً عصبياً كان يحدث له في بدء النوبة ثم تنهد تنهداً كاد يمزق به صدره .

أما الثلاثة فقد لبثوا واجمين ساكتين لهذا المنظر الهائل فانهم لم يروا من الملك الى الآن غير الطاعة والسكون والبر .

وقد وقف فجأة امام برانكاليل وقال له :

تقول اذن ان الملكة .. تكلم ايها الابله .

— نعم يا مولاي الملكة .

— كفى فاني ذاهب اليها .. ليحضر رئيس حراسي .

فحضر الرئيس للحال وقد نظر نظرة الفاحص الى النساك الثلاثة ثم نظر إلى الملك وتبين الغضب في وجهه فدنا منه وقال :

أتريد يا مولاي ان ادعو لك المدموازيل اوديت .

وانما قال ذلك لأن اسم اوديت وحده كان يكفي احياناً لتسكين هياجه .

ولكن هذه المرة لم يتأثر لهذا الاسم وقال :

ان الناسك قال الملكة .. اني أريد أن اذهب الى الملكة فخذ اثني عشر حارساً واتبعني وسوف ترى ان الملكة ستشفيني .

وعند ذلك خرج مسرعاً فاجتاز الحديقة ووصل الى قصر الملكة ودخل إلى الردهة الكبرى وبلغ ذلك السلم الذي كانت وريدون واقفين في اعلاه على ما وصفناه فنظر اليهما وصاح تلك الصيحة المنكرة .

وقد طاش رأسه وارتجفت ركبتاه ومن العجائب ان نوبة الجنون لم تفاجئه في تلك الساعة الهائلة فأطرق برأسه واغرورقت عيناه بالدموع .

أما ايزابو وريدون فانهما حين سمعا تلك الصيحة ورأيا الملك قد رآهما افترقا ببطء وقد برزت عيونهم ووقفت ايزابو تنتظر ووقف ريدون وهو لا يشكك بدنو ساعته الأخيرة .

ولم يكن الملك مشككاً بخيانة إمرأته فكان في حالات هدأه يحتقرها وهو مبتعد عنها من عهد بعيد .

ولكنه لم يجد مرة برهاناً يثبت خيانتها كهذا البرهان الجلي .

وكان قد حبها من قبل حباً صادقاً ، ثم جعل هذا الحب يتناقص من قلبه بما كان يخامره من الريب حتى تحول بعد الحب الى احتقار .

أما وقد رأى ما رآه فقد استحال الاحتقار الى بغض تفجر في قلبه وكبرت عليه هذه الأهانة التي لم يبق سبيل للشك بها فجعل يصعد درجات السلم ببطء ، وقد رأته الملكة مصفر الوجه ، مضطرب الاعضاء ، ثابت الجأش فهلع قلبه رعباً ونسيت موقفها كملكة فلم تعد تعلم إلا انه ستجري حادثة هائلة فخطر لها ان تفاجئه قبل ان يفاجئها ودنت من ريدون وقالت له : أقتله .

وكان ريدون قد خطر له هذا الخاطر ايضاً ، فنزل درجات السلم دون تردد ، وهو عازم عزماً اكيداً على قتل الملك ، وقد عول على قتله خنقاً لا بالخنجر .

وفي تلك اللحظة ظهر رئيس الحراس يصحبه اثنا عشر من جنوده فكانت ساعة هائلة وقف ريدون فيها موقف المغلوب وصاحت به ايزابو قائلة : أيها الجبان تقدم ، تقدم .

وتوهمت انها قالت هذه الكلمات ولكنها لم تخرج من شفتيها بل قالتها في نفسها .

وقد وصل رئيس الحراس الى منتصف السلم ، وادرك كل شيء بلحظة حتى اذا بلغ الملك همس في اذنه كلمة فذهب تواً الى ريدون فقال له :

أيها السير دي ديدون اني اقبض عليك باسم الملك فسلم حسامك .

فامتثل ريدون دون اعتراض وانتزع حسامه وخنجره فأخذهما رئيس الحراس ودفعهما الى احد جنوده .

وعاد الملك الى صعود السلم وحراسه يتبعونه وبينهم ريدون .

حتى اذا وصل الى الملكة وقف وجعل كل منهما ينظر الى الآخر ، وقد جمد الدم في عروقهـا لما تبينته في عيني زوجها من المقاصد الهائلة ، ولزمت الصمت اذ كانت موقنة ان اقل كلمة تقولها تدعوه الى إصدار الأمر بالقبض عليها أو الى طعنها بالخنجر .

وساد السكوت على الجميع وهم يتوقعون ان يعـاقب الملك زوجته أو يتهددها ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك .

فدنا عند ذلك رئيس الحراس من الملك وقال له مشيراً الى ريدون:

في أي سجن ، يا مولاي ، تريد ان نضع هذا الشريف ؟

فنظر الملك اليه نظرة منكرة وقال: لا تقل شريفاً فان تلقيبه بهذا عار على الشرف .

ـ الى أين تريد ، يا مولاي ، ان نذهب به ألى سجن القصر ؟

فضحك الملك ضحكاً هائلاً هلع له قلب ايزابو من الخوف وقال له: كلا، بل خذه الى ساحة الشنق .

ـ مولاي ، يجب محاكمته قبل شنقه .

ـ لا يجب محاكمة سارق يراه الملك يسرق فسر به أو آمر بشنقك بتهمة العصيان .

ومشى الى الملكة ، وقد أغمضت عينها من الخوف فوضع يده على كتفها وقال لها برفق مكلف : تعالي.

فوهت ركبتا الملكة وادركت ما يريد الملك ، فقالت :

الى أين تريد ان أذهب .. اني تعبة فدعني أعود الى مخدعي :

ـ تعالي .

ـ ولكن الى أين ؟

ـ الى حيث ترين الحبل في عنق عشيقك .

فذعرت ايزابو وقالت : إني لا اطيق هذا المنظر فلا أذهب .

فحدق الملك بها وقال :

ان عشيقك سيشنق وأما عقابك فسترين ما يكون بعـــد شنقه .. وأنا أريد ان تحضري شنقه ، فاذا لم تمتثلي امرت بالقبض عليك وعاقبتك عقاب الزانيات . أتعلمين ما هو هذا العقاب ؟ هو ان تركب المرأة عارية ، فيكون رأسها الى الذنب ويطاف بها في الاسواق والجلاد يقرعها بسياطه فامنعي عن فرنسا هذه الفضيحة وتعالي .

ــ وبعد ذلك ؟

فابتسم الملك ابتسامة هائلة وقال : وبعد ذلك سوف ترى ما يكون .

ثم نادى رئيس حراسه وقال له : أقـــدم ذراعك للملكة فانها ستحضر شنق اللص .

٥٨

لقــد تركنا الملك في الجزء السابق يأمر رئيس حراسه ان يتأبط ذراع الملكة ويسير بها مكرهة الى حيث ترى شنق عشيقها ريدون .

وكانت هذه اشد إهانة وضعها بها أمام الجنــود فان الملكة لا تتوكأ إلا على ذراع الملك .

ولكنه رآها بين ذراعي رئيس حراسهــا فلم ينخفض مقامها اذا توكأت على ذراع رئيس حراسه .

أما رئيس الحراس فانه اغمض عينيه كي لا يرى اضطراب الملكة ، وهو واثق انها لا تمتثل لأمر الملك . !

غير انه شعر ان الملكة قــــد استندت الى ذراعه فارتجف وفتح عينيه فرآها تبتسم كأنها غير مكترثة لشيء .

ولم يكن ابتسامها عن عدم مبالاة كما تدل ظواهره ولكنها كانت خبيرة بأخلاق ذلك الزوج المنكود واقفة على اسرار مرضه ، عالمة بما يثير اشجانه وقــد خبرته في كثير من المواقف بعد مرضه ، فعلمت ان هياجه انما يكون عليه وانه ينتهي بمفاجأة النوبة ولذلك كانت تبتسم هــذا الابتسام وتتظاهر بعدم المبالاة .

ومشت مع رئيس الحراس والملك يجانبها ، ووراءهم الحراس يحيطون بريدون ، فنزلوا السلم واجتازوا الردهة الكبرى وبلغوا تلك الأرض القاحلة المجاورة لسجن هيدرون .

وكان سكان القصر قد رأوا ما كان فلم يمض ربع ساعة حتى تجمهر نحو اربعة آلاف متفرج في تلك الساعة من النبلاء والحراس والجند والخدم والخادمات وكلهم معجبون لما يرون ؟

ولم يكن عجبهم للشنق في القصر فقد كان ذلك يجري كثيراً حتى القوه.

ولكن لقدوم الملك والملكة معاً ولكون المشنوق رئيس حراس الملكة فجعل كل يخوض في تأويل هذه الحادثة كما يشاء .

وقد امر الملك باحضار الجلاد فأسرع بالامتثال ووقف الملك والملكة في أول صفوف المتفرجين .

اما ريدون فقد اظهر من الشجاعة ما طالما اظهره في مواقف الاخطار فانه لم يكن يخاف شيئاً من الخطر بشرط ان يكون منظوراً لا ان يكون خفياً كأخطار جهنم .

ولا نريد ان نقول انه كان يسير الى المشنقة ، وهو يضحك ويغني ولكنه كان يسير سير الواثق المطمئن بأن الموت لا يخيفه وهو يفتل شاربيه مستكبراً غير هياب .

حتى اذا وصل للمشنقة قال للجلاد :

اني كنت أؤثر ان اقتل رمياً بالرصاص ، كما يقتل الأشراف امثالي لا بالشنق يقتل اللصوص .

فأجابه الجلاد كأنه يريد ان يعزيه ، ان الموت واحد مهما اختلفت اشكاله وسأهونه عليك ألا تريد ان تعترف قبل الموت ؟

ــ دون شك فقد أذكرتني ما كنت ناسياً.

فأبلغوا الملك انه يريد الاعتراف وكان الاعتراف قبل الموت إكراهياً في ذلك العهد فاذا أبى المحكوم عليه الاعتراف أكرهوه عليه مرغماً .

فلما بلغ الملك قال : لقد اصاب فانه ليس من عباد الأوثان وسأحضر له معرفاً جديراً به .

ثم همس بضع كلمات في أذن نبيل كان واقفاً بالقرب منه فأسرع راكضاً ووقف الناس ينظرون ساكتين واجمين .

وكان الملك ينظر الى ريدون نظرات تشف عن الحزن كأنه كان يعلم ان الذنب ذنب إمرأته ، وان تلك الحية الرقطاء قد اغرته على الخيانة فان الرجل مهما بلغت جرأته لا يجسر على غصب إمرأة إلا بعد ان تكون شجعته بنظرة أو إبتسامة .

واما الملكة فقد كانت تنظر الى الجماهير مشرقة مبتسمة ، وقد لبث ذلك المنكود ريدون ينظر اليها نظرات الكلب الأمين ، كل مدة انتظاره الموت ، فلم تمن عليه بنظرة ، ليس لأنها كانت تخشى ان يرى زوجها ، أو الناس تلك النظرة ، بل لأن ريدون قد محي إسمه في عرفها من سجل الوجود .

وعنـد ذلك اتجهت انظار النـاس الى المشنقة اذ رأوا راهباً هائل الخلقة ضخم الجسم قد دنا منها وقبعته الى عينيه .

فتباعد الجميع عن المشنقة حتى الجلاد واعوانه ودنا الراهب من ريدون وجعلا يتكلمان بصوت منخفض .

وبعد هنيهة سمع الناس شتائم الفريقين فان الراهب كان يحاول إكراه ريدون على الاعتراف وريدون يشتمه ويطرده ويقول :

لا اريد ان يعرفني برانكايل ، إذهب أيها اللص فاني اريد ان اشيع الى السماء لا الى جهنم .

فكان برانكايل يجيبه :

ويحك أيها الابله ان سماع الاعتراف مهنة عدتها الثوب وأنت تراني البس ثوب الرهبان فماذا عليك لو اعترفت لي دون سواي ؟

فيكبر ذلك على ريدون قائلاً :

يا ويلهم من اليوم الاخير انهم يهزأون بالدين ويلبسون هذا اللص ملابس رجل الله .

فضم برانكايل عند ذلك قبضته وقال :

أتجسر أيها الوقح علي إهانة برانكايل قسماً باظافر يمازبول اني سأقتلك قبل ان تشنق .

وقد كشف ذراعيه متأهباً للقتال وإقتدى به ريدون فوقف في موقف الدفاع وهمّ الاثنان بالانقضاض .

وعند ذلك جعل الناس يتباعدون ، وقد ظهرت عليهم علائم النفور والاحتقار والرعب اذ رأوا رجلاً يتقدم اليهم وهو بملابس السواد وقد اتشح بوشاح أحمر وكانوا يبتعدون عنه ويخشون ان يمسهم ويرسمون علامات الصليب على وجوههم ويقولون :

كيف يدخل ساحر الجزيرة الى قصر سانت بول حين يشاء .

أما ساتان فانه دخل مسرعاً ووقف برانكايل وريدون .

٥٩

أسرار المشروع العظيم

وكان برانكايل قد رفع يده الهائلة وحاول ان يسحق بها رأس ريدون ، فلما رأى ساتان ذعر ذعراً عظيماً وسقطت يده الى جنبه ، وجعل يقول بلسان يتلعثم :

سيدي ، أنا هو .. أنا هو أحد الأحياء الثلاثة .
وقد ملأ الرعب قلبه من ساتان فلمسه الساحر بأصبعه وقال :
إذهب .
فطار فؤاد برانكايل مسروراً بهذه النهاية وقال :
اني ممتثل لأمرك وهأنا ذاهب في الحال .
ثم جعل يهرول راكضاً مذعوراً بينا كان الملك ورجاله يضحكون .
وعند ذلك التفت شارل السادس الى ساتان وقال :
ان ذلك الناسك المتعبد أبى ان يعرف رئيس حراس جلالة الملكة ، فهل تتولى هذه المهمة أيها الساحر ؟
فانحنى ساتان بملء الاحترام وقال :
اذا أمر جلالة الملك فما عليّ إلا الامتثال .
فصاح ريدون بصوت أجش قائلاً :
ولكني أنا لا اريد .
وكانت الملكة في البدء تظهر عدم الاكتراث التام ولكنها حين جاء ساتان جعلت تراقب ما يجري بملء الاهتمام .
وقد خطر لها عند ذلك خواطر غريبة وجعلت تنظر الى ساتان وظهر لها رجاء بعيد كالنجم الذي يخفق بين الغيوم .
أما ساتان فانه دنا من الملك وقال :
ان جلالتك يا مولاي قد خبرتني في المهات وأنت تعلم اني استطيع تسكين هياج هذا الرجل المشرف على الموت .
انه على وشك الموت يا مولاي والموت أمر خطير ، فاسمح لي ان ألطف عذاب موته .
ـ إفعل فان كل الذي اريده ان يبرح هذا العالم لأنه أهان الملكة، ولكني لا اريد ان يتعذب .
فمشى ساتان عند ذلك الى ريدون فصاح به ريدون قائلاً :

الى الوراء ايها الشيطان . إرجع يا رئيس الأبالسة .
ثم التفت الى الجلاد الذي كان ينظر اليه نظرات إشفاق وقال له :
ايها الجلاد ، ضع الحبل في عنقي فسألقي ربي دون اعتراف .
فدنا ساتان منه وقال له بصوت منخفض ؟
اصغ الي فاني مرسل اليك من قبل الملكة لا من قبل الشيطان .
فكاد ريدون يقول انهما واحد ولكنه اضطرب وقال :
الملكة ؟
ـ نعم الملكة ، فهل تريد ان تكون السبب في قنوطها ؟
ـ معاذ الله ان افعل فاني اموت من أجلها وإني أؤثر ان أموت عشر ميتات في سبيل رضاها .
قال : إذن أشرب هذا الشراب إذا أردت ان تبقى في قلبها تذكاراً من حبك .
وقد اخرج لفوره من تحت وشاحه زجاجة صغيرة فتناولها ريدون وقال ما هذا الشراب؟
قال ، هو الشراب الذي يجعلك حياً . ثم قال كأنه خشي ان يكون قد تهور في القول :
نعم انه يجعلك حياً في قلب الملكة .
قال : كفى
ثم نظر نظرة طويلة الى ايزابو كأنه يريد ان يطبع رسمها في مخيلته الى آخر لحظة من الحياة وقال لساتان بصوت رقيق لطفه قرب الموت :
اني طالما احتقرتك وكرهتك لالتصاقك بالأبالسة ، أما اذا كان ما تقول أكيداً وكان هذا الاكسير يحييني في قلب الملكة حين افارق هذه الحياة فاني اباركك من الآن حتى ألفظ النفس الأخير .
ثم شرب ذلك الاكسير ببطء وأبقى الزجاجة في يده كأنه اراد ان يبقيها عربوناً على حبه .

وعند ذلك وضع الجلاد الحبل في عنقه وجذب رجليـــه فجعل يرقص في الخلاء .

فتنهد الملك ونظر الى الملكة نظرة ملوءها الوعيـــد ثم نظر الى رئيس حراسه وقال له:

اصحب جلالة الملكة الى قصرها وأحرس هناك برجالك جميع الأبواب فان رئيس حراسها قد مات فوجب علينا ان نتولى حراستها .

ثم أشار الى الناس ان يتفرقوا ومشى في مقدمتهم .

فدهش الناس لما سمعوه ، فان هذا القول بالرغم عن كلماته الأخيرة يعـد بمثابة أمر بتوقيف الملكة .

وقد تحول ذلك الذهول بغتة إلى احترام ، فقد اعتقدوا ان الملك شفي من جنونه وعاد الى إدارة الشؤون بسلطته النافذة .

وكان بين هؤلاء الجماهير نحو خمسمائة رجل من الذين كانوا مخلصين للملكة يتلقون إنعامها ويعملون بأوامرها .

فلما سمعوا الملك يأمرها هذا الأمر الصريح التفوا من حوله ونسوا الملكة فذهبت وحدها يخفرها رئيس الحراس وجنده

اما الملك فانه قد سار الى قصره تخفره الجماهير وهو معجب بهذا الانقلاب الفجائي إذ لم يكن يرى امامه غير وجوه مشرقة بعد كلوحها وثغور باسمة وعيون تنظر اليه نظرات الحب والإخلاص .

حتى اذا اقتربوا من قصر الملك جعلوا يصيحون :

لقد شفي الملك بإذن الله ..

وأخذوا يهنيء بعضهم بعضاً تهنئات صادقة ، فان هذا الملك كان محبوباً من رجاله لم يبعدهم عنه غير جنونه .

وقد حانت التفاتة من احدهم الى باب القصر فرأى برنكايل واقفاً وهو بملابس الرهبان عند باب القصر ينظر الى اولئك الجماهير غير مكترث لهم ، فقد كان يفتكر بموقفه مع الساحر ويرتجف رعباً .

فصاح الرجل برفاقه قائلاً : هوذا منقذ الملك .

فأسرعوا الى برنكايل واحاطـــوا به من كل جانب فدهش ثم حاول الفرار ثم لبث في مكانه وقد ابتسم ابتسام الرضى وقال :

إذا كان هذا الرأي تريدونه فاني موافقكم عليه فهاتوا .

ذلك ان احد اولئك الأسياد نفحه بدينار ، فلما رأى النبـلاء ان الملك رضي عن هذه الهبة انهالوا عليه بالهبات وتسابقوا الى الإنعام عليه فكان الرجال يعطونه نقوداً والنساء يعطينه حليـاً حتى اجتمع لديه ثروة لم تكن تخطر له في الأحلام .

فرعب في البدء لمنظرها ثم أخذ يضحك ثم جعل يبكي إذ لم يخطر له في في بال ان مثل هذه الثروة تجتمع لفرد .

وعلى الجملة فانه بعد ان تفرق عنه الناس خلع رداءه فوضع المال والحلى فيه ودخل الى رفيقيه برسكايل وبراكايل .

فذهل الشريكان لما رأياه وأسرع براكايل الى إقفال الباب بينما كان برسكايل قد شرع بقسيمة الغنيمة الى ثلاثة أقسام .

فلما تمت القسمة على ما اراده برسكايل وأخذ كل نصيبه قال برسكايل:

لم يبق علينا إلا ان نبرح هـذا القصر .

فقال براكايل : بشرط ان لا يرانا احد .

فقال برانكايل : لماذا نهرب ولما لا تريدون ان لا يرانا احد ؟

فهز برسكايل كتفيه وقال : انك أبله .

وقال براكايل : كيف تبقى هنا بعد ما بدر منك .

ـ ماذا بدر وماذا فعلت اني لا افهم شيئاً .

ويحك ، كيف تبقى في هذا القصر بعد ان كسرت احد صناديقه وسلبت منه هذا المال ؟

فأخبرهما برانكايل عند ذلك بكل ما اتفق له حتى إذا علمـــا الحقيقة أيقنا ان مهنة التنسك صالحة تفضل على مهنة اللصوصية ، واتفقوا على البقاء في القصر .

***

اما ساتان فانه لم يكد يرى الناس قد تفرقوا حتى أسرع الى الحبـــل المشنوق به ريدون فقطعه وأقبل الى الجلاد فأخبره ان الملكة تريد ان يدفن في موضع خاص .

فتردد الجلاد في البدء الى ان اقنعه ساتان بدهائه وبمـا بذله من المال ، ورضي ان يأذن له باخراج المشنوق بشرط ان يأتيه بأمر خاص من الملك .

فتركه ساتان وأسرع الى قصر الملكة فلم يعترضه رئيس الحراس .

وكانت الملكة جالسة في غرفتهـــا آمنة مطمئنة كأنه لم يحدث شيء مما جرى .

فعجب ساتان لثبات جأشها وفاجأته الملكة بقولها :

ماذا سقيت ريدون ؟

ـ سقيته اكسيراً يخفف عنه ألم النزع فيموت دون خوف .

ـ اهذا كل ما فعلته ؟

ـ نعم ، فقد خيل لي انه يسرك ان يموت رئيس حراسك دون ان تظهر عليه علائم الخوف .

وقد أطرق الإثنان هنيهة يفكران الى ان عاد ساتان الى الحديث فقال : إذن لقـد طرد الناسكان من القصر دون ان يتمكنا من تجريع الملك ذلك السم الذي اعددته .

وقد ساءني ذلك جداً لأني كنت أحب ان اعلم حقيقة تأثير هذا الشراب فانه كان يبتديء بجنون شديد يحدث في خلاله ..

فقاطعته ايزابو قائلة :

اسكت فان الملاك يحرسه .

تريدين ان تقولي اوديت دي شامديفر . نعم انها تحرسه وكان يجب ان تتوقعي ذلك وهي ستحرسه ايضاً ما زالت هناك .

فأطرقت هنيهة ثم قالت :

انها لا تحرسه بعد الآن لأنها ستموت .

ـ نعم فان الدوق دي بورجونيا أرسل اليها اربعة من فرسانه الشجعان فهربوا ..

ـ هو ذاك

ـ وقد ارسلت اليها النمرة فهربت ايضـاً .

فابتسمت ابتساماً غريباً وقالت : هذا أكيد ايضاً .

وكان في نيتك ان ترسلي ريدون ولكن ريدون مات .

نعم ، نعم ، هو ذاك ؟

ـ فاذا كان رجال الدوق قد هربوا ، واذا كانت النمرة رجعت مغلوبة ، واذا كان ريدون قد مات فمن يغلب هذه الفتاة الضعيفة ؟

ـ سأذهب اليها بنفسي .

ـ انك تذهبين اليها لتقتليها ؟

ـ دون شك أتحسب انها تنجو هذه المرة أيضاً ؟

ـ نعم .

فوقفت وقد هاج ثائرها فقبضت على ذراعه وقالت :

لا بد انك تعلم شيئاً جديداً .

ـ نعم يا سيدتي فان الصدفة ارسلتني الى قصر سانت بول لأخدم هذا المنكود ريدون آخر خدمة .. نعم يا سيدتي ، انك تخاطرين بذهابك الى اوديت وقد تفشلين ، فانها إذا كانت تتولى حماية الملك فلها ايضاً رجل يحميها ، وأظن ان هذا الرجل لا يغلب .

ــ من هو هذا الرجل أهو الدوق دي بورجونيا ؟

ــ كلا يا سيدتي فان هذا الرجل الذي اشير اليــه يريد الحضور الى قصر سانت بول ليرى اوديت ويسألها عن روزالي . ان هــذا الرجــل يا سيدتي يدعى الشفاليه دي باسافان .

فصاحت ايزابو صيحة فرح لم تخف على ساتان فقال لها :

انك تندهلين دون شك يا سيدتي ، فاني حين ذهبت بهــــذا الرجل الى منزلي وحاولت قتله بأمرك نجا ، وحين حبسته بالدهليز وقضيت عليه بالموت جوعاً نجا وهي لا ينجو منها أحد .

ــ ألعلك رأيته ؟

ــ نعم رأيته وعلمت انه سيحضر الى القصر ، فقد علمت ذلك منــه وهو سيحضر دون شك .

ــ ليرى اوديت ؟ ... حسناً فليحضر فانه لن يراهــا ... وإذا قدر له ان يراها فاني اكون هناك ، فليدافع عنها إذا استطاع وليمــد يده اليّ اذا تجاسر ..

فانحنى ساتان امام هذه الملكة التي بلغت آخر حدود التأثر فاختــلط في قلبها الحب والبغض والغضب والغيرة ، ثم قال لها :

أظن يا سيدتي اني خدمتك خدمة جليلة ارجو ان تكافئيني عليها .

فذهلت ايزابو لأن ساتان لم يسألها مكافأة الى الآن وقالت له :

ماذا تريد ؟

قال : اريد جوازاً استطيع الخروج به من القصر مــع رجل يصحبني وهو يحمل حملاً على ظهره .

ــ ليكن فاني لا أزال ملكة استطيــع إعطاءك مثل هذا الجواز ولكني اسيرة الآن ولا أعلم اذا كان الحراس يمتثلون لأوامري .

ــ ولكن يوجد لديك يا سيدتي أوامر لا كتابة فيها ممضية بامضــاء الملك ..

فارتعشت ايزابو ولو تجاسر غيره على ان يقول لها مثل هـــذا القول ويكشف مثل هذا السر لقضي عليه بالموت .

ولكن ساتان كان له ميزة عندها على الناس فذهبت الى إحدى الغرف وعادت اليه بذلك الجواز بعد ان كتبت عليه ما أراد .

فشكرها ساتان وانصرف فاسرع إلى الجلاد وأراه الأمر ثم نقده ما تيسر ولف ريدون بوشاح كبير وخرج من القصر محمولاً على ظهر الجلاد الى منزله في الجزيرة .

٦٠
كنز هردي

لندع الآن ساتان منهمكا بمعالجة ريدون ولنعد الى هردي وصديقه شاتليت فقد تركناهما ذاهبين الى افرايم اليهودي كي يبيعاه تلك الحلى التي جعلها الساحر مهرا لروزالي عملا بنصيحة شاتليت حتى اذا تحولت تلك الحلى الى اسماك يأكلها اليهودي وتبقى الدنانير لروزالي .

وقد ذهبا اليه وباعاه الحلى وعادا بالدنانير إلى الفندق فوضعاها في ذلك الصندوق الذي كان يختبيء فيه ليتبود عند خوفه وأقاما في ذلك الفندق الى المساء .

ولما اظلم الليل ذهبا الى قصر سانت بول وجعلا يرودان كل تلك الليلة على رجاء أن يجدا منفذاً يدخلان منه الى القصر فلم يهتديا .

وفي الليلة الثانية فعلا كما فعلا في الليلة السابقة .

حتى إذا يأسا من الدخول إلى القصر خطر لهردي ان يعود الى الدوقة دي أورليان ويسألها عن روزالي .

ووافقه شاتليت على ذلك فسافرا الى بيافون فعلما هناك ان الدوقة قد سافرت ولم يعلما إلى اين .

فعادا بعد سفر يومين الى الفندق وهردي قانط لا يعلم كيف يدخل الى قصر سانت بول ويرى اوديت.

وقد أرادا ان يتعزيا عن يأسها بالشراب فناديا ليتبود وطلبا اليه ان يأتيها بزجاجة من الخمر .

حتى إذا جاءهما بها أخذ هردي يمازحه فقال له .

انك لا تستطيع بعد الآن ان تختبيء في هذا الصندوق يا ليتبود .

قال : لماذا يا سيدي ؟

قال : لأني خبأت فيه سواك .

فدهش ليتبود وقال ، من عسى ان يكون ؟

قال : افتح الصندوق تره .

ففتح ليتبود الصندوق ولم يكد ينظر الى ما فيه حتى بهر نظره لما رآه من اكداس الذهب ووقف جامـــداً مبهوتاً لا يتكلم وهردي وشاتليت يضحكان عليه .

ثم ترك الصندوق مفتوحاً وخرج فجأة يركض كالمجانين وعاد بعد هنيهة بقائمة حساب هردي وقدمها له .

فضحك هردي وقال له :

لقد وعدتك ان ادفع لك ما علي حين اصبح من أهل الثروة .

فدق ليتبود يداً بيد وقال ، اية ثروة ترجوها بعد هذه الثروة ؟

قال : لقد اصبت يا ليتبود فهي ثروة عظيمة ولكنها ليست لي ومعاذ الله ان آخذ منها دينارا .

قال : ولكن حسابي ؟

قال : أما حسابك الحالي فان صديقي شاتليت يدفعه لك كل يوم واما

حسابك القديم فلا بد لك من الصبر فاذا لم يرضيك ذلك خرجت مع صديقي من فندقك الى فندق آخر .

فخاف ليتبود عاقبة هـــذا الوعيد فان شاتليت كان ينفق عن سعة وقال له :

كيف لا ارضى يا سيدي فلو امرتني ان أبيـــع فندقي في سبيلك لما ترددت لحظة .

والآن فاسمحا لي يا سيدي ان افهمكما الى أمر رابني وهو اني رأيت منذ ساعة فريقاً من البورجونيين يرودون حول الفندق واخاف ان يكونوا قد علما بأنكما فيه.

فاضطرب الاثنـــان وكان خوف هردي على مهر روزالي عظيما فكاشف صديقه بأمر خوفه فاقترح عليه شاتليت ان يذهبا بالمال الى منزله فيخبآنه فيه ثم يعودان الى الفندق .

فوافق هردي على هـــذا الاقتراح وكان ليتبود يسمع الحديث فقال له هردي .

انك إذا احضرت بغلاً في هذه الساعة ورجلاً اميناً يوصل هذا المال الى منزل صديقي دفعت لك حسابك وحسبته من النفقات التي لا بد منهـــا لصيانة المال .

فبرقت عينا ليتبود بأشعة السرور وقال :

سأحضر لك ما تريده في الحال .

ثم خرج من الغرفة مسرعاً بينما كان شاتليت وهردي يضعون المـــال في أكياس .

وبعد هنيهة عاد ليتبود وهو يلهث من التعب وقال :

ان البغل على الباب يا سيدي وقد عينت لقيادته رجلاً امينا من خدم الفندق .

فسر هردي بامتثاله واسراعه ودفـــع له حسابه ثم تعاونوا على نقل

الاكياس الى ظهر البغل وسار البغل يخفره هردي وشاتليت الى منزل شاتليت حتى إذا وصلا اليه ادخلا الاكياس الى المنزل واطلقا سراح الخادم وبغله دون ان ينتبها الى رجلين كانا واقفين قرب المنزل موقف الرقباء .

أما الرجلان فانهما حين رأيا شاتلت وهردي قد دخـلا الى المنزل همس احدهما بضع كلمات في إذن صاحبه فانصرف مسرعاً وبقي الآخر في موقفه يراقب الباب .

وقد اخذ شاتليت يرى صديقه هردي جميع ما احتواه منزله ويزور به جميع مخادعه من غرفة النوم الى قاعة الاستقبال المفروشة بأفخر الرياش الى قاعة السلاح التي علقت على جدرانها جميع الاسلحة التي كانت معروفة في ذلك العهد الى اقبيته التي خبـأ فيها الكنز أي مهر روزالي بحيث بقيا فيه مدة ساعة .

وبعد ذلك عزما على الرجوع الى الفندق فلما وصلا الى الباب الخارجي وحاولا فتحه وهو باب غليظ متين سمعا اصواتا من الخارج ثم سمعا صوتا ينتهر المارة ويقول :

ابتعدوا وانصرفوا في شؤونكم فتصبغ الارض بالدماء .

فقال شاتليت : هوذا صوت تونفيل .

وقال هردي : وأنا سمعت صوت غليوم .

وقد نظرا من ثقب الباب فرأيا جمهوراً كبيراً فعادا الى المنزل وحصنا ذلك الباب فوضعا وراءه المتاريس وصعدا الى غرفة ففتحا نافذتها واطل هردي منها فقال .

أظن أننا لا نستطيـع الدخول الى قصر سانت بول في هذه الليلة .

فأجابه صديقه قائلاً :

ولا غدا .

قال : ولا بعد غد بل لن ندخله الى الابد ولا يسوءني ايها الصديق إلا اني أوقفتك في هذا الموقف الحرج .

قال: بل انا الذي يجب ان استاء فأني أنا الذي سولت لك المجيء الى هنا.
ـ كفى نتحدث بأمور لا فائدة فيها ولننظر كم يبلغ عدد اعدائنا :
فأطل الاثنان من النافذة وجعلا ينظران فحيتهما اصوات اعـدائهما من تحت النافذة وصاح زعماؤهم قائلين .
سلموا فذلك خير لكم .
وقال تونفيل .
ان مولانا الدوق يريـــد ان يسلخ جلد هردي باسافان ليجعله غطاء لكرسيه .
فتولدت عند ذلك الشتائم من الفريقين وطبق صياح تونفيـل ووفاقه الفضاء فاصفر وجه شاتليت وقال :
لقد هلكنا فأنهم كثيرون .
فقال هردي ، انهم ثلاثة وعشرون وأنا ماهر في الحساب :
ـ اظنك مخطئاً ايها الصديق عددتهم ايضاً فوجدتهم ستين .
ـ نعم ولكن تونفيل وغليوم لا يحسبان لانهما سيموتان من يدي .
ـ اتظن ذلك ؟
ـ بل واني واثق كل الثقة .
ـ إذا كان ذلك فيكون الباقي ثمانية وخمسون ولا يزال الفرق بعيدا بين حسابي وحسابك .
ـ هو ذاك غير انه يجب ان تحسب حسابا آخر وهو اننا في أول هجوم سيقتل كل واحد منا ستة .
ـ فيكون المجموع اثنى عشر ويبقى ستة واربعون .
ـ لقد أصبت ونحن اثنان بحيث يجب على كل منا ان يلقي ثلاثة وعشرون
ـ أهذه هي مهارتك بالحساب ؟
ـ نعم فهل اخطأت وكما ان الواحد منا يعـــادل اثني عشرا من هؤلاء الاجلاف فتكون الارجحية لهم علينا .

ـ لتمت ايها الصديق فان الموت معك حياة .

ـ انظر انهم يحضرون جسرا فماذا يريدون ان يصنعوا به ، نعم لقد عرفت انهم يريدون ان يكسروا به الباب .

ـ أيكسرون مثل هذا الباب الجميل وقد كلفني .

ـ صبرا فستحسب بعد حين .

ثم نظر نظرة الى ما حواليه وقال :

اليس لديك جسر هنا ، كلا ، ولكن يجب ان نهدم هذه النافذة بسرعة.

وكانت هذه النافذة التي أراد هردي هدمها كائنة فوق الباب .

وقد اسرع شاتليت فذهب الي قاعة السلاح وعاد بفاسين .

فبينما كان تونفيل ورفاقه يكسرون الباب بالجسر كان هردي وشاتلت قد دمرا النافذة والقياها على الذين تحتهم .

فصاح شاتليت قائلاً :

أسفي على هذه النافذة فقد كلفتني .

فقاطعه هردي قائلاً :

صبراً ايها الصديق فستحسب الحساب كله متى تدمر المنزل .

اما النافذة فانها سقطت على المحاصرين فجرحت ستة منهم وصاح تونفيل يحمسهم فيقول:

اكسروا الباب .

وكانت النافذة بعـــد تهدمها قد فتحت مكانا متسعاً في الجدار فوق المحاصرين .

فبينما كانوا منهمكين بتكسير الباب ذهب هردي وشاتليت الى مائــدة ضخمة فحملاها والقياها من النافذة فقال :

هوذا خمسة لا يصلحون بعد الآن للقتال .

ـ نعم فقد سحقتهم المائدة .

ـ إذن لنتمم عملنا .

أما تونفيل فقد ذعر لما رآه إذ لم يكن يتوقع مثل هذا الدفاع فأمر بابعاد الجرحى عن ساحة القتال ثم جعل يحمس الآخرين فحمل اثني عشراً منهم الجسر فابتعدوا به قليلاً عن الباب ثم اطلقوه عليه بعنف شديد فارتجت جوانب المنزل وتكسر قسم من الباب وصاح الجنود صيحة نصر .

وعند ذلك كانت قد سدت النافذة بصندوق هائل من الحديد ثم سقط من تلك النافذة على الذين يحملون الجسر فأبلى فيهم بلاء عظيما وهشم اعضاء أربعة منهم .

غير أن اولئك المحاصرين لم يقنطوا لاسيا بعد ما رأوه من تكسير الباب فهجموا عليه بالفؤوس يتقدمهم تونفيل وغليوم وهم يعلمون ما سيلاقونه من الاخطار فكان ذلك جرأة منهم لم ينكرها عليهم هردي .

وقد تمكنوا من كسر الباب غير أن المتاريس كانت من ورائه فاستقبلهم هردي وشاتليت من أعلى السلم بالكراسي الغليظة كانا يلقيانها على رؤوسهم فتحطمها بحيث اضطروا الى الانسحاب والوقوف خارج الباب .

فقال هردي : لقد رددنا الهجوم .

وقال شاتليت : لقد بدأت ان أظن .

فقاطعه هردي قائلاً ؟

لا تتسرع بالظنون .

ثم تركه وذهب الى النافذة وكان العرق يسيل من جبينه وقد اتقدت عيناه واصفر وجهه وابتسم ابتساماً هائلاً يهول من يراه :

فلما ظهر لهم من النافذة استقبلوه بالشتائم والاهانات .

فلم يحفل بهم هردي بل أشار اليهم بيده وقال بصوت جهوري .

اين انتما يا تونفيل وغليوم .

فقال له تونفيل :

ماذا فعلت بكلين ؟

وقال له غليوم .

ماذا صنعت بكورقيز ؟

ـ اني فعلت بها ما سأفعله بكما إذ لا بد لكما ان تموتا من يدي .

والآن فاني مقترح عليكما اقتراحاً أرجو أن توافقاني عليه وهو أني سأنزل اليكما بشرط ان يقسم هؤلاء الشجعان الذين يصحبونكما على ان لا يحملا علي وعند ذلك اقاتلكما معاً .

فقال شاتليت :

اني أوافقك على ذلك فاني أريد نصيبي من القتال :

فقال له هردي بصوت ذعره ، اسكت .

ثم التفت الى الاثنين وقال لهم :

انكما ستموتان من يدي وسأحمل عليكما معاً .

فقال له غليوم .

أيها الكلب الكَلِب أتحسب أنك لا تغلب انزل وسوف ترى ما يحل بك

وقال له تونفيل :

انزل ويحك لاسحقك سحقاً .

فقال هردي :

نعم اني سأنزل ولكن بشرط ان اقاتلكما معاً فان الارجحية تكون لكما بذلك فتقتلاني فهل ترضيان .

انكما إذا رضيتما انقذتما بعض اولئك البواسل من الموت .

وانتم أيها الجنود اصغوا الي. اننا نستطيع الحصار عدة أيام إذ لدينا كثير من القوت .

ثم يوجد ابواب أخرى يجب عليكم اغتصابها فان هذا البيت مؤلف من طابقين .

فتمعنوا في الخطر المحدق بكم واقنعوا قوادكم على القبول بمطالبي .

أما إذا رفضتم فاني أعدكم بواسل قضى عليكم ان تموتوا سحقاً فأما قائداكم فأني أعدهما جبانين .

وقد خسرت كلمة جبان في هذا الزمن معناها ، أما في ذلك العهد فقد كانت اهانة لا تحتملها النفس مهما صغرت .

ولذلك لم يكد هردي يقولها حتى جعـل تونفيل ينتف شعره من القهر وهاج غليوم هياج المجانين فهجم على المتاريس يريد إزالتها بكتفه .

وقد ابتعد هردي من النافذة وسادة السكينة واختلط الجنود بقائديهما يتداولون بشأن اقتراح هردي .

أما شاتليت فانه دنا من هردي وقال له :

اتحسب اني أدعك تنزل وحدك ؟

ـ دون شك اذا رضيا باقتراحي فهذا هو الرجاء الوحيد الذي بقي لي للوفاء بقسمي الذي حلفته عند جثة الدوق دي أورليان .

ـ ولكنهما يقتلانك لا محالة فانهما بطلان بحريان .

ـ اسكت فاني سأقتلهما ، الا ترى اننـــا لا نزال سالمين ، ومتى قتلت القائدين لا يجسر الجنود على مقاتلتنا .

وفوق ذلك فانهما إذا قتلاني يبقى لك رجاء الأخذ بثأرى فتنزل اليهما كما نزلت .

اصغ انهم ينادونني .

ثم تركه وأسرع الى النافذة فرأى ان الجنود قد اصطفت بشكل هلال وابتعد تونفيل وغليوم عنهما وجرد كل منهما حسامه فقال تونفيل .

لقد رضينا باقتراحك .

وقال غليوم

على ان تقاتلنا الواحد بعد الآخر .

فقال هردي

ان ذلك كرم منكما لا أقبله فأما اقاتلكما معاً أو لا أنزل .

فاصفر وجه تونفيل وقال :

حسنا فانزل

فنزل هردي يتبعه شاتليت حتى وصلا الى المتاريس فازالا منها ما يكفي لمرور رجل .

انك إذا خرجت معي حسبوا ذلك حيلة ما فتقبض الجنود علينـا ولا قبل لنا بقتال هذه الجموع .

ـ لقد اصبت فاذهب وليأخذ الله بيدك .

وعند ذلك تعانق الصديقان وأسرع شاتليت إلى النافذة كي يتفرج على القتال .

أما هردي فأنه خرج من الباب وجرد حسامه وحيى خصمه :

فتنهد تونفيل تنهد المتفرج وقال :

لقد ظفرنا بك أخيراً .

وقد أشار إشارة إلى الجنود فاقترب بعضهم من بعض بسرعة حتى أصبح شكلهم الهلالي شكل دائرة وبات هردي في وسطها يحدق به الجنود من كل جانب .

وهنا لا بد لنـا من القول ان بعض هؤلاء الجنود أبروا بيمينهم ولزموا الحياد ولكنهم عوقبوا بعد ذلك بالشنق جزاء وبائهم .

أما شاتليت فانه حين رأى ذلك من النافذة صاح قائلاً :

يا للخيانة ، احذر يا هردي .

ثم اندفع الى السلم وقد هاج هياج المجانين .

ولكنه حين وصل الى الشارع وجد صديقه مغلول اليدين والرجلين محمولا على اكتاف ستة رجال والجنود محيطون به وتونفيل وغليوم يتقدمانهم الى قصر سانت بول .

فأصيب شاتليت بعارض جنون وجرد حسامه فهجم يحاول انقاذ صديقه وشتم تونفيل وغليوم وجميع البورجونيين أقبح شتم .

وقد انقض علي مؤخرة الجنود فلم يقاتلوه بل اكتفوا بصده بالحراب ولم

يجرحوه بل جرح بعضهم ولم يلتفت تونفيل وغيلوم لشدة فرحهما بالقبض على هردي .

وما زالوا على ذلك إلى ان وصلوا الى قصر سانت بول وفتح الباب ودخلوا بهردي وحاول شاتليت ان يدخل ولكن صدوه الحراس فعاد كئيباً حزيناً قانطاً إلى فندق ليتبود وهو يقسم ان ينتقم من الدوق دي بورجونيا شر انتقام .

ولكن كل ذلك لم يمنعه من ان يأكل بشهية .

وكان يأكل في القاعة العمومية فذعر ليتبود لاضطراب وجهه وقال له :

ألا ترى من الحكمة يا مولاي ان تأكل في غرفتك الخاصة ؟

لماذا ؟

قال : ألم تقل لي ان البورجونيين يكنون لك ؟

فقال وهو يحرق أسنانه من الغيظ .

نعم ولكنهم لم يريدو قتلي .

قال حبذا لو سمعت هذا القول أيضاً من الشفاليه دي باسافان .

كلا فانهم لا يريدون سواه

ـ كيف ذلك يا سيدي ؟

فصب شاتليت كاس خمر وقال بلهجة تبين اليأس منها .

أنه الآن أسير في قصر سانت بول .

فاصفر وجه ليتبود واضطرب ولعل اضطرابه كان لخوفه من فقد مثل هذا الزبون .

أما شاتليت فانه جعل يشرب الكأس تلو الكأس ويقول :

أواه أني أهب عشرة أعوام من عمري لمن يستطيع ادخالي الى قصر سانت بول : .

وكان أحد الشاربين جالساً بجانبه فسمع قوله وقال :

انك اذا منحتني يا سيدي عشرةريالات من مالك بدلا من عشرة أعوام من عمرك أرشدتك الى طريقة الدخول .

قال : بل اعطيك عشرة دنانير .

ثم تفرس به ملياً وقال :

أأنت هو الذي يريد إدخالي إلى قصر سانت بول ؟

قال : كلا ولكني أعرف رجلاً لا يرفض ان يساعدني ويسهل لك سبيل الدخول اليه لاسيا حين يعلم بأنك تكافئني .

فنهض شاتليت وقال هلم بنا .

قال : بل تدفع لي المال مقدماً .

فبحث شاتليت في كيسه فلم يجد غير عشرة دنانير فدفعها اليه وهو يتنهد ويقول في نفسه .

هذا كل ما بقي لي ولكن لا بأس فسأفيدها على حساب مهر روزالي .

ثم خرج الاثنان من الفندق حتى إذا بلغا الشارع قال له شاتليت :

الى اين أنت ذاهب بي ؟

— الى الجزيرة .

— من انت وماذا تصنع !

فابتسم الرجل ابتساماً غريباً وقال له وهو يمشي .

لا أعلم من اين أتيت ولا من أنا وإذا كان لي اسم فقد نسيته أمـا الذي أعلمه فاني أخاطر بنفسي في سبيل كسب دريهات اعيش بها .

— مثال ذلك .

— مثال ذلك اني اصبر الى ان يهجم الليل فاذهب الى ساحة الاعـدام فاسرق من يشنقونه واجيء به الى رجل الجزيرة .

ولا ادري ما يصنع به بل لا أريد أن أعلم فأنه ينقدني خير أجرة وبذلك فرق الكفاية .

فظهر القلق على وجه شاتليت وقال رجل : الجزيرة ؟

ـ نعم وهو الرجل الذي سنذهب اليه الآن فانه هو وحده الذي يستطيع ادخالك إلى قصر سانت بول .

ـ وإذا ابي ؟

ـ لا خوف من ذلك فاني لم اكسب شيئاً منذ يومين وهو يخشى كثيراً من الوشاية به إلى القضاة وقد وصلنا .

ـ اهنا ؟

ـ نعم ألم تسمع باسم ساتان ؟

ـ ساتان الساحر ؟

وقد ذكر انه انتظر هردي منذ بضعة ايام عند باب هذا المنزل وذكر ما أخبره به هردي عنه فقال :

نعم انه هو الذي يدخلني الى القصر .

٦١

التأهب للقتـال

كان الدوق دي بورجونيا ينتظر في قصر سانت بول عند الباب الأكبر.

وكان قد أصدر أمره ان يأتوا بهردي الى ذلك المكان لوثوقه هذه المرة من القبض عليه .

وذلك لأن رجاله كانوا يراقبون هردي من بضعة أيام وفي طليعتهم تونفيل وغليوم .

وكان قد أتيا الى الدوق وأخبراه أنهم سيقبضون على هردي بالنهـار فأمرهما ان يأتيا به الى ذلك المكان الذي كان ينتظر فيه وهو يرى أنه سينال باسره ثروة ومجداً وسلطاناً بل أنه سيضمن حياته .

ولا بد لنا من ايضاح ذلك بالايجاز فيقول :

ان الدوق كان متأهباً لكل طارىء فقد خيل له أن الملكة خسرت سلطتها ورأى ان حزب الكونت دي أرمانياك يعملون ضده في بلاط الملك بالسر وبالعلن وانهم يهمسون في الأذان بأنه هو قاتل الدوق دي أورليان وان البراهين على هذه التهمة قد تكاثرت بحيث لم يبق له بد من العمل .

فكان حين يخطر له هردي يقول :

اني إذا قبضت على هذا الرجل أعدمه بتهمة قتله الدوق دي اورليان فتثبت براءتي كل الثبوت .

وإذا قبضت على هردي عادت الي الملكة وعادت ثقتها بي لأني انا الرجل الوحيد الذي يستطيع نفعها كما تتوهم.

وإذا قبضت على هردي ودفعته الى القضاة وثق بي الملك كل الثقة .

وإذا مات هردي عادت أوديت الي .

وقد طال تأمله عند ذلك ثم قال :

ان الساحر قد وفى بعهده فان هذه الفتاة كانت تكرهني كرهاً عظيماً أما الآن فانها تنظر الي نظرات حنو واشفاق .

ولكن لماذا لا يتحقق وعده الأخير وما علي إلا أن أقول لاوديت .

« اني اعرف من انت » .

وعند ذلك تتبعني ولكن لماذا لم أقل لها هذه الجملة الآن بل لماذا اضطرب لنظرات هذه الفتاة ؟

وكان الناس يمرون في تلك الساعة فبعضهم يحبونه دون اكتراث وهم أعوان الدوق دي بيري وبعضهم ينظرون اليه شذرا وهم رجال الكونت دي أرمنياك .

وكان معظم رجاله والذين ينتسبون اليه مقيمين في قصر دي بورجونيا ينتظرون صدور الأمر اليهم .

أما هو فكان واقفاً يتأمل قصر الملك ولكن عينيه كانتا شاخصتين الى نوافذ القاعات التي تقيم فيها أوديت .

وفيما هو على ذلك سمع حساً من ورائه انتبه اليه فالتفت فرأى انهم قادمون اليه بهردي محمولاً على الأكتاف .

وقد فرح فرحاً عظيما ووقف ينتظر وصولهم بالأسير .

أما هردي فانه حين دخلوا به مقيد اليدين والرجلين الى قصر سانت بول كثر عليه ذلك فتنهد وقال في نفسه متهكماً على نفسه .

ما زلت ابحث عن طريقة ادخل بها الى قصر سانت بول حتى يسرت لي الاقدار الدخول اليه محمولاً على اعناق الرجال .

وقد وضعوه أمام الدوق وفكوا قيوده فتمطى وابتسم ونظر الى تونفيل وغليوم وقال :

لا تنسيا ان كين وكورتيز ينتظرانكما .

فهز الاثنان كتفيهما ودنا غليوم من الدوق فقال له :

هوذا الرجل يا مولاي قبضنا عليه وهو في حالة التمرد .

وكان هردي واقفاً امام الدوق والجنود محيطون به فنظر اليه الدوق نظرة احتقار وقال له :

أأنت هو قاتل كين ؟

ــ نعم بطعنة واحدة بقلبه ولكنه مات موت الشجعان .

ــ أأنت قاتل كورتيز ؟

ــ بطعنة واحدة وقد مات ايضاً موت الشجعان .

اما هذان الرجلان وقد أشار الى تونفيل وغليوم فانهما سيموتان ايضا بطعنة واحدة كما مات رفيقاهما ولكنهما يموتان موت الجبناء .

فاصطكت اسنانهما من الغيظ وحاولا الهجوم عليه فانتهرهما الدوق قائلا :

الى الوراء .

ثم التفت الى هردي وقال له :

أأنت قاتل ابن عمنا العزيز الدوق دي أورليان ؟

فدنا عند ذلك هردي من الدوق وجعل يكلمه بصوت منخفض فرأى الناس ان وجه الدوق قد اصفر وان يديه تضطربان .

أما هردي فانه قال له ما يأتي :

اني قتلت كين أمام منزل باسفان حين جاء اليه برجاله ليقتلوني .

وقتلت كورتير في الدهاليز التي أتيت اليها لتأتمر فيها على قتل ابن عمك ومولاك الملك .

لا تخف ولا تضطرب فاني لا أشي بك وأما الدوق دي أورليان الذي أردت ان تدفعني الى قتله فأبيت فأنت هو قاتله.

واني لا اذكر هؤلاء الرجال الذي طعنوه تلك الطعنات الأثيمة إذ لم يكونوا غير آلة في يدك لتنفيذ القتل .

قلت لك لا تخف ولا تضطرب فلا اشي بك .

ولكن احذر فاني كما قتلت كين وكورتيز بطعنة في القلب استطيع قتلك انت بطعنة أشد ، لأنه يوجد شاهد ، وأنا هو هذا الشاهد على ما فعلته قديماً .

فصاح الدوق مغضباً قائلاً :

خذوه .

فقال تونفيل ، الى اين يا مولاي ؟

فقهقه هردي ضاحكا وقال :

الى المكان الذي حبست فيه ذلك الشاهد منذ اثني عشر عاماً أي الى سجن هيدون .

فوافق الدوق على قوله باشارة من رأسه .

وعند ذلك أحاط بهردي عشرون حارساً فسار بينهم طائعاً دون مقاومة وهو يقول في نفسه :

لم يبق لدي ريب اني انا ذلك الشاهد ولكني لا أعلم والله على أي أمر شهدت .

وبعد هنيهة كان سجيناً في إحدى تلك الغرف الكائنة تحت الأرض في ذلك السجن الذي قال له السجان عنه مرة :

ان من يدخل الى هنا لا يخرج .

أما الدوق فانه شيعه بالنظر حتى توارى ، فأطرق مفكراً، وجعل يقول في نفسه :

الشاهد .. ان الساحر انذرني مرة .. إذن يوجد شاهد على ما فعلته منذ اثني عشر عاماً في منزل ساتان .

نعم ، اني امضيت عقد زواج وأنا زوج مرغريت دي هينوت وهو إثم فظيع يعاقبون عليه عندنا عقاباً أفظع .

انهم يقطعون لسان من يرتكب هذه الجناية ، ويقطعون يده اليمنى ، ثم يحرقونه بالنار .

وعند ذلك ضحك ضحكاً عصبياً وقال :

نعم ، يوجد شاهد ولكن من يصدق شهادة قاتل سفاك على رجل مثل الدوق دي بورجونيا .

وبعد فأين هي الأوراق التي أمضيتها وعقد الزواج الذي عقدته والعقد الذي وقعت عليه لورانس دي ابزيم .

ان هذه الأوراق أحرقتها بيدي ، والشاهد سيموت ، أما لورانس دي ابزيم ..

وهنا توقف عن مناجاة نفسه ، وقد جحظت عيناه رعباً لهذه الذكرى وجعل العرق البارد يقطر من جبينه ، فقال :

هنا .. قرب هذا الباب الكبير .. هنا ، رأيت تلك المرأة ، أو رأيت خيالها ..

هناك أمرت رجالي باقتفاء أثرها والقبض عليها فعادوا بخفي حنين ، وقد توارت عن أنظارهم .

ولكن ما هذا الجنون وما هذه التصورات المقلقة بعد ان ادركت بغيتي واصبحت السيد المطلق .

فلأدع التصورات ولأبذل جهداً يسيراً فأقبض على الصولجان وأجلس على العرش .

ان كابوش ينتظر صدور أمري ليهب برجال الشعب ورجالي متأهبون لكل طارىء وبراسكايل وبرانكايل وبراكايل سيقتلون الجنون .

فلندع الشيطان الجاري الذي يدعونه لورانس ولنذهب الى ذلك الشيطان الحقيقي الذي يدعونه ايزابو .

* * *

كانت الملكة تعلم في كل لحظة كل ما يجري في قصر سانت بول اذ كان لديها جيش من الجواسيس .

ولذلك فقد علمت بالقبض على هاردي ساعة دخلوا به القصر .

وكان اضطرابها عظيما حين علمت هذا النبأ ولكن لم يعلم احد سبب هذا الاضطراب .

وقد استقبلت الدوق دي بورجونيا في القاعة الكبرى ، وهي بين فريق من النبلاء وبين نسائها ، فقالت له:

انك ترى، أيها الدوق، كيف اننا نغتنم فرصة اماننا التام بعد ان تفضل جلالة الملك الكريم واقام حراسه على جميع أبوابي .

فاقتدِ بنا ، أيها الدوق ، والعب معنا بالورق .

ثم التفتت الى أحد النبلاء الذي كان يلاعبها بالورق وقالت له :

احذر يا دي بيزو فان « الروا » الملك بيدي .

فانحنى الدوق امامها بملء الاحترام وقال :

التمس من جلالتك المعذرة ، اذ لدي اليوم العاب أخرى .

وكان النبلاء والنبيلات ، على اهتمامهم باللعب ، يصغون إصغاء تاماً الى الحديث .

قالت : بل انك تلاعبنا .

وقالت له إحدى السيدات الجميلات وكانت ضد الملكة في اللعب .

أتريد ان تكون شريكي يا سيدي الدوق؟

فأخذ الدوق كيسه وافرغ كل ما فيه امام تلك السيدة .

فاعترضت الملكة وقالت بلهجة خطيرة :

بل يجب ان تكون شريكي يا ابن عمي الجميل .

وكان كيس الدوق قد فرغ من النقود ، فأخرج من عنقه السلسلة التي كان يلبسها ، وهي مرصعة بأثمن الجواهر ووضعها الى الجهة التي كانت تراهن فيها الملكة .

فضج الحضور ، وابتسمت الملكة ، واخذت تلك السلسلة فلبستها في عنقها .

وقد فعلت ذلك بجرأة عجيبة ، اضطرب لها الدوق ، واصفرت وجوه الحاضرين .

وقد وقفت الملكة بعد ان لبست السلسلة فوقف الجميع لوقوفها ، وانحنى الدوق وقال :

يسؤني ، يا سيدتي ، ان ازعج جلالتك فقد أتيت لألتمس مقابلة خاصة اذ حدثت حوادث تتعلق براحة جلالة الملك.

فنظرت الملكة الى الحضور نظرة كانت كافية فتفرقوا .

وبعد هنيهة كانت الملكة مختلية مع الدوق فقالت له :

اني مصغية اليك .

فوضع الدوق يده على جبينه ، كأنه يريد ان يطرد افكاراً مزعجة وقال :

أيتهـا الملكة ان الساعة تقترب فان رجال الشعب يجتمعون في الشوارع ينتظرون ان يسمعوا كلمة (ليحيى الدوق دي بورجونيا) .

ولدينا اثنا عشر الف مقاتل واثنا عشر سيداً باتباعهم بحيث استطيع في ليلة واحدة ان ابيد اعداءك واعدائي .

قالت : اني أعرف ذلك ، يا ابن عمي العزيز ، فأتم حديثك .

قال : ان أولئك الرجـال الثلاثة الذين ألبستهم ملابس النساك وأقمتهم عند الملك يعملون لأول إشارة تصدر اليهم .

وقــد لقيت اليوم زعيمهم براسكايل فاعلمي ، يا سيدتي ، ان الملك قد قضي عليه القضاء المبرم وانك تصبحين أرملة حين تشائين ، وذلك يحدث مع الأرمالوكيين في حين واحد .

ـ أمض في حديثك فاني أعرف كل هذا .

فاقترب الدوق منها وقال لها بصوت يشبه الهمس :

ان قاتل الدوق دي أورليان قد قبض عليه رجالي، وعرف جميع الناس ذلك لأنهم كانوا يلبسون شارتي .

أزيد انه لا يستطيع احد ان يتهمنا بعد الآن .

وانمـــا فعلت ذلك كي أنال ثقة الشعب ، وثقة رجال البلاط ، وقد ظفرت بهما .

وعلى ذلك فاني سأصدر أمر القتال بنفس اليوم الذي يقطع فيـه رأس قاتل الدوق فمتى سقط ذلك الرأس بفأس الجلاد أجاب ذلك الصوت أصوات الأجراس في جميع باريس .

فسكتت الملكة هذه المرة ولم تقل شيئاً ، وجعل الدوق يتمعن فيوجهها وينظر اليها نظرات الفاحص ، فلم يتبين فيه شيئاً فقال :

وعلى ذلك فان شعب باريس لا يسأل بعـــد اليوم عن قاتل الدوق دي أورليان وسيطمئن بال الشعب وبالي وبالك بقتل هذا الرجل فانه ..

فقاطعته الملكة قائلة :

وأوديت دي شامديفر ماذا تصنع بها ؟

فتنهد الدوق تنهداً عميقاً وقد ذعر ذعراً عظيماً فان جميع قوات ايزابو قد تمثلت بهذه الجملة التي لفظتها .

وقد فاجأته بها كي لا تدع له مجالاً لاتهامها بحب هاردي فسبقته الى الاتهام بحيث باتت شاكية لا مشكوة .

أما الدوق فقد تلعثم لسانه وقال :

أوديت دي شامديفر ؟

قالت : نعم ، فان كل أمورنا موصولة بهذه الفتاة .. أعلمت ما اريد ؟

انك خنتني حين عقـــدنا الاتفاق .. انك قتلت بالأمس ابن عمك الدوق دي أورليـــان ، وستقتل غداً الملك ، ملك فرنسا .. انك أثرت والتمست السلطة من جميع وجوهها وعزمت على ان تنال الصولجان منغمساً بالدم ، ذلك الصولجان الذي اقدمه لك أيها المخادع الذي يتلبس امامي بلباس الحب فيظهر بمظهر العاشق المفتون ، وهو يحب سواي ، ويعطيني النظرات ويعطي سواي القلب .

نعم ، اني قلت لك وأقول أيضاً اما ان تكون لي وحـــدي يجعلتك أو أتخلى عنك .

انك تريد ان تتكلم ولكن دعني أنا اتكلم فأكشف لك ما ستفعل لأني أقرأ ما يجول في قلبك ، كما أقرأ السطور في كتاب مفتوح فاسمع :

انك خنتني خيانات لا تذكر في جانب الخيانة الكبرى التي تعـــدها لي .

وذلك انك بعـــد ان تقتل الملك وبعد ان تموت إمرأتك مرغريت بالسم أو بالحزن وبعد ان تبيد حرب أرمانياك وتخضع الشعب وبعد ان تقبض يدك الدموية على أزمة الملك ماذا يكون مصير أوديت دي شامديفر ؟

وماذا يكون مصير ايزابو الأرملة ؟

لا تقل شيئاً فأنا سأقول عنك .

ان تلك الماكرة التي جعلتني أسيرة بمكرها وخداعها تعطيها التاج، واما

أنا فانك تمطيني تلك الكأس التي قـدمتها الى لورانس دي ابزيم ، عشيقتك القديمة ، فأبت ان تشربها .

أرأيت ، يا جان دي بورجـونيا ، كيف اني ابسط لك افكاري بهذا الوضوح الجلي .

اني لو كنت اريد خـــداعك لكتمت عنك ما يخالج قلبي من الريب باخلاصك وتركتك تحسبني منخدعة فيك .

ولكني مخلصة لك فأقول لك الحقيقة بجملتها ولو كان فيها قتلي وقتلك.

واسمع الآن إرادتي الأخيرة ، أيها الدوق :

اني أريد قبل ان يمس الملك بسوء وقبل انتدق الأجراس القاضية بذبح الأرمانوكيين وقبـل ان يشرق نور مجدك وقبل ان يقتل سجين الهيدرون ، اني أريد قبل ذلك ان اكون واثقة من إخلاصك لي .

واني لا أريد إيـاناً ولا عهوداً مكتوبة كذلك العهـد الذي عقدته مع كابوش في الدهليز ، بل أريد عهداً واحداً وهو قتل تلك التي تحبها .

واعلم يا دوق انه ما زالت هذه الفتاة في قيد الحياة فأنا من ألد اعدائك اقفو خطواتك وأراقب امورك وأشي بك واسلمك الى الجلاد حين تمد يدك القبض على الصولجان ، وتلبس الاغـلال في عنقك حين تتأهب لوضع التاج على رأسك .

واذا ماتت أوديت كنت عشيقتك وزوجتك وملكتك والقريحة التي تقود اعمالك وقائدتك الى مجد عظيم .

أيها الدوق لقد فرغت من كلامي فتكلم الآن .

وقـد كان ذهول الدوق عظيماً فانه كان يصغي الى كلامها ويسمع نبراتها وهي لا تدل على شيء من الوعيد بل كانت أميل الى الرفق .

ويرى من عينيها ان عزيمتها ثابتة لا تغيرها قوة في الوجود ، وينظر الى صدرها يخفق حينتذكر الاخلاص بالحب فيضطرب وتهيج شجونه ولا يتمثل له غير جمال ايزابو .

أما ايزابو فقد رأته مضطرباً امامها فلم تبتسم ابتسام المنتصر بل ابتسمت بتسام يشف عن حزن وانهضت الدوق وقد ركع امامها .

فلما وقفا وجهاً لوجه رأت تلك الداهية من عينيه انه قتل كل من في الوجود في سبيلها .

وقد سكتت اذ قالت ما تريد قوله وصبرت لتسمع جواب الدوق .

أما الدوق فانه قال لها بعد ان سكن إضطرابه :

لقد صحت عزيمتي على أمر سأقوله لك .

ولكنه كان كاذباً في ما قاله فانه لم يكن يستطع ان يبت امراً جازماً .

ومع ذلك فان ايزابو قد حلت في قلبه فقاله بصوت خافت : ان أوديت دي شامديفر..

ثم سكت وقد اضطرب إضطراباً عظيما وتنازعت المرأتان في قلبه فحاول ان يقول لايزابو:

اني سأنقذ أوديت بيدي .

ولكنه ذكر حاجته الى الملكة وحرج موقفه واثرت نظراتها عليه تأثيراً كاد يذهب برشده فقال :

لتمت أوديت ، ما زلت تريدين ان تموت ؟

وقد انتصر جمال ايزابو ورأته الملكة واقفاً امامها وعيناه تتقدان حباً، فوقع في نفسها اجمل وقع وهمت ان تفتح له ذراعيها .

ولكنها تراجعت وقد تمثل لها رجل لم تكن تحبه هـذا الحب قبل الآن فكان هذا الرجل هاردي دي باسافان .

وكذلك الدوق فانه ما لبث إن أذن بموت اوديت حتى تراجع منذعراً كأنما خيالها قد تمثل له وقال في نفسه :

ويح لي مما قلت ، أأنا اقتل اوديت وأقضي عليها بالموت ؟

وكأنما الملكة قد ادركت ما يجول في نفسه فقالت له :

إحذر مما قلته يا دوق فقد قلت لتمت اوديت واعلم اني لا اسألك من التعهدات غير موتها .

قال : اني أعيد ما قلته فلتمت ... نعم فلتمت فليست هي التي أحبها بل أنت .

نعم اني احبك منذ اعوام وكل ما حاولت ان اوهم نفسي بأني لا أحبك لا يلبث قلبي ان يكذبني فأعلم اني منخدع مغرور .

نعم اني اسائل نفسي الى اين اسير فلا اعلم ولكني اعلم اني سائر الى الى حيث تدفعينني وان قوتي ستكون عظيمة بإنضمامها الى قوتك وان مجدي هو جمالك ولا أحفل بما بقي .

نعم اني توهمت بأني أحب هذه الفتاة ولكن ذلك لم يكن إلا وهم ، فلتعش اذا كنت تريدين لها الحياة ولتمت إذا كان موتها يرضيك .

فلا يهمني في هذا الوجود غير حياة ايزابو دي بافيير لأن حياتها حياتي.

وكان بوسعه ان يجول كثيراً في ميدان هذه الأكاذيب فانه ميدان فسيح غير ان ايزابو قاطعته قائلة :

كفى يا دوق ، فلا تقل مزيداً وأتم معداتك الأخيرة ، فاذا كنت لي فأنا لك ومتى كان ذلك فلا يوجد قوة في الوجود تحول دون المحادثة .

إذهب واعلم انك لا تظفر بالتاج إلا متى ظفرت بإيزابو .

وبعد هنيهة افترقا فكان الدوق يقول في نفسه :

يجب ان تتبعني اوديت الى قصري .

وكانت ايزابو تقول في نفسها :

سأذهب هذه الليلة الى سجن هاردي ... ولكن الدوق قد يكون مخلصاً في اقواله ... على اني لا ابالي به فسواء أراد إنقاذها او تخلى عنها فانها ستموت .

ولما خرج الدوق من قصر الملكة ذهب تواً الى قصر الملك ، فانه لم يكد يخرج من عندها حتى أحيى في نفسه جمال ايزابو وخطر له خاطر غريب في

تلك الساعة وهو انه اذا حالت الملكة دون إنقاذ اوديت قتل تلك الملكة كما انه سيقتل الملك .

فلما وصل الى قاعات الملك علم انه مختل مع النساك الثلاثة .

ولكنه لم يكن من اولئك الذين يقفوا على الأبواب ، فانه دخـــل الى القاعــة ورأى برسكايل وبرنكايل منهمكين باخراج الشيطان من الملك على الطريقة التي تقدم انا وصفها .

اما الثلاثة فانهم حين رأوا مولاهم ارتعدوا فقال براسكايل في نفسه : ترى أدنت الساعة الرهيبة ؟

غير ان الدوق لم يشر اليهم بشيء ، ودنا من الملك فانحنى امامه ، فقال له الملك :

انظر الى هؤلاء الثلاثة يا ابن عمي فانهم سيشفونني دون شك وينقذون حياتي ، أتدري بماذا ؟

قال : بالصلاة دون شك .

قال : كلا بل بالضحك ، ولا سيما هذا الضخم المدعو برنكايل .

فمشى الدوق اليهم وقال لهم بصوت منخفض :

انكم تقضون مهمتكم كما ينبغي ، فثابروا عليها .

ثم قال بصوت مرتفع :

نعم ، ثابروا على الصلاة لجلالة الملك ، وغداً سأرسل هدية الى كل منكم .

فقال له برسكايل همساً :

إذن يجب ان نثابر على إضحاك جلالته ؟

ــ نعم ، إلى ان تأتي ساعته ، فكونوا متأهبين .

ــ اننا على ما تريد .

فعاد الدوق الى الملك وقال له :

ان هؤلاء النساك يا سيدي جديرون بثقتك ، فقد طالما سمعت أحاديث غريبة عن زهدهم ، ولا شك ان صلاتهم ستشفيك .

قال : كلا ، فقد قلت لك انهم سيشفونني بالضحك ، ويظهر انك لم تعرفهم ، اما انا فقد عرفتهم حق العرفان ، وكذلك مدير أقبية الخمر ، فان الواحد منهم قد يشرب برميلا .

ولكن تكلم ايها الدوق بما أتيت لأجله ، فاني أرى من هيئتك انك قادم اليّ لمخابرتي بشؤون المملكة .

ثم التفت الى برانكايل وقال له :

تعال انت فانك لا تزعجنا ولا نكتم عنك امراً ، فقد عينتك مستشاري

فتقدم برنكايل وهو ينظر نظرات خوف الى الدوق ، فقال له الملك :

ما بالك تقدم رجلاً وتؤخر اخرى فاني اريــد ان تكون مستشاري ، والآن تكلم ايها الدوق .

فقال الدوق : اني قادم اليك يا مولاي بنبأ سار .

فقال المجنون : لنسمع هذا الخبر السار ، ألعل الملكة عادت الى حب زوجها واحترامه شأن من تريد ان تكون محترمة من النساء ؟

ام لعل اولئك الأسياد كفوا عن المؤامرة على مولاهم الملك فلم يعد يخطر لهم قتلي وتعيين ملك مكاني .

قبح الله اولئك المجانين فان لهم ملكاً يدعهم يحيون ولكنهم يريدون ملكاً .. قل ما هذا النبأ .

– مولاي ، ان قاتل ابن عمي العزيز الدوق اورليان قد قبض عليه .

أحق ما تقول .. أقبضوا على القاتل ؟

نعم يا مولاي وهو في سجن هيدرون .

فأطرق الملك هنيهة مفكراً ثم قال :

نعم انه خبر سار كما تقول ، على ان أخي لم يكن يحبني وكان صديق اعدائي ولكنه لم يثبت . انه كان يأتمر عليّ ويريد موتي وهذا كاف لتوطيد دعائم الأخاء .

وعلى ذلك فاني افرح بالقبض على قاتله ورجائي اليك ايهـــا الدوق ان تراقب محاكمته وتسرعوا بها .

ـ سينتهي كل شيء يا مولاي بعد ثلاثة ايام .

ـ ثلاثة ايام ؟ ذلك قليـــل ، فان القضـــايا تطول عادة اكثر من ذلك ، ولكن هذه القضية ممتازة عن سواها ، فان القتيل أخو الملك ، فماذا يدعى القاتل ؟

ـ الشفاليه دي باسافان .

ـ باسافان ؟ اني سمعت بهذا الإسم ولكن متى وأين ؟

ـ وسيحكم عليه دون شك ، فان أدلة جنايته كثيرة وينفذ فيه الاعدام في اليوم التالي للحكم اذا وافق ذلك مولاي .

ـ نعم انه يوافقني .

فانصرف عند ذلك الدوق ، وكان اول من انبأ الملـــك بالقبض علي قاتل اخيه .

أما الملك فانه سر لانصرافه ، وأشار الى النساك ان يدنو منـــه وقال لهم :

لنعد الى ما كنا فيـــه وحدثوني بتلك الأحاديث التي كانت تضحكني ، فليست صلواتكم التي تشفيني بل حكاياتكم .

غير ان الثلاثة كانوا مضطربين اضطراباً شديداً لما سمعوه عن هاردي ، فكان براكايـــل مطرق الرأس كئيباً وبرنكايل يضم قبضتيـــه ويشتم ، وبرسكايل يبكي

فعجب الملك لأمرهم وقال مغضباً ؟

ـ ماذا أرى انهم يبكون حين آمرهم ان يضحكوا فماذا حدث ألم اعد ملك فرنسا ؟

فقال براكايل .

مولاي ، انه أمر هائل .

فقلق الملك وقال :

ما هذا الأمر الهائل ؟

فدنا برانكابل من الملك وحـاول ان يوضح له الامر غير ان براسكايل تقدمه اليه لخوفه ان يفضح امرهم اذا قال تلك الحقيقة عن هردي فقال :

مولاي انها طريقة جديدة ابتكرناها لاضحاك جلالة الملك .

فعجب الملك وقال :

تضحكوني بالبكاء ؟

فشهق برسكايل بالبكاء وقال :

ان انواع البكاء تختلف يا مولاي فمنها ما يحزن ومنها ما يضحك فانظر يا مولاي وراقب الحركات التي تبدو في عيوننا ووجوهنا وافواهنـا تضحك دون شك .

ابك يا برنكايـــل .. ابك يا براكايل .. ابكيا ليضحك الملك انظر يا مولاي .

وكانت هيأتهم تضحك حقيقة فان برنكايل على حزنـه الأكيد لنكبة هردي لم يستطع البكاء فجعل يقلد الباكين وكذلك رفيقاه بحيث ان الملك قهقه ضاحكاً لرؤيتهم .

وجعل الضحك يجلب الضحك حتى بات الملك يضحـك دون ان يرى وجوههم .

* * *

في ذلك الحين كان الدوق بورجونيا ذاهباً الى اوديت .

وكانت اوديت بعد قتـل شامديفر لزمت مخدعها فلم تخرج منـه إلا إلى الملك حين كان يدعوها اليه .

وقد اصبحت خائفة بعد قتال النمرة لا ترتاح في اليقظة ولا في الرقـاد وكان قد جاءها مروض الوحوش في اليوم التالي فقال لها :

سيدتي استحق الموت بعد اهمالي فلولا هذا الاهمال لما هربت النمرة من قفصها ولما أصبت بهذا الخطر فري بشنقي فاني استحق القتل والملكة تريد ذلك ايضاً .

فأطلقت اوديت هذا الرجل وهي واثقة انه من الكاذبين وان الملكة قد ارسلته اليها ليقول لها هذا القول .

ولذلك كانت تتوقع الموت في كل يوم ولكنها لم يخطر لها ان تهرب لشدة اشفاقها على الملك .

ففي ذات يوم كانت اوديت جالسة في احدى قاعاتها تلتهي بالتطريز ونساؤها من حولها .

وعلى باب القاعة حراس كانوا يحرسونها ليل نهار بأمر الملك .

وفيما هي على ذلك دخل الدوق ومشى تواً اليها فقال :

ألتمس من سيدتي ان تثق بي وتأذن بابعاد نسائها فاني قادم لمداولتها في شأن سري .

فأشارت اوديت إلى نسائها بالانصراف وهي تقول في نفسها :

انه أبي ومع ذلك فاني اضطر الى الحذر منه كما احذر من عدو .

وجعل كل منهما ينظر إلىالآخر وكلاهما مصفر الوجه مضطرب الأعضاء الى ان بدأ الدوق الحديث فقال :

قبل ان ابدأ حديثي يا سيدتي ارجو ان تسمحي لي بسؤالك هذا السؤال هل تعتقدين اني اريد لك الخير والهناء وان الدوق دي بورجونيا لا يخطر له إلا ان يحملك سعيدة محترمة قوية .

فنظرت اليه اوديت نظرة تشف عن الحنو الأكيد لعلمها انها تكلم أباها وارتعش الدوق لهذه النظرة فقالت :

أما الاحترام يا سيدي فاني محترمة وأما القوة فلا اريدها ولا اطمع بها وأما السعادة فلا احسب اني خلقت لها . ثق بأنك تريد لي الخير فنعم اني أثق بك هذه الثقة .

– وهذا كل مـا أتمناه فانك مـا زلت تثقين بي هـذه الثقة تصغين الى اقوالي دون شك .

فاعلمي إذن انك معرضة للخطر وانه يجب ان تبرحي قصر سانت بول وتتبعيني الى قصري فانك تكوني فيه آمنة من كل خطر .

وهناك لا يجسر احد على أن يدنو منك .

على ان هذا الفرار لا يجب ان يكون غداً او الليلة بل يجب ان يكون الآن أتصدقين قولي .. قولي بالله أتثقين بي ؟

فهزت اوديت رأسها وقالت :

اني أثق بك واعلم ان الخطر محدق بي .. ولكن يوجد في هذا القصر من يتهدده الخطر اكثر مني وله بي ملء الثقـة ولا استطيع ان احميـه إلا بضعفي فاذا رحلت عنه فمن يبقى له ؟

أتريدين به الملك ؟

ـ نعم يا سيدي انه ذلك الملك المنكود الذي لا يحيط بـه غير اولئك النساك الثلاثة الذين بت واثقة بهم لإني اعلم من ارسلهم .

فقال في نفسه :

انهـــا علمت بأني أنا الذي أرسلت هؤلاء النساك كما علم جميع الناس وبذلك وثقت بهم .

وأتمت اوديت حديثها فقالت :

ان هذا الملك المنكود لا يحيط به غير اولئك الثلاثة ومصوره وأنا بحيث نتمكن احياناً من تعزيته وتسكين اضطرابه .

اني أحب هذا الملك يا سيدي لانه طيب القلب طـــاهر السريرة وفي اعتقادي اني انا التي سأشفيه ولذلك لا ابرح هذا القصر ولا أتخلى عنه .

ـ كيف ذلك ألا تتبعينني ؟

وقد هاج ثائر حبـه ولكنه ذكر قول الساحر وانه لا بد له ان ينتصر فعاد إلى موقف الاحترام كما فعل حين دخل وقال في نفسه :

لقد دنت الساعة التي امتحن فيها قولك ايها الساحر ثم قال لها :

اذا كنت يا سيدتي لا تبالين بهذا الخطر المحدق بك فاني لا استطيع ان أتلقاه بما تتلقينه من عدم المبالاة فانه متصل بقلبي .

فضمت اوديت يديها وقالت :

متصل بقلبك ؟

ــ انك ستتبعيني ولي الحق ان آمرك بذلك لأني. لأني اعرف من انت.

فصاحت اوديت صيحة دهش وتراجعت الى الوراء ثم تقدمت وقالت :

أتعلم من أنا ..؟

ــ نعم اعلم .

فقالت في نفسها :

انه يعلم اني ابنته وقد اختنق صوتها بالبكاء .

فدهش الدوق دهشاً عظيماً وكان يراقبها فيراها تنظر اليه تارة نظرات خوف وتارة تهم ان تطرح نفسها بين ذراعيه فيهيج الحب في قلبه ويقول : انها تحبني دون شك .

وقد عادت السكينة الى أوديت تباعاً فاقتربت من أبيها وقالت له برفق :

انك ما زلت تعرف من انا فلا بد لي من طاعتك وانما امتثل بطاعتك للواجبات والعواطف .

واعلم يا سيدي اني قبل ان أراك كنت أتمنى ان أعرفك وكنت انتظرك واعلم انه لا بد ان يأتي يوم تجيئني فيه وتتولى حمايتي .

ونعم اني كنت ارتاب فيك في البدء ولكنك لا تعلم مقدار ندمي الآن.

ألأنا أرتاب فيك .. ذلك لأني لم أكن اعلم .. فاعذرني وانظر الى سروري وهنائي .

فقال الدوق في نفسه .

ماذا اسمع وماذا تقول .. أفي يقظة أنا ام اني من الحالمين ثم قال لها :

اذن ستتبعيني .

فابتسمت وقالت :

ذلك لا بد منه ما زلت تعلم الآن انه يحق لك ان تصـدر الي الأوامر وأنه يجب علي ان اطيعك .

فقال الدوق في نفسه .

رباه لقد ظهرت عجائب السحر ولكني لو اضطررت الى لقاء الشيطان وجهاً لوجه لما رجعت لئلا يقال بأني خفت .

وعادت اوديت الى الحديث فقالت :

اني اتبعك لأن ذلك من واجباتي إذا أمرتني به ولكن الملك يا مولاي الدوق .

قال : يجب ان لا تفتكر بالملك يا ابنتي بل بك .

وقد قال كلمة ابنتي على سبيل العادة المألوفة في المخاطبات حين يراد اظهار الرفق .

ولكن هـذه الكلمة محت كل شك من قلب اوديت فنظرت اليه نظرة حنو اطارت صوابه إذ كان يعتقد انها نظرة حب وان هذا الحب لم يدخله الى قلبها غير سحر الساحر فهاجت كوامن غرامه وقال :

ان الملك نبقى سلميا إذا أردت فانـك انت التي ستصدرين الأوامر في المستقبل القريب .

وإذا أردت كان الملك محترماً وجعلت الرؤوس تنحني له اجـلالا وأرد سلطته وافعل ، كلا بل يجب ان أقول نفعل بل تفعلين .

فلم تدرك اوديت معنى اضطرابه وكانت تسمع وهي مضطربة لاضطرابه فلم تفهم معنى اقواله .

غـير ان الدوق استرسل في تلك الساعة إلى غرامه فأخذ يدها بين يديه وقال :

ان هذه الملكة التي تريد قتلك ساقتلها انا بيدي وهذا الملك المجنون

الذي تشفقين عليه سننقذه ما زلت تريدين انقاذه فنبقيه حياً ونرسله إلى أحد الأديرة بحيث يكون فيه رخي العيش ناعم البال فلا يكون غير ملك وهو أنا وغير ملكة وهي انت .

فرعبت اوديت وقالت :

– انا أكون الملكة ؟

– نعم انت ومن هذا الذي يجسر على معارضتي فيما أريد وأنا سيد باريس فاني إذا اردت كنت بعد ساعة سيد هذا القصر وكنت سيدته .

فقال أوديت في نفسها .

رباه لقد أصيب ابي بما اصيب به الملك من الجنون ثم قالت له :

مولاي ماذا تقول عد الى هداك فاني أخاف ان يسمعوك .

فسكر الدوق بخمرة حبها وقال :

انك تخافين علي ، اني امتثل لك ولا أعود الى هذه الأحاديث فاني لك .. لك وحدك وإذا شئت رجعت عن كل اطماعي واعتزلت كل سلطتي وغادرنا باريس وذهبنا الى قصري في ديجون .

وهناك اقنع بأن اكون الدوق دي بورجونيا فان كل نظرة منك تنسيني العالم بأسره .

تعال ولنسافر فان السعادة قد فتحت لنا ابوابها ما زال الحب متبادلا بيننا .

وقد حاول عند ذلك ان يضمها الى صدره ولكنها افلتت منه وتراجعت منذعرة الى الوراء ونظرت اليه نظرات تشف عن الرعب بحيث ان الدوق نفسه ذعر ايضاً فقال لها :

العلي أخفتك ؟

– ماذا قلت ألم تقل انك تحبني ، اجبني واسرع بالقول كيف تحبني وأي معنى يفيد هذا الحب ؟

فقال الدوق في نفسه :

متى كان الحب مختلف المعاني ثم قال لها :

اني أحبك كما كنت اتوهم أني أحب الملكة وكما احببت لورنس دي ايزيم وسواها ، اني أحبك وهذه الكلمة تفيد كل ما تريدينه من المعاني ، أنك ممثلة في قلبي وانا الدوق دي بورجونيا الملقب بالذي لا يخاف ابكي بكاء اليما حين اناديك في الليل وأرى انك لست لي ولكن هذا العذاب قد انتهى بعد ان اصبحت تحبينني .

فغطت اوديت وجهها بيدها وقالت :

اذهب يا مولاي . اذهب بربك واعتبر انك لم ترني ولم أراك ، اذهب فاني سأموت خجلاً ويأساً .

ـ ماذا ، ماذا تقولين ، ماذا حدث لك؟

فقالت وقد ابقت يديها على وجهها .

اني اسأل الله ان ينسيني هذه الأقوال الهائلة التي سمعتها ، اذهب يا سيدي اذهب بالله .

فدنا الدوق خطوة منها وقد تبين الحقد في وجهه فقال :

يخال الي ان هذه الصغيرة تهزأ بي .

فتراجعت مذعورة دون ان تزيح يديها عن وجهها كأنها لا تستطيع ان ان ترى وجه هذا الرجل الذي قال لها هذه الاقوال المنكرة وما هو إلا ابوها وقالت :

اذهب أو اقسم بالله الذي يرانا اني استغيث وأقول لكل من يحضر من الاشراف والحراس والخدم تلك الاقوال الهائلة التي تقضي علي وعليك بالموت نعم اني اقول من انت ومن أنا ، يا للعار ، يا للخجل ، اذهب اذهب .

فوثب الدوق اليها وقبض عليها فسقطت جاثية على ركبتيها وقد اتقدت عيناه وتهدج صوته فقال :

اتطردينني بعد ان اوهمتني انك تحبيني، ليكن ما تريدين فسأذهب ولكن اعلمي يقينا انك ستكونين لي :

والآن جاء دوري بالقسم فاسمعي .

اني اقسم بالله الذي يسمعنا كما تقولين بانك تعرفين قوتي في وقت قريب وتعلمين ان جان الذي لا يخاف لا يقاومه ولا يصده احد عما يريد .

الآن استودعك الله ولكنــــك سترينني قريباً ومهما فعلت فانــك ستكونين لي .

ثم تركها وخرج وهو سكران من الغضب والحب .

٦٢

ايزابو

عندما ذهب الدوق دي بورجونيا ازيح ستار غرفة ملاصقة للقاعة التي كانت فيها أوديت وبرزت منه امرأة فنظرت نظرات اشفاق الى اوديت ثم استوثقت ان الدوق لا يعود وفتحت جميع الأبواب .

وكانت إحدى وصائف أوديت وهي فتاة حسناء كانت أوديت تميل اليها ميلاً خاصاً .

فلما فتحت الأبواب اتت الخادمات فاسرعن الى معالجة اوديت .

أما الوصيفة فانها تركتهن يعالجنها وذهبت الى قصر الملكة فقالت كلمة السر وادخلوها في الحال الى ايزابو .

وبعد ربع ساعة عادت الى اوديت وكانت اوديت قد استفاقت من اغمائها فرأت تلك الوصيفة بين نسائها وانها كانت اشدهن غيرة عليها .

أما ايزابو فانها أقامت النهار كله في غرفتها تفكر وقد حصرت افكارها بهذه الجملة .

يجب ان اقتل هذه الفتاة » .

وكانت هائجة أشد الهياج ، وعند المساء عادت اليها سكينتها العادية وزارها نساؤها

وفي الساعة العاشرة تفرق عنها الجميع ونام جميع من في القصر فاتشحت بوشاح كبير وخرجت من قصرها الى الحديقـــة واجتازتها الى سجن هيدرون .

وهنـاك قادت السجان فتولى خفارتها الى السجون الكائنة تحت الأرض وبيده مفاتيح تلك السجون .

حتى إذا وصلت الى الدور الأول وقفت وقالت :

اين هو السجن ؟

ولم تكن قالت له كلمة عما يريد ولا اين تريد ان تذهب ولكن السجان عرف قصدها إذ لم يكن في تلك السجون العميقة غير اثنين أحدهما هردي .

فلما نزلت الى الدور الثاني قالت، عجباً كيف يستطيعون ان يحيوا هنا.

ـ انهم لا يحيون هنا يا صاحبة الجلالة بل يموتون وآخر من مات منهم عاش في سجنه أربعة اشهر .

وقد وقفت ايزابو عند باب سجن يشبه القبر فقالت :

من يقيم في هذا السجن ؟

هردي دي باسافان وقـد اختار هذا السجن خصيصاً غليوم دي ساك ودي تونفيل ولكني لا أظن ان هذا المنكود تطول اقامته في هذا السجن .

ـ لماذا لا يستطيع احتمال سواه ؟

ـ ليس هذا الذي اردته يا سيدتي بـل أردت انهم سيسرعون بمحاكمته ويعاقبونه بالاعدام فيخرج من يدي الى يد الجلاد وهو ما يخفف عذابه .

ـ افتح هذا الباب فاني أريد ان أراه .

ـ ولكن جلالتك تعلمين اني لا استطيع ذلك إلا بأمر من جلالة الملك .

ـ هوذا لأمر .

ـ التمس من جلالتك العذر عما قلته فاني لو خالفت الأوامر لقضي علي بالشنق .

ثم وضع المفتاح في القفل فوضعت الملكة يدها على كتفه وقالت :

أراك تخاف من الشنق فهل تريد ان لا تشنق ؟

ـ دون شك .

ـ إذن اخبرني ما فعلت بجثة ريدون .

ـ اني كنت أحب هذا الرجل وسيدتي تعذرني .

ـ قل ولا تخف .

ـ اني أحببت ان اوفر عن هذا المسكين عناء المشنوقين .

ـ ما هذا العناء ؟

ـ عناء العقبان والغربان فما أحببت ان تأكل جثته فحفرت له حفرة ودفنته فيها وصليت عليه بملء الخشوع .

فاطرقت الملكة هنيهة مفكرة ثم ابتسمت وقالت .

ان حكايتك هذه لا تشبه الحكاية التي رواها لي ساتان فهل تعلم انك تستحق الشنق؟

ولكن لا تضطرب فاني اغفر لك الخطيئتين وهما خطيئة الكذب علي وخطيئة تسليمك الجثة لساتان غير أني أرجو أن استعيض عن ذلك بخلوصك. فافتح الباب الآن .

فاسرع السجان الى الامتثال وفتح الباب فرأت الملكة على نور المشعل هردي واقفاً مستنداً إلى عمود في إحدى زوايا سجنه .

وعرف هردي الملكة ايضاً فأسرع إلى أخذ المشعل من يد السجان ورفعه بيده كأنه يريد ان يحتفل بقدوم الملكة ثم قال لها :

ـ اشكرك يا سيدتي على هذا الاكرام الذي افتخر به ثم انحنى أمامها وغرس المشعل بارض السجن .

فأشارت الملكة الى السجان اشارة امرته بها بالانصراف فانصرف طائعاً ووقف وراء الباب .

وعند ذلك جعلت الملكة تتمعن بوجه هردي ثم قالت له :

اني أعجب بشجاعتك وصبرك فقد كنت أحسب اني سأرى سجيناً انهكه اليأس لا يقبل بكل ما يقترحون عليه لصيانة حياته ولنيل حريته فاذا بي ارى رجلاً لا يخاف الموت بل لا يخافني .

لا تعترض فاني أرى من كل حركاتك ما يدل على انك غير حافل بي بل ارى من ابتسامتك انك تحتقرني ولكن نهجك هذا لا ينطبق على شيء من قواعد الحكمة .

ـ كلا يا سيدتي فانك اصبت بأول كلمة قلتها وهي انك نسبت ما رأيته في الشجاعة .

واما قولك اني لم أحفل بك فذلك يجوز لرجل مشرف على الموت غير انه لم يخطر لي في بال .

وأنا انتظر بملء الاحترام ما تريد جلالة الملكة ان تتفضل باقتراحه علي.

ـ ومن انبأك اني آتية اليك لاقترح عليك ؟

ـ إذا كان ذلك فكيف يتفق ان جلالة ملكة فرنسا تنزل من قصرها الى جوف الأرض أي الى سجن هيدرون لترى رجـلا متهما بتهمة هائلة ومحكوماً عليه مقدماً بالاعدام .

فاذا كان ذلك فهو لا يعد كرماًمنك يا سيدتي فاني اعلم يقيناً انك تحبين الانتقام مني لرفضي تلك الثروة التي عرضتها علي ولكني اتوقع انتقاماً أرقى من هذا الانتقام إذا صح ان يكون في الانتقام رقي . أقول هذا وانا التمس من جلالتك الغفران .

فاجابته الملكة بلهجة شفت عن الاحتقار قائلة .

لقد اصبت بما قلته فقد اتيت اليك لأنقذك ولكن يظهر لي انك لا تفهم حقيقة موقفك ولا تدرك معنى العفو الذي أحمله اليك .

فضم هردي ذراعيه الى صدره وقد تبين الغضب في وجهه فظهر في عينيه احتقار أشد من علائم الاحتقار الذي اظهرته الملكة ثم قال لها :

ومن انبأك بأني اقبل هذا العفو منك .

ثم تقدم إلى الملكة وهي ترتجف من الغضب فانها لم تجيء اليه إلا وهي واثقة من التغلب عليه وانه سيبتهج بالخلاص والعفو فوجدت رجلا يحتقرها ولا يكترث للحياة فقالت له :

احذر فان الوقت لا يزال فسيحاً بين يديك .

قال: نعم ولكنك في حالة تحمل على الاشفاق فانك ملكة قادرة ولكنك على قدرتك تلجئين بقهر عدوك إلى الكذب .

وانك قادرة على ان تسحقيني باشارة ولكنك لم تستعملي تلك القوة بل جعلت سلاحك النميمة واذنت ان يتهموني بقتل الدوق دي اورليان وانت تعلمين ان قاتله حليفك الدوق دي بورجونيا .

نعم انك تفعلين ما قلته في حين انهم وصفوك لي وصفاً اخافني من قبل.

فكادت الملكة تتميز غيظاً وقالت :

والآن ؟

قال : كلا لا اخافك بل اشفق عليك واحكم عليك انـــك ضعيفة لا تعلمين ماذا تريدين ولا الى اين تذهبين بل تسيرين إلى حيث تدفعك اميالك وشهواتك .

واني ربما قتلت يا سيدتي وان كان ذلك غير اكيد ولكن الذي لا ريب فيه ان شقائي في ساحة الاعدام سيكون اقل من شقائك في قصرك .

وبعد فماذا تريدين مني، انا اقول لك ماذا تريدين فانك : فتميزت إيزابو غيظاً فانها لم تجد إلى الآن من يكلمها بهذه اللهجة ولم تجـد الى الآن من يجسر على احتقار سلطتها وجمالها .

وقد كان تأثرها اشد من تأثرها ساعة قال لها الملك .

« اني أريد ان تحضري شنق عشيقك » .

بل شعرت ان صرح امالها قد تهدم فانها علمت من الجاسوسة أن الدوق دي بورجونيا قد عمل على خيانتها حين حالفها على الحب وانها باتت اسيرة بأمر الملك وان هردي يهينها فقالت له بلهجة القانطين .

قل ما تريد ان تقوله فاني احب ان اعلم الى اي حد تبلغ بقحتك .

قال : اطمئني يا سيدتي فان قحتي لا تتجاوز الحدود التي رسمتها لها .

ـ حسناً فقل لي ماذا اريد ما زلت تعلم ذلك .

ـ اني اعلم ما تريدين لأنك قلته لي فقد اتيت يا سيدتي تقترحين علي قتل اوديت دي شامديفر لأنك لم تجرأي على قتلها بيدك .

وانك في سبيل قتل هذه الفتاة التي ملكتها قلبي ووهبتها دمي عرضت علي ان أشاركك بجدك وان تهبني قلبك .

انظري الي يا سيدي تجدي ان التفاوت لا يوصف بيني وبينك واني لا املك شيئاً في هذا الوجود حتى ولا منزلي واني سجين تحت الأرض في سجن لا فرق بينه وبين القبر . اني لا أخرج منه إلا لينفذ في حكم الاعدام فاسمعي الآن جوابي .

اني اؤثر ان اموت على ان اتبعك وإذا جال خاطر في قلبي ضد هذه الفتاة التي أحبها وتكرهينها انتزعت قلبي من صدري واني اؤثر ان يضغط على عنقي حبل الجلاد على ان تضميني على صدرك .

فهل ارضاك هذا الجواب ، انه إذا كان لم يرضيك فقولي ما تريدين قوله فلدي أجوبة أخرى .

وإذا كان قد أرضاك فاذهبي ودعيني أموت بسلام .

وعند ذلك أدار ظهره وذهب الى الزاوية التي كان فيها .

فهاج غضب ايزابو وربما كان قد هاج حبها ايضاً فانها مشت الي هردي فوضعت يدها على كتفه برفق .

فارتعش وقال لها بلهجة المغضب

ماذا تريدين مني أيضاً ؟

— اني أريد أن أودعك فاذا كنت لا تعلم معنى هذا الوداع فاعلم ان الجلاد سيخبرك به قبل ثلاثة أيام .

فأشار برأسه إشارة دون ان يجيب وتراجعت الملكة ببطء فلما وصلت إلى منتصف السجن شعرت انها تشهق بالبكاء وان هذا آخر ما كان في نفسها من الكبرياء .

وقد خطر لها لحظه ان تعود الى هردي ثم كبحت جماح نفسها بسرعة وخرجت .

وقد اقفل السجان باب السجن وحمل المشعل فاوصل الملكة الى أعلى السلم وهناك تنشقت الهواء النقي ولبثت هنيهة مطرقة تفكر بأمور في نفسها لا تعلمها .

ثم رفعت رأسها والتفتت الى السجان فقالت ؟

هل اتخذت جميع أسباب الاحتياط ؟

— أي احتياط تعنين يا مولاتي ؟

— بشأن السجين فهل يستطيع الفرار ؟

— كلا يا سيدتي فان ذلك مستحيل إلا إذا انا فتحت له الباب وأخذت بيده الى خارج السجن فقلت له ، اذهب فان عذابك قد انتهى .

— نعم اعـلم ان ذلك مستحيل ولكن أتعلم ما يصيبك إذا تمكن من الفرار ؟

— نعم يا سيدتي فاني اشنق .

— بل انك تعاقب ببضع الاعضاء والاحتراق على نار ضعيفة ومن يحتمل عذاب هذا الموت الهائل ؟

ثم تركته وعادت إلى قصرها من باب سري لم يره الحراس فدخلت الى مخدعها وقد سكن غضبها ولكنها كانت تشعر بذبول وانحطاط فأخـذت كتابا وجعلت تقرأ فيه دون ان تفهم ما تقرأ وذلك لأنها لم تكن تستطيع الرقاد .

ولبثت على ذلك الى أن أشرق الصباح فأقامت كل يومهـا وليلتها وهي ساجنة نفسها بغرفتها .

إلى أن جاء اليوم الثالث فلم تعد تفتكر بهردي .

وفي صباح ذلك اليوم نادت الجاسوسات اللواتي عينهن لمراقبـة اوديت وأمرتهن ان يحتلن على أوديت كي تكون عند الظهر وحدها ثم لبست ثيابها فانتهت في الساعة التاسعة .

وفي تلك الساعة أخذت اجراس الكنائس تدق وتتجاوب وارتفـع الضجيج وكانت السكينة سائدة في البدء في قصر سانت بول ولكن الاضطراب بدأ فيه فجأة فكثر الذهاب والاياب وعلت الأصوات .

وقد أخذت الملكة تصغي دون أن تعلم شيئاً فنادت رئيس الحراس الذي خلف ريدون وسألته عما يجري فلم يستطع ان ينبئها بشيء .

ومضى على ذلك ساعتان وايزابو تذهب من نافذة الى نافذة باحثة فـلم تكن ترى غير الجنود يجتمعون في قصر سانت بول كأنهم يتأهبون للقتال ولم تسمع غير ضجيج بعيد تعلو عليه أصوات الأجراس .

وقد عرفت ما سيجري وكانت تريد ان تشترك بهذه الفاجعة غير انها لم يكن يخطر لها في تلك الساعة غير اوديت فان الساعة قد دنت .

وعند ذلك أخذت خنجراً صغيراً غمده من المخمل وقد رصع بالجواهر فخبأته في ملابسها ومشت الى الباب .

وكانت مصفرة الوجه غير انها كانت ساكنة هادئة فقالت لنسائها .

لقد رابني أمر هـــذا الضجيج وأنا ذاهبة إلى الملك لأقف منه على ما يجري .

فحاول نساؤها ان يخفرنها حسب العادة ولكنها أمرتهن بالبقاء وخرجت من قصرها قاصدة الرواق الكبير .

وهناك رأت الدوق دي بورجونيا ورآها فعلم الدوق لأول وهلة مـاذا

تريد أن تصنع فذهب اليها وعلم الاثنان انه لم يبق متسع من الوقت للحيلة فقال بصوت أجش .

اطلقي سراح جميع هؤلاء الناس .

فالتفتت الى حراسها وأشارت اليهم بالابتعاد فدنا منها وقال :

انك ذاهبت إلى أوديت .

فاصطكت اسنانها وقالت نعم :

وقد وضعت يدها على قبضة خنجرها كأنها تريد أن تقتله .

وكذلك الدوق فقد خطر له في تلك الساعة ان يخنقها .

ولكنه كان قد اتخذ احتياطاته دون شك وقرر النهج الذي يريد ان ينهجه فوضع يده على ذراعها وقال :

اني اسلك اياها والتخلى عنها .

فاهتزت ايزابو اهتزازاً عنيفاً وعاد الرجاء الى قلبها وخطر لها انها قد يمكن ان تعود الى حياتها السابقة وانها ستحب الدوق كما أحبته من قبل فقالت له بصوت وحشي استدل منه الدوق انها قد بلغت اقصى درجات الحقد .

ــ احذر ايها الدوق .

قال : أعلم انه يحق لك ان ترتاني فقد حاولت خداعك وأردت حمل هذه الفتاة على الذهاب الى قصري يوم عاهدتك على قتلها .

ولكن كل شيء قد انتهى الآن وانا اعيد ما قلته بشأنها فاقتليها كما تشائين .

وقد سكتت هنيهة بعد ان بذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من ان يقضي هذا القضاء .

ولكنه طرد تلك الافكار من رأسه وقال في نفسه .

لينتزعوا قلبي بشرط ان أكون الحاكم المطلق .

ثم التفت الى الملكة وقال :

وانت ايضاً قد خنتني يوم عاهدتني على الحب والولاء فيه فنزلت الى سجن هيدون لترى هردي .

وأنا أقول لك الآن . سلبني هردي كما سلبتك اوديت .

ليمت فأي شأن لي به فاذا اشفقت مرة على هذا المنكود الذي انقذني من الموت فقد ذهبت تلك الشفقة ، الا يريدون محاكمته قبل اعدامه ؟

فأخرج الدوق ورقة من جيبه وناولها اياها فقرأتها دون اكتراث ثم ردتها اليه وهي تقول :

حسناً فلم يبق بيننا احياء يحولون دون حبنا .

أما هذه الورقة فقد كانت الأمر القاضي باعدام هردي باسافان في ساحة الاعتصاب لثبوت التهمة عليه بقتل الدوق ذي اورليان .

وبعد ان وضع الدوق الورقة في جيبه وقال لها :

ان المحاكمة قد انتهت بجلستين لكثرة الشهود وبعد ساعة يذهبون به الى ساحة الاعتصاب وينفذ حكم الاعدام فيه ، نعم ان الأمر كما قلت فلا يبقى بيننا احياء .

فأجابته بسكينة قائلة :

نعم فلا يبقى غير زوجي وزوجتك .

ـ ان برسكايل يجهز على الملك عند الظهر وأما امرأتي فستموت ايضاً .

وقـــد دنت الساعة فاني اصدرت الأوامر وشعب باريس منتشر في الشوارع بقيادة كابوش وهو يموج كالتيار الزاخر القبض على الضابط وعمل الضرائب .

وعند الظهر أي حين يقطع الجلاد رأس هردي يبدأ القتال .

نعم اني في هذا اليوم ابيد الارماتوكيين وافتك بكل ما اكرهه واجعل الدماء تسيل كالانهر .

وكل ذلك يبدأ بموت الشقي باسافان .

ثم قال في نفسه :

نعم يموت هردي ذلك الفتى الجميل الذي اردت ان تخونينني به وتقتليني فقالت له الملكة وقد اعجبت به .

اذهب اذن واقض مهمتك وأنا اقضي مهمتي واذهب بهردي الى المشنقة ولما اتولى قتل اوديت فيخلو لنـــا الجو وأضع يدي بيدك فتملك الأرض بجملتها .

ثم تركته وخرجت من ذلك الباب السري لأن حراس الملك كانوا يخفرون جميع ابوابها .

اما الدوق فانه وضع رأسه بين يديه وجعل يقول :

إلى اين هي ذاهبة ، أحق ان اوديت ستموت .

وقد مشى هو ايضاً تائه الفكر مضطرب البال واقتفى اثر الملكة فرآها ذاهبة الى قصر الملك .

وكانت الاجراس قد سكتت وسادت السكينة في المدينة فوقف الدوق مضطربا حائراً لا يدري ما يصنع .

وعند ذلك دنا منه ضابط وقال له :

مولاي ، الأسير باسافان .

ــ حسناً اذهبوا به إلى ساحة الاعتصاب .

ثم تركه واسرع بالذهاب الى حيث ذهبت الملكة ثم جعل يركض حذراً من ان لا يدركها .

حتى وصل الى حيث تقيم اوديت ودخل دخول المجنون الثائر .

وكانت الملكة قد دخلت قبله وهي تبتسم للحراس وترد تحياتهم حتى وصلت الى القاعات التي تقيم فيها اوديت فدخلت دون تردد .

***

٦٣

السجان

حلم برانكايل

كان السجن الذي اقام فيه هردي اثني عشر عاماً لا يذكر عذابه بالقياس الذي سجنه فيه أخيراً .

وقد صدقت الملكة بقولها ، كيف يستطيع الانسان ان يقيم فيه .

غير ان تعزية هردي فيه انما كان اعتقاده بأنه سيقتل بعد ثلاثة أيام فيستريح .

غير انه على اعتقاده بأنه سيموت قريباً كان لا يزال باقياً له رجاء أو شبه رجاء .

ففي ذلك اليوم تلقى هردي زيارتين غير زيارة للملكة احداهما زيارة السجان فقد جاءه بطعامه فانه دخل اليه وقال له بلهجة التأثر .

أراك قد رجعت الي .

فأجابه هردي قائلاً :

هل يسوءك ذلك الست سجيناً هادئاً لا يزعج ولا يحاول الفرار ؟

ـ انك لا تحاول الفرار لعلمك انك لا تستطيعه فقد قلت لك مرة انهم لا يخرجون احياء من سجن هيدرون .

ثم انك لو حاولت الفرار وتسهلت لك أسبابه لما وجدت من الوقت متسعاً فقد سمعتهم يقولون انهم سيحكمون عليك ويسلمونك الجلاد بعد ثلاثة أيام فلا ادري لأي ذنب .

ـ ان في ذلك اعظم عزاء .

ـ هو ذاك فان الموت يفضل هذا السجن فانّ النزع فيه هائل قد يطول شهراً .

فضحك هردي وقال :

مهما كان زمن اعدامي قريباً يبقى لنا وقت فسيح .

ـ وقت لماذا ؟

فلم يجبه هردي على سؤاله وقال بصوت اجش .

ـ قل لي: انك حين ساعدتني على تسلق النافذة الى الآنسة دي شامديفر اتذكر ذلك ؟

ـ نعم اذكره وإذا كان يجب ان اساعدك ايضاً فعلت .

ـ اصغ الي فقد خيل لي انك تحن علي وتعطف علي فهل هذا أكيد ؟

ـ دون شك فاني ربيتك اثني عشر عاما وان عطفي عليك فوق ما تتوهم فقد خاطرت من اجلك بالموت .

ـ اذن انك ما زلت تعطف علي وتميل الى الآنسة دي شامديفر فاعلم ان الأمر يتعلق بها.

ـ ماذا تريد ؟

ـ اريد ان تساعدني على الفرار .

فهز السجان رأسه دون ان يجيب .

فقال له هردي : ألا تريد ؟

ـ ذلك مستحيل لكثرة المراقبة ثم اني اقسمت يميناً على ان لا اسهل لسجين اسباب الفرار فلو نكثت باليمين عاقبني الله في اليوم الأخير الا تعتقد بحساب الآخرة؟

ـ نعم اعتقد .

ـ إذن انت ترى ؟

ـ ماذا أرى ؟

ـ اني لا استطيع مساعدتك على الفرار لأني اقسمت اليمين في الكنيسة امام الكاهن .

فأطرق هردي مفكراً وهو يقول في نفسه :

مسكين إذ ما كنت اريد له إلا الخير ولكني مكره ثم قال له :

لقد قلت منذ هنيهة انه لا يزال لدينا وقت .

ـ نعم ولكنك لم تقل لي لأي شيء .

ـ لنتبارز بالسيف حسب عادتنا .

ـ اذا كان ذلك فان الامر ميسور ولا سيما انه يسرني .

ـ تقول انه يسرك .

ـ دون شك فقد سمعت انك صرت من اشداء رجال السيف واحب ان امتحن بنفسي فاعلم الى ابن بلغت من النجاح فاني استاذك في هذا الفن وانا الذي علمتك كيف تقتل بطعنة واحدة في القلب .

فارتعش هردي ومضى السجان في حديثه فقال :

لقد اتصل بي انك قتلت كورتيز وكين بنفس هذه الطعنة رحمهما الله وقد اخبرني بذلك تونفيل فهل هذا أكيد ؟

ـ نعم فانك انت الذي علمتني هذه الطعنة .

ـ وانها افادتك وقد تفيدك ايضاً .

فاضطرب هردي اضطراباً شديداً ايضاً وقال :

اذا كان ذلك يسرك كما تقول فمتى تريد ان تبدأ ؟

قال : سأحضر حسب العادة ومن كان مثلي ومثلك لا خطر عليهما بأن يصابا بجراح بالغة .

فارتعد هردي وقال : كلا فمتى تحضر السيفين ؟

قال : قريباً .

ثم تركه وانصرف وعليه علائم عدم الاكـــتراث حسب عادته تاركاً

هردي وهو في أشد حالات الاضطراب وقد انزوى في زاوية سجنه وجعل يقول في نفسه .

نوى أأجسر على ذلك .. ولكنه امر لا بد منه . وأأسفاه في سبيل اوديت وروزالي .

هذه هي الزيارة الأولى التي تلقاها هردي في ذلك اليوم .

وأما الزيارة الثانية فقد كانت بعد انصراف السجان بثلاث ساعات .

وذلك ان السجان فتح باب سجنه وبدلاً من ان يدخل هو دخل مكانه اربعة رجال يحملون المشاعل .

ثم دخل ثمانية حراس مدججين بالسلاح فاصطفوا عند الجدار بينما كان اثنا عشر آخرون واقفين في الرواق عند باب السجن .

ثم دخل خادمان يحملان مائدة سوداء واربعة كراسي .

ولما تمت هذه المعدات رأى هردي ان تونفيل وغليوم قد دخلا يصحبهما اربعة من البورجونيين .

وكان الجميع ساكنين واجمين فكان هردي ينظر اليهم وهو يبتسم ابتسام احتقار .

وقد نظر الى غليوم وتونفيل ولكنهما ما أطاقا احتمال نظراته وادارا وجهيهما .

وقد ترأس تلك الجلسة رجل لابس ملابس سوداء فوضع ما كان يحمله من الأوراق على المائدة وجلس رفقاؤه الثلاثة بجانبه وهم يلبسون نفس ملابسه فقد كانوا من القضاء .

وعند ذلك تلا رئيس الجلسة اوراق التهمة حتى اذا أتم تلاوتها ضحك هردي وقال :

ذلك سيان عندي .

فأمر الرئيس كاتب الجلسة ان يكتب ما قاله وان يكتب انه ضحك .

وهكذا ابتدأت الجلسة فكان كل ما سأله القضاة سؤالاً عن مقتل الدرق يشير الى تونفيل وغليوم ويقول لهم :

سلوا هذين فانهما القاتلان .

فختمت الجلسة بعد ان تقرر فيها ان المتهم اعترف انه ساعة قتل الدوق كان موجوداً في الشارع الذي كان فيه القتل .

وفي اليوم التالي اعيدت الجلسة وسمع الشهود فأجمع كلهم على الشهادة بأنهم رأوا المتهم يركض هارباً في شارع بريت الذي قتل فيه الدوق وعليه آثار الدم .

وفي اليوم الثالث وهو الأخير كانت الجلسة قاصرة على تلاوة الحكم القاضي عليه بالاعدام وان الحكم سينفذ في ظهر اليوم التالي في ساحة الاعتصاب .

ثم خرجوا ما عدا رئيس المجلس فقد بقي وقال له :

ان جلالة الملك يأذن لك ان تبيت الليلة في كنيسة دير سلستين فهل تريد ؟

وكان السجان واقفاً في الباب فخيل لهردي انه رآه يشير اليه بأن يرفض فأجاب الرئيس قائلاً :

اشكر جلالة الملك ولكي استطيع الصلاة في سجني كما أصلي في الكنيسة.

فانصرف الرئيس واقفل باب السجن وسادت الظلمات فيأس هردي وقال :

غداً فلم يبق لي إلا الغد .

وكان كل رجائه منحصراً بمجيء السجان اليه بالسفين ولكن السجان لم يحضر فقال في نفسه :

لقد احسن بعدم مجيئه فاني اكره أن اشتري حريتي بهذا الثمن الفظيع .
وكان وهو على هذه الحالة يفكر تارة بأوديت وتارة بروزالي حتى

انتهى به الأمر بالرقاد فنام بضع ساعات ولم يدر حين استفاق طلع النهـار وهو موعد اعدامه ام لا تزال تحجبه ظلمات الليل .

إلا انه على كل ما أصابه ورآه لم يكن يعتقد بأن ساعته قد دنت حقيقة فكان يخطر له حوادث مختلفة تتفق كلها على انقاذه .

إلى ان سمع صوت فتح الباب فذهب كل رجـاؤه واحبيت تلك الأماني بجملتها وقال في نفسه :

انهم قادمون دون شك للذهاب بي الى ساحة الاعدام .

ولكن المسافة بعيدة بين قصر سانت بول وبين ساحة الاعتصاب فاذا لم أتمكن من الفرار اكرهت الحراس على ان يقتلوني .

وذلك اني اخطف خنجراً من احدهم فأما أتمكن من قتل نفسي به أو أدافع فيضطرون الى قتلي وأموت موت الاشراف لا موت اللصوص .

أما الباب فانه اقفل بعد فتحه فارتعش هردي وقال في نفسه :

كلا انهم غير قادمين لأخذي فان هذا الرجل السجان .. ولكن ماذا يحمل تحت ابطه .. انه يحمل سيفين .

وقد كان ذلك السجان يحمل مشعلاً فغرسه في ارض السجن .

أما هردي فانه بذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من التظاهر بعدم المبـالاة وقـال :

- أنحن في النهار الآن ؟

فأجابه السجان قائلاً :

نعم وفي الساعة الحادية عشرة من الصباح فلا يمر بضع دقائق حتى يأتوا ويأخذونك .

— ولكن ما هذان السيفان ؟

— كيف تسألني عنهما ألم تطلب إليّ ان توازن بين قوتي وقوتك بالسيف غير إني التمس منك قضاء امر .

— قل .

— اني من عوام الناس ويسرني ان افتخر بعائلة شريف وبماذا يكون الاشراف اشرافاً أليس بملابسهم ؟

فلم يسع هردي إلا الضحك وقال : نعم .

— اذن لا استطيع ان أعدك من الاشراف وانت بهذه الملابس الممزقة ولذلك احضرت لك ثوباً .

فارتعش هردي وأيقن أن السجان يضمر امراً فهل يريد انقاذه وهل يحاول ان يخفيه بهذه الملابس كي يتمكن من اجتياز حدائق سانت بول .

هذا ما خطر لهردي وقد سري الى قلبه الرجاء فحدق بالسجان .

ولكن السجان اراه صرة الثياب وقال له :

اذا كنت تريد فيجب ان تسرع قبل فوات الأوان .

فلم يعارضه هردي وخلع ملابسه ولبس الثوب الجديد .

فأعطاه السجان خنجراً وقال له :

تقلد هذا الخنجر فلا بد لك منه .

فشكه في منطقته .

— وخذ هذا الكيس فعلقه بمنطقتك فلا شرف من غير مال كما يظهر ..

فأخذ هردي ذلك الكيس منه وهو منذهل إذ كان محشواً بالدنانير .

فقال له السجان : لا تعجب فقد أخذت هذه الدنانير من ساتان مقابل خدمة بشأن ريدون .

والآن فانك اصبحت من خواص الشرفاء فلك الثوب والخنجر والسيف والكيس بحيث اني افتخر بمقابلتك فاحذر .

فجرد هردي حسامه وقال في نفسه :

اني اطعنه بتلك الطعنة التي علمني اياها ثم اخذ مفاتيحه وأصعد الى سطح الأرض فلا يعرفونني بهذه الملابس واذهب الى اوديت .

وقد بدأ القتال فكان السجان يهاجمه ويقول له :

دافع عن نفسك .. ما بالك لا تدافع .

غير ان هردي كان يتراجع وقد عرضت لـه فرصة طعنـه تلك الطعنة عشر مرات فلم يفعـل كما ان السجان كان يكشف له نفسه كثيراً كأنه يسهل له قتله .

إلى ان قال له ما بالك لا تهاجمني .. اسرع قبل فوات الأوان .

فأحنى هردي سيفه الى الأرض وقال له :

أي أوان ؟

— اوان الفرار .

فساد السكوت هنيهة وجعل كل منهما ينظر الى الآخر نظرة تمجيز فان للاخلاص هياج يشبه هياج الحقد وكانت خطة السجان ظاهرة لا ريب فيها فانه كان كأنه يصيح به قائلا :

اقتلني وخذ مفاتيحي واهرب .

فقال له هردي :

ألا يوجد طريقة اخرى ؟

فأدرك السجان قصده وقال له :

كلا لا يوجد غير هذه الطريقة واذا لم تسرع فات الأوان .

فأغمد هردي حسامه واضطرب اضطراباً شديداً وجعل يبكي .

فقال له السجان : ماذا تفعل احذر فاني حامل عليك .. جرد حسامك قبل فوات الأوان .. ماذا ألا تريد أن تقاتلني ؟

فقال هردي : اسألك ان تعفو عني فقد خطر لي هذا الخاطر الهائل الذي عرفته وهو ان أنال حريتي بتضحية حياتك .

ـ وما هي حياتي يا بني واية فائدة لي من بضعة اعوام أعيشها ايضاً .. اني ما فعلت غير الشر واذا عشت فلا أعيش إلا لزيادة هذه الشرور أما أنا سجان جلاد خلقت لتعذيب الناس فاعلم يا بني ان الحياة لا تروق لي

ولولا هـذه اليمين التي حلفتهـا امام الكاهن لفتحت لك ابواب السجـن وقلت لك اذهب بسلام .

أما انت فيجب أن تعيش لك ولها فهي تنتظر وأنا اعلم ما يتهددها من الأخطار فكن عاقلاً يا بني وهذه المفاتيح بمنطقتي فاقتلني وخذها ووالله لو أجاز لنا الدين الانتحار لانتحرت امامك متى رأيت انك لا تجسر على قتلي .

فأطرق هردي باكياً وذهب السجان إلى الباب فأصغى ثم عاد فقال :

لا يزال لدينا ربع ساعة فاغتنم الفرصة .

والتفت اليه هردي وقال :

احمد الله على اني لم أرتكب مثل هذه الخيانـة فاني لا ادري لو أقدمت عليها كيف تكون حياتي .

وفي كل حـال فاني اشكرك لهـذا الثوب الجديد الذي ألبستني إياه فسأظهر به في ساحة الاعدام ..

فدهش السجان وقال :

ماذا اسمع .. ألا تريد أن تهرب ؟

فشى هردي ومد له يده .

فاضطرب السجان وقال : ما هذا ؟

— ألا تريد أن تصافح اليد التي أمدها اليك ؟

— أتصافح يد سجان جلاد ؟

ثم أخذ يده بين يديه وهو لا يعلم كيف يظهر امتنانه فقال :

لقد صرت رجلاً الآن بعد ان صافحت يدي الاثيمة يدك الطاهرة .

— بل أعدك من خير اشراف الرجال وكفى انك أردت تضحية حياتك لتسهيل فراري .

— بل أنا الذي أصبحت مديناً لـك بعد ان صافحت يدي وأرى اني استطيع الآن أن أخاطر .

وقد أصفر وجهه وخاف في حين انه لم يخف حين كشف صدره لاستقبال الموت .

فاضطرب هاردي وقال :

بماذا تخاطر ؟

ـ بحظي من النعيم .

فمشى هاردي الى الباب وقال : هلم بنا .

فجعل السجان يتمعن فيه منذهلا ويقول في نفسه :

انه ابى ان يقتلني ورضي ان انكث بيميني واخسر نفسي في الآخرة ، ولكني طالما سمعتهم يقولون : ان سلامة النفس في الآخرة خير من سلامة الجسد من الدنيا .

وبعد هنيهة كان الاثنان خارج السجن فصعدا السلم وبلغا الى الحديقة وهناك رأى السجان بعض الجنود قادمون لأخذ هاردي فسار به في منعطف خفي وتوارى عنهم ، فقال لهاردي :

هلم بنا الآن نخرج من القصر قبل ان يدركونا .

ـ أتذهب معي ؟

ـ دون شك فانك لا تستطيع الخروج وحدك وبعد فماذا تريد ان اصنع في هذا القصر ؟

ـ حسناً فسر بنا الى قصر الملك .

ـ قصر الملك ؟

ـ نعم ، فاني اريد ان ارى أوديت .

ـ مولاي ، ماذا تفعل انهم يعودون الى القبض عليك .

ـ قلت لك اريد ان أرى أوديت ، فاما تسير معي ، أو أذهب وحدي .

فقال السجان في نفسه :

لقد كنت أتوقع ذلك .

ثم سار أمامه بطريق خفي الى المكان الذي تقيم فيه أوديت ، وهو يقول :

يا لغرور الشباب ، ولكني لا أجد بدأ من الامتثال .

٦٤

الصك

ولندع الآن الملكة والدوق وهاردي ذاهبين الى أوديت وكلهم ذاهب اليها لغاية مختلفة عن غاية الآخر الى ان يجتمعوا هناك .

ولنعد الى شاتليت صديق هاردي فقد تركناه ذاهباً الى ساتان ليهديه الى طريق يدخل بها الى قصر سانت بول ، وينقذ صديقه من أيدي البورجونيين .

وقد وصل الى ساتان مع الدليل فقال له الدليل :

لقد جئتك ، يا سيدي، بهذا الرجل الشريف اذ يريد ان يسألك عن أمر خطير ووعدته ببذل مساعدتك .

فقطب ساتان حاجبيه وقال :

لا فائدة من الابحاث فقد عزمت عزماً اكيداً على ان لا اهتم بشيء ولا اكترث لأحد فاذا كنت تريد اكسير حب، أو غير ذلك مما كنت اشتغل به فاذهب الى سواي فلم يعد هذا المنزل منزل الساحر .

فقال له شاتليت :

أيها الساحر اني غير قادم اليك من أجلي بل من أجل الذي اعطيته مهر روزالي .

فاضطرب ساتان وقال :

هاردي باسافان ؟

— هو بعينه وقد قال لي انه يثق بك .

— وماذا يريد اسرع بالقول .. بل اصبر .

ثم أخذ قبضة من المال فنفح بها الدليل واطلق سراحه وعاد الى شاتليت فقال له :

اسرع بالقول فماذا يريد هاردي ؟

— ليس هاردي الذي يريد بل أنا فقد قبضوا عليه في منزلي واعتبروه عاصياً متمرداً وفوق ذلك فهو متهم بقتل الدوق دي أورليان فاذا لم تنقذه من قبضة الدوق دي بورجونيا اعدمه اعدام المجرمين فاعلم قبل كل شيء انهم حين قبضوا عليه ذهبوا به الى قصر سانت بول .

وكان ساتان يصغي الى شاتليت ويداه تضطربان فقال شاتليت :

وقد اكد لي هذا الدليل الذي جاء بي اليك انك تستطيع إدخالي الى قصر سانت بول فقل أنت الآن أعداء اكيد ؟

فأطرق ساتان رأسه هنيهة مفكراً ثم قال :

ان هاردي الآن في قصر سانت بول مهدداً بالخطر ، وأنت تريد انقاذه لأنه صديقك ، وأنا اريد إنقاذه للحقد الذي أحمله على الدوق دي بورجونيا .

قال : حسناً ، فلنشرك حقدك بصداقتي ولنشرك قوتي مع قوتك لننقذه من موقفه الخطر فأنا لي قوة السيف وأنت لك قوة الشياطين .

فهز ساتان رأسه وقال :

اني استطيع إدخالك الى قصر سانت بول، ولكن ماذا تصنع فيه ؟

— ماذا أصنع ؟ اني أنقذ هاردي .

— هو ذاك ولكن كيف تنقذه ؟

— كيف انقذه ؟ اني اقتل واحرق القصر و..

— أتحرق عشرين بناية يتألف منها قصر سانت بول .. أتعلم أين

صديقك مسجون .... ان كل بناية من هذا القصر لها سجن ذلك عـدا عن سجن هيدرون.

وهب انك عرفت أين سجنوه، فهل تستطيع اغراء السجان وهو يخشى الشنق في الأولى وجهنم في الآخرة ، أم تحسب انك تقتل جميع جنود القصر فتنقذ هذا الصديق ؟

فمسح شاتليت العرق عن جبينه وقال :

كل ذلك اكيد فانهم يقتلونني قبل ان اصل اليه ولكنه يعلم على الأقل اني قتلت في سبيله .

ـ وهب ان في ذلك فائدة، فكيف تحسب انه يعلم ، وهو في سجنه لا يكلمه أحد .. انك تقتل نفسك قتلاً ، لا تجد فيه ولا فائدة منه .

ـ إذن ، ماذا أعمل ؟

ـ تذهب وتلبث مطمئناً الى ان ادعوك اليّ .. ولا ريب عنـدي بأنك تضحي حياتك في سبيل صديقك فقد رأيت من اخلاقك ما يدل على ذلك.

ولكني لا اريد ان تضحي هذه التضحية إلا في ما يفيد ، فهل تستطيع ان تصبر وتنتظر ؟

قال : ولكن ما أعمل في هذه المدة :

وقد رأى بعد إمعانه انه اذا كانت نجـاة هاردي ممكنة فلا يستطيع إنقاذه غير ساتان فقال له فجأة :

ـ حسناً ، فسأنتظر .

ـ أين أجدك ؟

ـ في فندق ليلبود .

ـ اني اعرف هذا الفندق واعرف منزلك في شارع سانت أنطوان فانك هجرته حين حقد عليك البورجونيون ولكني احب ان اجدك فيمنزلك فان الفندق بعيد عن قصر سانت بول .

قال : لقد اصبت ولكنك قلت ما يوهم باني خفت البورجونيين .

قال : بل قلت انهم يريدون قتلك ، ولم اقل لك انك تخافهم ، فاذهب يا ابني ، الى منزلك ، وانتظر فيه الى ان يأتي رسولي فيخبرك بما يجب ان تفعله .

فامتثل شاتليت وانصرف فذهب توآ الى منزله ، كما اوصاه الساحر وقد ضحى في ذلك تضحيــة عظمى فانه كان مولعاً بالشراب ولكنه لا يعرف ان يشرب وحده .

وقد تجلد في اليوم الاول وقضاه بين الكؤوس ولكنه لم يستطع التجلد في اليوم التالي ، وقال في نفسه :

لا شك ان ساتان يهزأ بي .

ثم خطر له خاطر هائل ، ربما اوحاه اليه الشراب وهو ان الساحر قد يكون متفقاً مع الدوق دي بورجونيا فأراد ان يبقيه في منزله كي لا يتلقى هاردي مساعدة من أحد .

وعنــد ذلك لبس ملابسه وتدجج بالسلاح وعزم على الخروج وهو يشتم ويلعن وقد جعلت الاجراس تدق في تلك الساعة فقال عجباً ترى ماذا حدث في باريس ؟

وقـــد سمع أصواتاً بعيدة ، فأصغى الى تلك الاصوات ، وتبين الاقوال فسمعهم يصيحون :

لتحيى الحرية .. الحرية للشعب .

ثم سمع اصواتاً اخرى تصيح قائلة :

ليحيى الدوق دي بورجونيا ... ان الدوق مع الشعب ... لقد نجونا .. الحرية ، الحرية .

ثم أطل من النافذة فرأى عصابات مختلفة من الشعب بينها نساء واولاد وكلهم يصيحون ليحيى بورجونيا .

فقال في نفسه : لا شك ان هذا الدوق يريد ان يضرب الضربة الكبرى ،

فاذا خرجت من المنزل سحقوني سحقاً وإذا بقيت فيه هاجموه كا هاجموه من قبل فأموت من غير فائدة كا قال الساحر .

وخير ما أراه ان اذهب الى منزل الساحر فاقيم فيه .

ولما أقر على ذلك رأى انه لا بد له قبل انصرافه من زيارة الأقبيـــة لغرضين :

احدهما ان يملأ بطنه من الخمر والثاني ان يملأ كيسه من المال .

اما الخمر فقد كان لديه منها مقدار كبير ، وأما المال فلم يكن لديه منه غير مهر روزالي فملأ منه كيسه دون ان يقرعه ضميره لاعتقاده انه سينفق ما أخذه في سبيل إنقاذ هاردي وصيانة المهر ، وبرح المنزل .

وكان الوقت وقت الظهر ، فبعد ان خرج بخمس دقائق جاء رجـل الى منزله راكضاً وكان هذا الرجل رسول ساتان .

أما شاتليت فقد وصـل في تلك الساعة الى ساحـة الاعتصاب وامتزج بالجماهير ..

وكان الهياج قد سكن وسكتت الأجراس ولكنه رأى ان جميع المخازن مقفلة ورأى ملامح الوعيد بادية في جميع الوجوه .

ورأى العصابات تتقدم فجعل يسير في أثرها دون ان يعـلم الى اين تسير الى ان وصلوا إلى ساحة الاعتصاب وهناك تغيرت المناظر وخفتت الأصوات وترامت الأنظار الى جهة واحدة في وسط الساحة .

فنظر شاتليت فرأى مشنقة منصوبة ورأى الجلاد وأعوانه واقفين ينتظرون وصول المحكوم عليه .

وكان شاتليت يعرف الجلاد وهو رجل ضخم الجثة هائل الخلقة ولكنه لم يرَ ذلك الرجل بل رأى مكانه رجلاً ضعيف البنية ناحل الأعضـــاء هزيل الجسم فقال في نفسه : ما هذا التغيير ومن هـذا الذي يشنقونه وما هـذه المحرقة المنصوبة ايضاً بجانب المشنقة .

وكان رجل من البورجونيين واقفاً بجانبه فسأله عما يجري .

فقال له البورجوني . لا شك انك قادم من الريف.

قال : هو ذاك وقد وصلت الآن .

قال : إسمح لي ان انصحك في البدء نصيحة .

ـ ما هي ؟

هي ان تضع على يدك إشارة صليب احمر كي لا يسيئوا الظن فيك ، فانك تعلم..

ـ اني لا اعلم شيئاً ، فأرجوك ان تشرح لي هذه الألغاز .

ـ إذن فاعلم انك اذا لم تلبس الإشارة حسبك الناس من جماعة ارمانياك

ـ أأنا اكون من أشياعه قبحه وقبح رجاله؟

ـ أرى انك من كرام الناس ، ألا تهتف مع الهاتفين للدوق دي بورجونيا ؟

ـ كيف لا وإني مدين للدوق بجميل أرجو ان افيه .

ـ هذا هو يوم الوفاء ، فانك ستجد فيه خير فرصة ، ولنعد الآن الى ما سألتني عنه من أمر هذه المشنقة التي تراها ، فانهم سيبدأون عند الظهر بقطع يمين المحكوم عليه ثم بقطع لسانه .

ـ الحق اني لا اريد ان اكون مكانه .

فضحك البورجوني وقال : ولا انا . انظر الى هذا الرجل الذي يحمل مشعلاً ..

ـ أهذا هو الراهب ؟

ـ نعم انهم ثلاثة ، فانهم سيضعون المحكوم عليه بعد تشويهه فوق تلك الأحطاب ويضرم النار فيها حامل المشعل فيموت بالنار اذا بقي فيه رمق بعد قطع يده ولسانه ، ويظهر ان هذا الرجل من أعداء الدوق .

ـ ماذا يدعى ؟

ـ الشفاليه دي باسافان .

فصاح شاتليت صيحة أخفاها تحت ظواهر السعال وشعر ان الارض تميد به ، فقال البورجوني دون ان ينتبه لاضطراب شاتليت :

انهم حاكموه بالسر محاكمة سرية بمساعي الدوق وسينفذ فيه الحكم كا ينبغي بالرغم عن الحادث الذي حدث في صباح هذا الصباح .

ـ ماذا حدث ؟

ـ حدث انهم ذهبوا لإحضار الجلاد فوجدوه ميتاً في فراشه ، ولكنهم وجدوا لحسن الحظ رجلاً يخلفه وهو هـذا الرجل النحيف الذي تراه واقفاً على المشنقة .

فترك شاتليت عنـد ذلك البورجوني وتقدم من المشنقة وهـو يقول في نفسه :

لا شك ان هذا الساحر قد خدعني وأقامني في منزلي كي لا أستطيع إنقاذ هاردي ولكني استطيع الانتقام ، وسأذهب الى الساحر وأدخل اليه بالرغم عنه وأخنقه بيدي .

* * *

لقد تركنا شاتليت في الفصل السابق واقفاً قرب المشنقة وقد عول على الذهاب الى ساتان وخنقه انتقاماً منه .

ولكنه لم يستطع ان يذهب اليه وقد شعر بجاذب عظيم يجذبه الى المشنقة في حين انه كان يؤثر الموت على ان يرى عذاب صديقه .

ولم يعد بينه وبين المشنقة غير صف واحـد من الجنود ، وعنـد ذلك حان وقت الظهر فسمع الرهبان يصلون صلاة الموت ، ثم اصوات الجماهير تقول :

هذا هو .. هذا هو .

فارتمدت فرائص شاتليت ونظر الى مصدر الأصوات فلم يرَ صديقـه لكثرة تجمهر الناس .

ولكنه كان واثقاً انهم قادمون بصديقه المنكود وانهم سيصعدون به الى المشنقة بعد هنيهة .

فاحمرت عيناه وارتجفت شفتاه وهاجت عوامل الإشفاق والصداقة فتفجرت في فؤاده وقال بصوت أبح :

إنه لا يموت وانا على قيد الحياة ، فأما ان أموت او انقذه من الموت .

ففي صباح ذلك اليوم حين كان شاتليت يسمع صيحات الشعب من منزله ويتردد بالخروج من ذلك المنزل كان ساتان قد دخل الى منزل هرمين التي كانت تقيم فيه لورنس دي ابزيم والدة روزالي .

وذلك ان ساتان جزع جزعاً شديداً للخطر المحدق بهاردي لأمرين احدهما انه بات يحبه ويميل اليه ميلاً خاصاً ، وثانيهما انه كان يعتمد عليه بالانتقام من الدوق دي بورجونيا .

وكان قد ذهب الى قصر سافت بول وأقام فيه عدة ساعات ، فلما خرج منه كان واثقاً انه لا حيلة في إنقاذ هاردي غير انه كان له بذلك رأي سيتضح للقراء .

وقد عاد الى منزله ففتح خزانته الحديدية الكبرى التي كان يخبيء فيها ثروته وأخرج منها تلك الورقة التي كان أراها مرة لهاردي ، فتمعن فيها وقال :

هذا هو السلاح الذي يفعل بالدوق دي بورجونيا اكثر مما يفعل به الخنجر والسم وثبوت التهمة عليه انه هو قاتل الدوق .

أما وقد سجن هاردي ، فمن الذي اقلده هذا السلاح غير لورانس دي ابزيم ؟

وقد طوى تلك الورقة فوضعها في جيبه وذهب الى لورانس وسوف نرى ما يكون منه .

٦٥

في قصر الملك

ولنعد الآن إلى قصر الملك فان برسكايل وبرنكايل وبراكايل كانوا يقيمون فيه في غرفة كبيرة ملاصقة لقاعة الملك .

وانما اقامهم بجواره كي يستطيع مجالستهم حين يشاء . فقد باتوا ندماء ، لا يستطيع الابتعاد عنهم واخصهم برنكايل فقـــد كان ممتازاً عن رفيقيه باضحاكه .

ففي ذلك اليوم الذي وقف فيه شاتليت تحت المشنقة وذهب ساتان الى لورنس كان اولئك الثلاثة مجتمعين في غرفتهم يتداولون وقد وضعت أمامهم المائدة وعليها كل ما طاب من الطعام والشراب فانهم لم يقلدوا الرهبان بملابسهم فقط بـــل بعيشهم بحيث سمنوا بعد الهزال كأنهم حقيقة من الرهبان .

غير أنه من غريب أمرهم إنهم لم يكن لهم شهية في هـــذا اليوم حتى برنكايل فانه جعل يستعيض عن الطعام بالشراب .

وكانت علائم الاضطراب بادية عليهم وبرسكايل مطرق يفكر الى ان رفع رأسه وقال لرفيقه :

لقد دنت الساعة فلم يبق سبيل للرجوع فقد جاءني رسول مولاي الدوق وقال لي :

اليوم عند الظهر يجب ان تقضوا الأمر وتقتلوا الملك .

فقال براكايل : كيف تطاوعنا قلوبنا على قتل مثل هذا الملك الطيب .

وقال برنكايل : وإذا قتلناه فمن يسقينا مثل هذا الخمر الفاخرة ؟

فقال برسكايل : لا شك عندي فيما تقولان فان لأمر منكر ولكن ليست

هذه المرة الاولى التي جردنا فيها خناجرنا لخدمة الدوق دي بورجونيا.
فشرب برانكايل جرعة كبيرة وقال :

نعم اننا قتلنا كثيرين في خدمته ولكنناناقاتل اعداءه قتالاً منظما نخاطر فيه بارواحنا فاذا امرنا ان نهجم على سيد يحيط به خدمه وحراسه وحين أرى السيوف تلمع اهجم على هذا السيد فاقتله دون خجل .

أما هذا الملك فانه بات يثق بنا كل الثقة ونحن عازمون علـى ذبحه كما يـذبحون الخرفان ولذلك لا اطيـق ان يكون جالساً على كرسيه ينـاديني قائلا :

ادنمني يا برانكايل المحترم واضحكني فأدنو منه ثم اطعنه كلا لا استطيع الاقدام على هذا الأمر الفظيـع فليفعله سواي .

فجعل برسكايل وبركايل ينظر كل منهما الى الآخر وقد توجسا شراً من رفيقهما فقال بركايل :

أنـه إذا اراد برنكايل حماية الملك قتلناه ايضاً وبذلك يكون القتـال الذي أراده .

فقال برنكايل : إذن لنقتتل فـاني لا أريد ان يمسوا الملك والويـل لمن يؤذيه .

فجرد براكايل خنجره وقال : اتنذرني بالقتال ؟
واقتدى برانكايل به فدخل براسكايل بينهما وقال :
اخفضا السلاح واصغيا الي .

اننا لا نستطيـع مقاومة الاقدار فقد قضي على الملك بالموت ولا بد ان يموت فانا سأقتل الملك يا برنكايل وانت اغمض عينيك إذا كنت لا تريـد أن ترى .

وهناك أمر لا أراك تنتبهاليه وهو انك ستقضي علينا جميعاً بالموت لتطيل بضعة أيام في عمر ذلك المجنون فافترض انا أبينا قتل الملك فانهم يستبدلوننا

بغيرنا فيقتلون الملك أما نحن فان الدوق يحرقنا بالنار فامتثل ايها الصديق فلا فائدة من المكابرة .

فاغمد برنكايل خنجره وقد اقنعه هذا البرهان فقال :

إذا كان ذلك فلنهرب فقد بات لدينا من المال ما يكفينـا ويغنينا عن خدمة الدوق .

فهز برسكايل كتفيه وقال :

لقد فكرت بالهرب قبلك فان قتل هذا الملك المنكود يروعني كما يروعك ولكن الهرب مستحيل أتعلم من هو الحاكم المطلق في قصر الملك منذ ساعة ، انه تونفيل وان جميع حراس الملك فيه قـد استبدلوا بحراس الدوق بحيث بات الملك اسيراً في قصره وبتنا أسرى معه فلا سبيل لنا وله الى النجاة .

فاطرق برنكايل برأسه وقال :

مسكين .

فاتقدت عينا برسكايل لما رآه من اذعان برنكايل واقناعه فقال .

حسناً فلم يبق علينا إلا ان ننتظر الإشارة عند الظهر واصبرا ايهـا الصديقان فسيكون ذلك آخر ما نعمله وغداً نصبح اغنياء بفضل ما سنقبضه من الدوق ونذهب الى حيث نشاء .

فاطرق برنكايل إذ خطر له خاطر فجائي وقال :

اني لم أفهم شيئاً مما يجري غير اني أرى انه إذا قتلنا الملك قضى علينا فاذا كان رجال الدوق يحتلون القصر وكان تونفيل الحاكم المطلق فيه فلماذا لا يقبضون على الملك فيسجنونه أو يقتلونه بخناجر البورجونيين. اجبني على هذا السؤال .

فلم يجد برسكايل ما يجيب به وجعل ينظر إلى رفيقه نظرات رعب فقال برنكايل .

انكما لا تجيبان ولكني اتولى الجواب عنكما فاعلما ان السبب في ذلك هو ان الدوق دي بورجونيا لا يريد ان يتهم بقتل ملك فرنسا لأنه يريد ان

يكون هو الملك ولأنه لا يريد ان يهيج الشعب عليه بهذا القتل الفظيع .
بل انه يريد أن يظهر للشعب قاتلي الملك وبعد ان يلبس التاج يكون أول ما يعمله أنه يرسل إلى المحرقة اولئك الذين قتلوا ابن عمه شارل وهم برسكايل وبراكايل وبرنكايل .
فضرب برسكايل جبينه بيده وقال :
لقد انقذتنا يا برنكايل فكيف لم افطن لهذا ؟
ـ كيف انقذتكم ؟
ـ بهذا الخاطر الذي ابديته فاذا لم نهرب قبل قتل الملك قبضوا علينا وحاكمونا وكان جزاؤنا ما قلت .
ـ ولكن كيف نهرب ألم تقل ؟
ـ قلت أنه يجب ان نسرع بالفرار فاسرعوا قبل أن يحين الظهر .
وقد أخذوا يقتسمون ما لديهم قسمات حتى إذا تمت القسمة مشى برسكايل أمامهم وقال ؟
هلم قبل أن نسيل الدماء في هذا القصر .
وعند ذلك فتح الباب وظهر منه تونفيل فقال :
هل انتم متأهبون ؟
فذعر الثلاثة ذعراً شديداً غير أن برسكايل كان أربطهم جأشاً فقال :
اننا متأهبون لكل شيء يا سيدي ونحن ننتظر الإشارة كما ترى .
ـ حسناً فاعلموا الآن ان مولاي الدوق يريد بعد قضاء الأمر ان لا تقيموا لحظة في القصر ولا في باريس وقد أرسل لكم هذا الكيس تسهيلاً لفراركم .
ثم وضع كيساً كبيراً محشواً بالدنانير فقال : اقتسموه .
ففرح برسكايل لأن هذه الحيلة جازت عليه وفرح براكايل بهذه الأموال أما برنكايل فبقي مقطب الجبين .
وعاد تونفيل الى الحديث فقال :

انكم بعد قتله تنزلون من السلم الصغير وتخرجون من القصر فتسرعون الى اليمين .

وهناك تجدون رجلا ينتظركم ولديه ثلاثة جياد فاركبوها وتخرجون من باريس الى حيث تشاؤون .

فأجابه برسكايل قائلا :

اننا سلنفذ الأمر بالتدقيق فبعد القتل بنصف ساعة نكون خارج باريس .

والآن فاننا نتأهب التأهبات الأخيرة فتفضل ودعنا وحدنا إذا أحببت.

فقال : سأدعكم ولكني اخبركم ان الدوق على شدة ثقته بكم رأى أنكم قد تحتاجون إلى مساعدين فانظرا .

ثم فتح بابا يشرف على قاعة مجاورة فرأوا نحو عشرين جنديا مدججين بالسلاح .

فنظر برسكايل إلى تونفيل فرأى علائم التهكم بادية بين عينيه وكذلك رفيقاه فقد فهما ذلك بدليل اصفرار وجهيهما .

وقد قطب برسكايل حاجبيه وقال في نفسه .

انهم يراقبوننا وسنقتل الملك ثم يقبضون علينا دون شك .

وقد ذهب تونفيل وساد سكوت الموت على الثلاثة ثم سمعوا أول دقة من دقات ساعة القصر فجعلوا يعدونها حتى بلغت اثنتي عشرة دقة فهلعت قلوبهم من الرعب .

وعند ذلك سمعوا صوت الملك يناديهم ويقول :

اين النساك ، اين برنكايل اني أريد ان يعالجوني ، اريد أن أضحك .

فدخل رجل من رجال تونفيل وقال لهم :

اسمعتم ؟

فأجابه برسكايل بصوت متلعثم قائلا :

نعم فهذا وقت الظهر .

ـ ان الملك يدعوكم فاذهبوا اليه واضحكوه واخرجوا الشيطان منه .

ثم مشى الثلاثة بين الجنود الى غرفة الملك والخناجر بأيديهم .

وعند ذلك سمعوا صوتاً بعيداً خارجاً من غرفة اوديت .

وكذلك الملك فانه سمع هذا الصوت ايضاً ، فنهض عن كرسيه وأخذ يصغي ويقول :

انهم يقتلون في قصري .

ثم مشى الى الباب ، ولكن الباب فتح قبل ان يصل اليه ودخل منه النساك الثلاثة .

***

يعجب قراء الروايات عادة حين يقرأون حكاية كثيرة الحوادث ويرون ان جميع هذه الحوادث قد اجتمعت بعد تفرقها وامتزجت في حين واحد على مرسح تلك الرواية .

وقد عجب مؤلف هذه الرواية نفس عجب القراء من اجتماع كل حوادث روايته في ساعة واحدة وهي ساعة الظهر ومسير جميع ابطالها كالملك وهردي والساحر وايزابو والدوق دي بورجونيا واوديت ولورانس الى نقطة واحدة ذلك عدا عن تونفيل وغليوم والنساك ولذلك رأى ان يبحث عن كل عضو من اعضاء هذه الرواية على حدة كي لا يلتبس فهم هذه الحوادث على القراء وهذا بيان ما كان يعمله هؤلاء الاعضاء في ساعة واحدة .

ايزابو دي بافيير

لقد رأيناها دخلت الى قصر الملك وهي عازمة عزماً اكيداً على قتل اوديت غير مكترثة لشيء من الاخطار فاما تفوز بقتلها أو تموت .

وكان أول من لقيته حين دخلت الى القصر غليوم فارتابت لفورها بالدوق وحسبت انه اقامه هناك لحراسة اوديت فدنت منه وقالت له :
ماذا تعمل هنا ؟
ـ لست وحدي هنا يا سيدتي بل نحن ثلاثون من البورجونيين .
وقد غمز بعينه إشارة أنه يعلم بأن الملكة شريكة مولاه الدوق .
غير ان الملكة لم يقنعها هذا الجواب فقالت له بلهجة المغضب .
ماذا تعملون هنا في منزل اوديت دي شامديفر ؟
فذهل غليوم وقال : اوديت ؟
ذلك انه لم يكن يعلم ان هذه البنايات خاصة بالفتاة ولكنه رأى ان غضب الملكة عظيم وانها وضعت يدها على قبضة خنجر ، انحنى أمامها بملء الاحترام وقال :
كلا يا سيدتي انا في قصر الملك ونحن محدقون به وقد حللنا فيه محل حراسه .
فتنهدت الملكة تنهد المتفرج وقالت في نفسها .
لقد نسي الدوق غرامه وأخذ يهتم بالجد ولكن بشرط ان يكون هذا الرجل صادقاً فيما يقول :
ثم قالت له : لا تنتقل من هذا المكان .
ـ هذا هو الأمر الذي تلقيته يا سيدتي .
فارتعشت الملكة سروراً ومشت الى غرفة اوديت .
وكانت جميع الأبواب مفتوحة وليس هناك أحد من الحراس بحيث كان المنزل خالياً كما كان حين اطلقت النمرة .
وقد رأتها أوديت دخلت اليها فجأة فذعرت منها أشد مما ذعرت من النمرة وايقنت انها قتيلة لا محالة فلم تفتكر بوسيلة النجاة بل وقفت تنتظر الموت .
أما الملكة فانها دنت منها وقالت لها :

قد التقينا أيضاً وجه لوجه وها أنا اقول للمرة الثانية .

أتريدين ان تذهبي من هنـا ، أتريدين ان تدعي لي السلطة وحـدي ، أتريدين ان تتخلي عن الملك ؟

وقد عدت اوديت هذه الجملة الأخيرة اعظم اهانة لها فانفت ان تجيبها عليها وضمت يديها الى صدرها وادارت وجهها .

فجردت ايزابو خنجرهـا وكانت ترتعش وقد اصفر وجههـا واحمرت عيناها فقالت بصوت يتهدج .

اتريدين التخلي عن هردي دي باسافان ؟

وكانت نبرات صوتها هذه المرة تدل على ان قلبهـــا الذي كان يتكلم لا لسانها .

أما اوديت فقد تنبهت فيها عواطف الحب عندما سمعت هردي فنسيت موقفها وقالت بصوت رقيق .

باسافان !

— نعم هو ذلك الذي تحبينه وأحبه فهل تتخلين عنه ؟

وعند ذلك سمعت ايزابو وقع خطوات في القاعة المجاورة فالتفت فرأت الدوق دي بورجونيا قادماً .

اما اوديت فانها اجابتها بملء السكينة قائلة .

كيف تريدين ان اتخلى عنه وانا احبه .

فلم تكد تتم حملتها حتى انقضت عليها ايزابو بخنجرها وطعنتها طعنـة هائلة فصاحت اوديت صيحة ألم وسقطت على الأرض .

وعند ذلك دخل الدوق دي بورجونيا واسرع راكضاً الى ايزابو .

الدوق دي بورجونيا

وأما الدوق فكان قد تبع الملكة واقتفى اثرهـا كما تقدم حتى وصل إلى حيث كان واقفاً عليوم .

وقد اراد عليوم ان يكلمه ولكنه دفعه بيده وسار الى غرفـة اوديت وكان يتقدم وهو خائف ويقول في نفسه .

اني اذا انقذت الفتاة فان الملكة تذهب إلى الملك وتشي بي وتفضح امر المكيدة .

ولكن حبه لأوديت هوّن عليه الاخطار فقال: اني قد أتخلى عنها ولكنني لا أريد أن تموت .

وقد اسرع عند ذلك إلى القاعة وحين تبلغ بأنها رأى اوديت قد سقطت صريعة إلى الأرض فصاح والذعر ملء قلبه قائلاً :

رباه أماتت ؟

فاستقبلته ايزابو بملء السكينة وقالت له :

نعم فان من أطعنه لا يحيى .

— اقتلها ؟

— نعم بحيث لم يبقَ حائل بيننا بعد ان قتلت التي تحبها .

فطاش رأس الدوق وجعل يسير يمنة ويسرة ثم وقف امام اوديت ورأى الدم يسيل من صدرها فهاج ثائر غضبه وجرد حسامه وهو يقول :

انك ما زلت قتلتها ..

فقالت ايزابو في نفسها :

انه قاتلي لا محالة .

ولكن الدوق قبل ان يتم كلمته رأى ان احد ابواب هذه القاعة قد فتح

ودخل منه رجل مضطرب الوجه متقد العينين لا يكاد يعرف لاضطرابه .
ولكن ايزابو والدوق عرفاه في الحـــال وذعرا ذعراً عظيمــاً وصاح كلاهما قائلين :
باسافان .. باسافان .
فأجابهما هردي وكان هو الداخل .
نعم انا هو هردي دي باسافان .
ولا ندري إذا كان رأى اوديت صريعة على الأرض ولكنه عجم بحسامه المسلول على الملكة .
فوثبت الملكة إلى الزاوية وصاحت قائلة :
أيها الدوق اني قتلت التي تحبها فاقتل الذي كنت احبه .
فانقض الدوق على هردي واشتبك السيفان .

اوديت

بعد ان أصيبت اوديت بطعنة خنجر ايزابو صاحت تلك الصيحـة التي سمعها الملك حين دخل اليه برسكايل وبراكايل وبرانكايل .
وقد ضاع رشدها للفور ولكن ذلك لم يدم طويلاً فانهـا كانت تسمـع اصواتاً وتبذل جهداً عنيفاً كي تتبين تلك الأصوات شأن المضطجع وهو بين النوم واليقظة .
وكانت ملقية على الأرض لا حراك بهـا والحياة تسيل من جسمها مـع ذلك الدم الذي يسيل من صدرها .
ولكنها مع ذلك كان الرشد يعود اليها تباعاً حتى عرفت صوت الرجلين وبقي ان تعلم ما يقولان .
فلم تستطع ان تعلم غير انها كانت تعلم من النبرات انهما صوتا عدوين يقتتلان .

ثم عرفت فجأة صاحبي الصوتين فارتعشت حباً ورعباً .

وعند ذلك بذلت جهداً عنيفـاً وفتحت عينيهـا فرأت هردي والدوق فنهضت بعناء عظيم ولم تلبث ان وقفت حتى وهت قواها وسقطت .

ولكنها لم تسقط على الأرض بل شعرت ان يديها قد سقطتا على كتفين وان رأسها قد انقلب على أحد الكتفين وقالت بضع كلمات .

هردي

وأما هردي فانه خرج من السجن يخفره السجان حتى وصل الى قرب قصر الملك فالتفت إلى سجن هيدرون الذي كان فيه فرأى الجنود عنده .

فقال له السجان : انهم قادمون اليك السير بك الى ساحـة الاعتصاب وسيعلمون قريباً بفراري وفرارك اما انا فذلك سيان عندي وأما انت .

فابتسم هردي وقال : ماذا يجري بي ؟

— انهم يقبضون عليك فيقتلونك وابكيك ولكني أتعزى بمرور الزمن .

أما هي فانها إذا مـاتت فلا أجد عزاء ولذلـك لم اطلق سراحك من اجلك بل من اجلها .

— ولماذا تحسب انها ستموت ؟

— لأنك اذا مت ماتت لا محالة وأنا على يقين من ذلك ألم أقل لك انها حين كانت تأتي إلى السجن لم تكن تـكلمني إلا عنك فهي لا تحيى إلا بك فاذا قتلوك فماذا يصيبها .

فكان هردي يسمع هذا الكلام كما يسمع المطروب الحاناً شجية .

ومضى السجان في حديثه فقال :

انك اذا عملت بنصحي وجب عليك ان تخرج الآن من قصر سانت بول بطريق ارشدك اليها فتختبىء في مكان في باريس و ..

فقاطعه هردي قائلاً : اسكت .

وكانت الملكة عند ذلك قد مرت وحدها على مسافة عشرين متراً من موقفها فقال له السجان :

أرأيت : انك اذا دخلت القصر كنت من الهالكين .

فلم يحفل هردي بكلامه وقال : هلم بنا .

وقد حاول ان يندفع ولكن السجان قبض على ذراعه وقال له :

تعال . تعال . انظر إلى هذه الجهة .

فقال هردي : انه الدوق دي بورجونيا .

— بل هو الموت .

وكان الدوق قد دخل الى قصر الملك في او ايزابو .

فوضع هردي يده على جبينه وقال :

انهما دخلا الى القصر ولا شك انهما ينويان امراً هائـــلا .. ايزابو .. الدوق.. اوديت .

وعند ذلك هاج هياجاً عصبياً وشعر كأنما اوديت تناديه فقال :

« انها في خطر » .

ثم اندفع وثباً فتبعه السجان .

وقد بلغ قصر الملك ودخل اليه كأنمـا جميع تلك التأهبات التي اجرتهـا ايزابو لاخلاء القصر انما فعلتها لخدمة هردي .

وكان السجان يقود خطواته إذ لم يكن عارفاً بمداخل القصر فسار أمامه إلى المكان الذي تقيم فيه اوديت .

حتى اذا انتهى الى حيث كان واقفاً غليوم قائلا :

قف .. الى الوراء .. رباه اني لا اصدق عيني انه هردي .

فصاح هردي قائلا :

غليوم .

فوقف غليوم حائراً مذعراً كأنما الشيطان قد تمثل له بصورة هردي .

أما هردي فانه حين رآه اتقدت عيناه ببارق مخيف فجرد سيفه وقال له :

دافع عن نفسك اذا استطعت .

فلم تكن غير لحظة حتى اشتبك السيفان وجعل غليوم يقاتل وينادي الدوق تحذيراً له .

غير ان هردي لم يمهله وطعنه تلك الطعنة الهائلة التي طعن بها رفيقيه من قبل وهو يقول :

لم يبق حياً من عصابتكم غير زعيمكم تونفيل .

فسقط غليوم قتيلاً .

فصاح هردي بأعلى صوته قائلا :

هردي : هردي دي باسافان .

وانما فعل ذلك كي يصل صوته الى اوديت فتعلم انه جاء لنجدتها .

ثم وثب الى الباب فرفسه برجله ومشى الى الدوق دي بورجونيا وسيفه مجرد بيده وهو مخضب بالدم .

وقد جرى بينهما حديث منقطع وانقض كل منهما على الآخر .

وكان الدوق من مشاهير الابطال المجربين في ذلك العهد فجعل يحمل على هردي حملات منكرة وقد احمرت عيناه وظهرت فيهما ارادة القتل .

فمرت دقيقة كان بريق العيون فيها أشد من بريق السيوف وكان هردي يشبه الصاعقة بانقضاضه ولا سيما حين رأى اوديت ملقية على الارض فانه صاح صيحة منكرة وهجم على الدوق هجوم القضاء المبرم .

فجعل الدوق يتراجع مدافعاً حتى بلغ الجدار .

وعند ذلك جعلت ايزابو تتقدم وخنجرها بيدها حتى وصلت الى هردي وهو مشتغل عنها بالدوق ورفعت يدها الاثيمة بذلك الخنجر الذي طعنت به اوديت وانقضت به على هردي من الوراء وهي تقول :

مت كما ماتت التي تحبها .

ولكنها لم تستطع ان تطعنه فان يداً من الحديد قد قبضت عليها وارجعتها الوراء .

فالتفتت الملكة وهي لا تعي لغضبها فرأت ان القابض عليها كان السجان ، وقد جرها جراً الى آخر القاعة وقال لها بلهجة احترام .

سيدتي دعيه يقتله او اقتلك .

وفي تلك اللحظة كان السيف قد طار من يد الدوق وشعر انـه لم يبق بينه وبين الموت غير لحظة ورأى سيف هردي قد برق وانه سينفذ إلى قلبه.

غير ان سيف هردي بقي واقفاً في مكانه من الفضـاء وقد دهش دهشاً عظيماً إذ رأى يدي اوديت تطوقان عنقه وسمع صوتها يقول :

هردي .. هردي .. دعني أموت ولكن لا تقتل أبي .

النساك الثلاثة

تقدم لنا القول ان برسكايل ورفيقيه دخلوا الى قاعة الملك بغية قتله .

وكان تونفيل واقفاً وراء باب هذه القاعة يراقب ومعه فريق من رجاله.

أما الثلاثة فانهم دخلوا إلى الملك دخول القانطين إذ أيقنوا انه لا بد لهم من قتل الملك فكان منظر برسكايل هائلاً وكانت هيأة براكايل تدل على القنوط ، أما برانكايل فانه كان يبكي .

وأما الملك فانه ذعر لما تبينه في وجوههم وصاح صيحة رعب وقال : لماذا هذه الخناجر في ايديكم ؟

وفي تلك اللحظة كان هردي قد قتل غليوم وصاح كي يبلغ صوتـه الى مسامع اوديت قائلاً :

هردي ، هردي دي باسافان .

فبهت الثلاثة لهذا الصوت الذي وصل إلى مسامعهم ايضاً وقال برنكايل .

انه هو بعينه .

أما الملك فانه قال لهم .

ماذا تريدون مني .. إليّ إليّ .. إليّ .. انهم يريدون قتلي .

وأعاد هردي ذكر اسمه ايضاً فقال برنكايل .

انه ينادينا .. ألا تسمعون ؟

فقال براكايل .

انه حين يدعونا لا نعرف سيداً سواه .

وقال برسكايل :

هلموا بنا .

فداروا دورة في القاعة واندفعوا خارجين .

وقد رآهم الملك انقضوا عليه ثم رآهم تواروا عنه فوقف حائرا مبهوتاً يحسب نفسه اصيب بكابوس النائم .

أما الثلاثة فانهم وثبوا الى الجهة التي خرج منها الصوت ، أي أنهم خرجوا من الباب المقابل الذي كان تونفيل ورجاله وراءه وساروا راكضين حتى انتهوا الى القاعة التي كان فيها هردي فرأوا ما كان يجري .

موت الملك المجنون

ومع ذلك فان تونفيل كان يصغي من وراء الباب ويرى بعين السمع تلك المعركة التي كانت تجري بين الملك وقاتليه وهو يمسح عرق جبينه من حين الى حين ويقول في نفسه :

انه يدافع خير دفاع وأخشى أن يظفروا به ثم الصق اذنه بالباب وجعل يصغي اتم الاصغاء .

أما الملك فانه بعد ان خرج الثلاثة من قاعته تلبية لصوت هردي وقف حائراً منذعراً مبهوتاً ثم هاج جنونه فخيل له ان اولئك الثلاثة لا يزالون هاجين عليه يريدون قتله فأخذ يصيح مستغيثاً مستنجداً وهو يقاتل تلك الخيالات لأنه لم يعلم انهم يريدون قتله إلا بعد انصرافهم ولم يكن يراهم ولكنه كان يرى نظراتهم الدموية وخناجرهم المسنونة فوقف وقال لهم وهو يعتقد انه يخاطبهم .

انكم تريدون اضحاكي أليس كذلك ؟

ثم استولى عليه الرعب واشتد به الجنون فجعل يدور في تلك القاعة كالطير الجريح والزبد يخرج من فمه .

الى ان وثب الى زاوية القاعة أي انه ابتعد عن النساك فوقف في تلك القاعة والخنجر مجرد بيده .

وهناك بدأت المعركة فخيل له ان الثلاثة هجموا عليه يريدون قتله وسمع برسكايل يقول له :

ألا ترى اني شيطان غابات منس .

وسمع براكايل يقول :

لنخنقه خنقاً فقد ازعجنا صياحه .

وسمع برنكايل يقول :

لندغدغه حتى يموت ضاحكاً فانه يحب الضحك .

فجعل يصيح قائلاً :

إليّ ، إليّ ، اني الملك .. انهم يقتلون الملك .. يا رئيس الحراس ويا أيها الجنود ويا ايتهـــا الاشباح .. إليّ .. إليّ أيهـا الخائنون من الذي ينقدكم رواتبكم .. انكم تخافون ان تطعنوا الملك .. نعم إني الملك ولكني ملك القتال وسوف ترون .

وكان تونفيل يسمع هـذه الاقوال من وراء الباب ويحسب ان القتـال ناشب حقيقة بين الملك والثلاثة .

أما الملك فانه هز خنجره بيده بعـد ان قال هـذا القول وهجم فجعل يطعن به الهواء يمنة ويسرة وهو يحسب ان الدماء تقطر من خنجره ويسكر بخمرة الانتصار .

وقد أخذ يدور في تلك القاعة كحجر الطحن فيمثر الأثاث وقلب الموائد وكسر الكراسي .

الى ان خيل له ان برانكايل قد قبض عليه من الوراء فأفلت منه بعنف وقبض على رجليه فجذبه وقلبه وجعل يديره بالفضـاء وبرنكايل يصيح فتهيج اعصاب الملك ويقول :

اضحك ايهـــا الابله فانه ضحك الموت ثم جلد برأسه الارض فتحطم برنكايل وكان قد استحال إلى كرسي .

ولكنه لم يلبث ان فتك ببرنكايل حتى أخذ يصيح صيحات رعب منكرة ذلك انه رأى برسكايل وبركايل قد هجما عليه بخنجرهما وجعلا يطعنان صدره .

ثم رأى برنكايل قد نهض وهو منفلق الرأس واستحال دم رأسه الى لهيب كان يمتد لسانه اليه فيحرقه .

وهنا جعل يصيح صيحات هائلة فيقول :

اليّ انهم يحرقونني .. انني في جهنم .. اليّ أيتها الاشباح .. الملك ، لقد قلت لكم انهم يقتلون الملك .

وعنـــد ذلك سقط على الارض بين الموائد والكراسي والاثاث المتبعثر ونظر فرأى النساك الثلاثة قـد رفعوا خناجرهم يريدون طعنه بها ، ولكنه رأى تلك الخناجر قـد استحالت الى افاعي وأن هذه الافاعي قد دبت اليه ببطء فصاح قائلا :

لقد مت .

ثم جف صوته واغمي عليه .

ولم يعد تونفيل يسمع حساً فأصغى هنيهة ايضاً ، ثم قال لرجاله :

لقد قضي الأمر ومات الملك .

فقـال بعضهم بلهجة صادقة : رحمه الله ، ورسم الجميع علامة الصليب على وجوههم .

أما تونفيل فانه فتح الباب برفق واطل منه مذعراً كأنه يخاف سكون الموت ورأى الاثاث المتبعثر في القـاعة ، ثم رأى الملك على الأرض في زاوية مظلمة وهو منبطح ويده فوق صدره .

ولكنه لم ير الثلاثة فقال :

ترى أين ذهبوا ؟

ثم رأى باب القاعة الآخر مفتوحاً فقال :

لقد عرف الخبثاء مصيرهم فهربوا من هـذا الباب ولكنهم لا يستطيعون الفرار فان حراسنا يخفرون جميع منافذ القصر .

وقد حاول تونفيل عنـــد ذلك أن يدخل الى قاعة الملك ، ولكنه لم يجسر وتراجع مذعراً خائفاً من الدنو من ذلك الميت فان هـذا الميت كان

صاحب الجلالة ، والسلطة المطلقة ، والقداسة ، فان الملوك كانوا مقدسين في ذلك العهد .

فاقفل الباب برفق كما فتحه ، ثم اقفله بالمفتاح وقال لرجاله :

هلموا نخبر مولانا الدوق ان الملك قد مات .

* * *

على ان تونفيل لو عاد بعد عشر دقائق الى هذه القاعة لرأى الملك جالساً على الارض يلاعب نفسه بالورق ويقول :

أين جاكمين المصوراتي اريد ان اريه هذه اللعبة التي اخترعتها .

٦٦

روزالي

لقد وضحنا عمل كل عضو من أعضاء هذه الرواية عندما دنا الظهر بحيث كانوا يشبهون أولئك الممثلين الذين يمثلون بالسينما .

ولكن آلة السينما لها من يحركها فكانت ساعات باريس المؤذنة بالظهر تحرك هذه الآلة .

وقد سادت السكينة في ساحة الاعتصاب وتجمهر الناس في تلك الساحة حول المشنقة وجعل كابوش حليف الدوق وزعيم العامة يسير ذهاباً وإياباً وهو مضطرب الاعصاب ينتظر ساعةِ العمل .

وكان شاتليت صديق هاردي واقفاً في أول الصفوف ينتظر ويمثل له حبه لهاردي انه يستطيع ان يفتك بجميع هذه الجماهير لانقاذ صديقه .

وتفرقت العصابات في جميع أنحاء باريس ، وكلهم ينتظرون الاشارة الاخيرة وهي دق جرس نوتردام .

ففي الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم كان ساتان قد دخل الى غرفة لورانس والدة روزالي في منزل هرمين .

وكانت لورانس هناك فرأت ساتان واضطربت كما يضطرب الحيوان السجين امام روضه وحاولت الفرار ولكنها شعرت انها لا تستطيعه وان نظرة واحدة من الساحر كافية لاكراهها على الامتثال .

أما هرمين فانها حين دخل الساحر الى حنة (لورانس) صلت صلاة موجزة ، ثم دخلت فوقفت بينه وبينها وقالت له :

اني اعرف من أنت فاني كنت أراك مراراً تمر في هذا الشارع حين هبوط الظلام بردائك الأحمر لتعذب الأحياء فأخافك واهرب منك ، كما كان يهرب مثلي كثيرون من الرجال .

ذلك لأن جميع الناس يعرفون مقدار سلطتك ويعلمون اتصالك بارباب الحكم ، ولولا ذلك لما تركوك تخطو في الشوارع والأسواق ، لتعذيب المسيحيين .

أما أنا فاني لم اعد اخافك الآن فقل لي ماذا تريد من حنة ؟

انها صديقتي وقد حكت لي كل ما جرى لها فهي تعرف الخياطة والتطريز والقراءة والكتابة وكل ذلك يدل على انها من النبيلات .

غير انك اردت ان تجعلها في منزلتي ، فلماذا ؟

وهنا توقفت عن الكلام وهي معجبة بنفسها كيف انها تجاسرت على ان تقول للساحر هذا القول .

وكان ساتان يصغي الى حديثها وهو يبتسم فقالت :

انك أردت انزالها الى الدرك الأسفل واقمتها في شارع المومسات ولكنها لم تقم في ذلك الشارع بل لقتني واقامت معي ، فماذا تريد منها الآن ؟

قال : اني أريد انقاذها ورد حقوقها اليها ولا استطيع ذلك إلا بعد ان أرد اليها ذاكرتها فتعلم من هي .

ــ تعيد ذاكرتها ؟

ـ انك لا تفهمين ذلك ولا يتسع وقتي لافهامك فاذا اردت نجاة صديقتك فلا تزعجيني .

ـ كيف ازعجك اذا كنت تريد نجاتها ؟

ـ إذن ، إبقي ، ولكن احذري ان تقولي كلمة ، أو تشيري إشارة واقيمي في هذه الزاوية ، واعلمي انك اذا فهت بكلمة لا اكون مسؤولاً عن ذاكرتها .

ـ ذاكرتها .. رباه ، ماذا تريد ان تصنع ؟

وصاحت لورانس قائلة :

هرمين .. هرمين لا تتركيني .

فأخذ ساتان يد هرمين بعنف وذهب بها الى زاوية الغرفة فقال لها :

اجلسي هنا واذكري ان أقل كلمة تبدو منك حين أكلمها تقتلها أو تجعلها مجنونة لا شفاء لها ، فاذا كنت تحبين هذه المنكودة فاعملي بما اقوله لك .

فامتثلت هرمين لأمره وعاد ساتان الى لورانس فقال لها :

أي لورانس دي ابزيم ماذا تصنعين هنا وروزالي تنتظرك وتدعوك ؟

فلاحظت هرمين ان لورانس قد هدأ رعبها حين كلمها الساحر ، وجعلت تنظر اليه مندهلة ، ثم قالت كل ما تلقنته ، كما يتلقن التلميذ الأمثولة .

انك تعلم يقيناً اني أدعى حنة واني اعيش وحدي وسل جميع سكان الشارع يخبروك اني اقيم في هذا الشارع منذ اثني عشر عاماً .

فدنا ساتان منها وضغط على رأسها ضغطاً خفيفاً عدة مرات ، ثم اخذ يديها بين ذراعيه وقال لها :

انظري الى ما حواليك وانتبهي .. ماذا ترين وأين أنت ؟

ـ اني في منزلي .

فقال لها بلهجة الآمر :

كلا ، بل أنت في منزل باسافان انظري ، ماذا حدث ولا تكذبي .

فارتعشت واصطكت اسنانها ، واصيبت هرمين برعب شديد شغلها عن

الصلاة ، وسال العرق من جبين ساتان لفرط ما بذله من الجهد فزاد الضغط على يديها فصاحت صيحة رعب وقالت :

اني اثنتان في واحدة فأنا لورانس وأنا حنة .

ـ كلا ، بل أنت لورانس فقط .

ـ كلا ، اني اثنتان .

فحدق بها ساتان تحديقاً طويلاً ، ثم اخرج زجاجة من جيبه وقال لها : اشربي ما في هذه الزجاجة .

فامتثلت لورانس وشربتها للحال .

فقال لها : ان روزالي تنتظرك وتدعوك ، ألا تريدين ان ترى بنتك يا لورانس دي ابزيم .. بنتك روزالي .

روزالي ؟

وقد عادت اليها ذاكرتها بضعف وانجلت لها الأشياء كما تنجلي على نور ضعيف فقالت بانذهال عظيم :

روزالي .

ـ نعم ، فهنا منزل باسافان ، وهنا الغرفة التي تحولت الى هيكل ، وهنا احتفل بزواج لورانس دي ابزيم بجان دي بورجونيا .

اما الكاهن الذي عقد الزواج والشهود مضوه فقد ماتوا جميعهم ولم يبق غير شاهد واحد .

وكانت لورانس تصغي الى اقواله بانتباه تام ؛ فكانت تؤثر عليها أعظم تأثير .

ولم يكن غرض ساتان ان يعيد اليها الصواب فانها لم تكن مجنونة ولكنه كان يريد تحويل ذاكرتها من طور الى طور .

وقد اشربها ذلك الشراب الذي سقاها إياه ودلك رأسها وحدق بعينيها فاتم ذلك التحويل واستمر في حديثه فقال :

نعم ، وهنا سقتك الملكة ايزابو ذلك الشراب ، وهنا طعنك عشيقك بذلك الخنجر ، وهنا افترقت عن بنتك روزالي .

فأين هي بنتك الآن .. ان روزالي تدعـــوك وأنت لورانس دي ابزيم، تترددين بالذهاب اليها ؟

فمضت لورانس يدها وقالت :

اني لا اتردد ولكني لا أعلم .

ـ ألا تعلمين الآن ان لك بنتاً ؟

ـ نعم ، نعم ، واعلم انها تدعي روزالي .

ـ ماذا جرى لحنة .. تكلمي بحرية .. اني انقذتك من قبـل واستطيع إنقاذك الآن فقـولي الحقيقة عن حنة التي عرفتها زمناً طويلاً ، فاني أريد أن أراها .

ـ كلا ، فاني لا اعرف في حياتي تلك المرأة التي تـكلمني عنها .

فصاحت هرمين التي كانت تسمع الحـديث صيحة رعب وسقطت جاثية على ركبتيها ونظرت الى أيقونة للعذراء فجعلت تصلي بصوت مرتفع .

فنظر اليها ساتان وقال لها بلهجة فرح عظيم :

ارفعي صوتك الآن قدر ما تشائين .

أما لورانس فانها لم تصل بل جعلت تنظر منذهلة الى كل من يحدق بها .

وقد نسيت أتم النسيان انهـا حنة ، وباتت تعجب من وجودها في هذا المـكان .

فقال لها ساتان :

أعرفت الآن من أنت ؟

فأخذت تبكي بكاء غزيراً ، ثم قالت :

ان اسمي عنوان الشقاء ، فلماذا تسألني عنه وأنت تعلم يقيناً اني ادعى لورانس دي ابزيم .

نعم ، اعلم ان لي بنتاً ، ولكنها ماتت ، فلماذا تثير اشجاني ؟

وقـد جعلت تشهق بالبكاء كأنها تلقت في تلك السـاعـة خبر موت بنتها ثم تقول :

أنت تعلم يقيناً ان بنتي قد ماتت ، فلماذا ..

وقد سكتت دون ان تتم جملتها ، فقال لها ساتان :

أتحبين إذن بنتك روزالي ؟

فصاحت صيحة منكرة فأنها رأت بنتها قد ماتت الآن أمامها وذلك انها باتت تحبها في تلك الساعة، كما كانت تحبها منذ اثني عشر عاماً فانها حين ردت اليها ذاكرتها عادت الى ذلك العهد الذي فقدتها فيه .

وعند ذلك قال لها ساتان :

لقد خدعوك يا لورانس فان روزالي لم تمت ولكنها في خطر وهي تدعوك فهل تريدين إنقاذها ؟

فأجابته بلهجة الوالهة قائلة :

هلم بنا . لنركض اليها .

– اصغ اليّ هنيهة فانك لا تستطيعين إنقاذ بنتك إلا اذا قتلت عشيقك ، فهل تقبلين ؟

فأجابته بلهجة وحشية قائلة :

أعطني سلاحاً .

– خذي .

فتراجعت لورنس مذعورة وكرهت ذلك الساحر الذي لم يذهب بها الى ابنتها ولهزئه بها ، فانه بدلاً من ان يقدم لها سلاحاً أعطاها ورقة فنظرت اليه نظرة إنكار وقالت له :

أبهذه الورقة تريد ان اقتل جان دي بورجونيا ؟.. احذر ايها الرجل ، فانك لا تعلم ماذا تستطيع ان تفعله ام هائجة .

– بل اعلم ولذلك وثقت بك ، فاصغي اليّ بملء جوارحك فان الوقت ضيق والدقائق معدودة .

ان عشيقك اليوم اصبح سيد باريس وسيد قصر سانت بول .

– هذه هي أمانيه القديمة .

– إذن لقد عادت اليك ذاكرتك بجملتها ما زلت تذكرين آماله .. نعم

هذه هي آماله وقد تحققت فبـــات السيد المطلـق وغصت شوارع باريس بالعصابات .

— وانه لم يؤلفها إلا لسفك الدماء .

— هو ذاك ولكن له شريكه .

فارتعدت لورنس وقالت :

نعم ايزابو .. الملكة .

— هو ما تقولين ، أما وقد عرفت هذا فاعلمي الآن ان بنتـك روزالي تقيم في قصر سانت بول ، وستعلمين كيف دخلت القصر ولماذا تقيم فيه

اما الذي يجب ان تعلميه في هذه الساعة فهو ان ايزابو تكرههـــا وقد اشترطت على جان دي بورجونيا ان لا تلبسه التاج إلا اذا قتل روزالي .

— هلم بنا ، هلم بنا .

فقبض ساتان على يدها كي يمنعها عن المسير وقال لها :

ماذا تصنعين؟ اتريدين قتل الدوق دي بورجونيا وهو بين جنده ورجاله؟ واذا وصلت اليه أتحسبين ان خنجرك يخرق درعه ؟

— تعال .. تعال لعنة الله عليه وعلى الملكة ، تعالي فاذا ماتت بنـتي تعزيت بالموت معها .

— ولكنك تستطيعين إنقاذها بهذه الورقة فاقرأيها .

فأخذت لورنس الصك وجعلت تقرأ والدموع تسيل من عينهـــا وهي ترتجف حتى اذا أتمت تلاوته قال لها :

ان جان دي بورجونيا أحرق جميع الأوراق في منزل باسافان حين تحول إلى هيكل ولكنه لم يظفر بهذا الشك .

وإني حين رأيتك طعينة ملقية على الأرض حملتك والدمـــاء تسيل من صدرك الى منزلي فعثرت وانا احاول حملك بهذا الصك الذي كان طرف ثوبك فوقه فلم يره جان .

انه صك زواجك بجان دي بورجونيا وهو قانوني وعليـه توقيع الزوج

والزوجة والكاهن والشهود والملكة ، أتعلمين انك تستطيعين قتل الدوق دي جورجونيا بهذا الصك ؟

ان زوج مرغريت دي هينوت حين وقع عليه ارتكب جناية يعاقب عليها الشرع كما يعاقب قاتل امه وأبيه ، فهل تريدين له هذا العقاب وفيه إنقاذ بنتك ؟

فامتثلت وخرج الاثنان فذهبا تواً الى قصر سانت بول .

وهناك أخذ بيدها وسار بها في طريق خفيـة تؤدي الى قاعة اوديت دي شامديفر .

وهناك كانت في إحدى زوايا تلك القاعة ملكة فرنسا العظيمة التي كان الملك نفسه لا يدانيها بعظمتها أسيرة بيـد السجان وقد امتقع لونها حتى باتت كالأموات لا سيما حين قال لها ذلك السجان .

دعيه يفعل يا سيدي الملكة او اضطر الى قتلك .

وفي وسط القاعة ثلاثة رجال ينظرون مبهوتين منذهلين لا يستطيعون ان يفهموا شيئاً مما يرون .

وكان هؤلاء الثلاثة برسكايل وبراكايل وبرنكايل ، فانهم دخلوا الى القاعة دخول التيار الزاخر ولكنهم وقفوا عند دخولهم على ما وصفناهم به من الانذهال .

وفي آخر القاعة هاردي والدوق وكلاهما منذهل مبهوت لما سمعه من اوديت حين قالت :

باسافان لا تقتله انه ابي .

وقد نظر هاردي الى والد اوديت نظرة مؤثرة ثم ألقى سيفه الى الأرض ووقف امام الدوق كأنه يقول له :

اقتلني فلا أقتل والد التي أحبها .

ثم أخذ اوديت بين يديه وألقاها برفق الى مقعد وركع امامها ثم لم يعد يشعر بشيء في هذا الوجود .

وكان الدوق ينظر الى ذلك وقد اختلطت افكاره واصيب بذهـــول عجيب وكان بوسعه ان يقتل هاردي في تلك الساعة غير ان عينيه كانتـا شاخصتين الى اوديت وهو يقول في نفسه .

أهي ابنتي ؟ أحق ما سمعت ؟

وفيما هو على ذلك تراجع منذعراً وقـد اتسعت حدقتـاه ، ونظر الى الباب فقال :

هذه هي الأم ، بل هذا خيالها .

أما لورانس فانها دخلت والهة وهي تصيح قائلة :

روزالي !

فقال لها ساتان :

هذه هي ابنتك ، وهذا هو الدوق الذي قتلها .

وصاح هاردي قائلاً :

روزالي !

وكانت لورانس قد جثت على ركبتيها فوقف هاردي ولم يبك بل كانت تدل هيئته على انه غير حزين .

ولكن ذلك لم يكن غير بضع ثوان فان صوته تهدج بالبكاء فقد علم انه كان يحب روزالي بأوديت وان كلتيهما واحدة فجعل يسير في القاعة كالمجانين ويشير الى الدوق فيقول :

انه ابوها : ان هذا الرجل الذي قتلها ابوها .. اصغوا اليّ ايها الناس . ان الدوق دي بورجونيا قتل بنته وانا لا يحق لي ان انتقم لها .

وقد ضاعت بقية كلامه بشهقة .

اما الدوق فانه لم يكن يرى غير ذلك الخيال ، خيال لورنس .. لورنس تلك التي قتلها وهو يراها الآن أمام عينيه كما كانت منـــذ اثنتي عشر عاماً دون ان تتغير تغيراً يذكر .

اما لورنس فانها لم تكن قالت غير كلمة واحدة وهي :

روزالي .

وقد ركعت أمام بنتها وطوقتها بذراعيها وجعلت تتمعن في وجهها ، ثم قالت بلهجة لم يفهمها غير هاردي :

نعم انها بنتي

اما الدوق فقد رآها كأنها تستشير نفسها في ما يجب ان تفعله ، ثم رآها قد حملت بنتها فجأة بين يديها دون ان يظهر عليها شيء من العناء ومشت بها الى القاعة يخفرها ساتان .

الى ان بلغت آخرها ، وهناك برسكايل ورفيقاه ، فقال لهم ساتان : افسحوا مكاناً .

فابتعدوا ممتثلين ، وخرجت لورنس بابنتها يتبعها الساحر وهي تحمل بنتها روزالي جريحة ضائعة الرشد وربما كانت ميتة .

وأما ايزابو فانها حين رأتها خرجت بها . أنت انين الموجع وحاولت ان تذهب في أثرها ولكنها وجدت ان السجان لا يزال قابضاً عليها فكادت تجن من الغيظ والقهر

وأما هاردي فانه التقط سيفه عن الارض والتفت الى برسكايل ورفيقيه دون ان تعجب لوجودهم ، فقال لهم : اتبعوني .

ثم التفت الى السجان وقال له :

دع هذه المرأة واتبعني .

فاطلق السجان سراحها ومشى الأربعة مع هاردي .

وعند ذلك صاح الدوق منادياً غليوم وتونفيل .

وصاحت الملكة قائلة :

الينا الينا .. ادركوا الملكة .

ففتحت الأبواب كلها ،ولم تكن غير لحظة حتى غصت تلك القاعة بالجنود والحراس يتقدمهم تونفيل .

فقال تونفيل : ليبق إثنا عشر لحراسة الدوق ومثلهم لحراسة الملكة وهلموا بنا لمطاردة القتلى .

فقالت الملكة بصوت يرتجف من الغضب :

اقبضوا اولاً على هذه المرأة .

وكان ساتان ولورنس قد مرا بالقاعة المجاورة فانقض تونفيـــل ورفاقه والتقوا بهاردي وأصحابه ، فالتفت هاردي الى ساتان وقال :

أنقذها ، أنقذها ، فاننا لا نستطيع مرافقتكم .. الوداع يا لورنس ، الوداع يا روزالي

***

٦٧

المشنقـــة

وأشتغل رجال تونفيل بهاردي وجماعته وسار الساحر بلورنس الى حدائق القصر وخرج بها من باب خفي الى الشارع وهو يقول :

لقد نجا الدوق دي بورجونيا مني ، واأسفاه فان صك الزواج لم ينفع هذه المرة .

ولكن كيف السبيل الى تغيير مجرى ذلك التيـار الذي يدفع الأم الى إنقاذ ابنها ؟

وعند ذلك نظر الى لورنس فشعر لأول مرة في حياته بعاطفه إعجاب ، فانها كانت على ضعف بنيتها قد اجتازت مسافة بعيدة وهي تحمل بين يديها الصبية دون ان يبدو عليها شيء من علائم التعب .

اما لورنس فقد كانت تسير الى الأمام لا تلوي على شيء وتضم بنتها الى صدرها برفق عظيم حذراً من ان تصيبها بسوء وهي لا تعلم الى أين تسير .. الى ان ادركها الساحر فوضع يده على كتفها وقال لها :

أليس الأفضل ان ندخل الى احد هذه المنازل فنضع فيه الفتاة ؟

فلم تجبه لورنس وواصلت سيرها .

فقال لها ساتان :

ألا ترين ان نضعها في مركبة ثم نذهب بها الى حيث تشائين ؟

فلم تحفل بقوله كأنها لم تسمعه ووصلت السير ..

فحاول إيقافها فقال لها :

اصغي الي فان المدينة غاصة بالعصابات . انظري الى اولئك الرجال المسلحين كيف ينظرون اليك وكلهم مدججون بالسلاح وهم يعجبون من انهم يروك تحملين ميتة

فقالت بصوت أبح :

من هذا الذي يقول ان ابنتي ميتة ؟

قال : كوني حكيمة عاقلة فانهم سوف يقبضون عليك .

قالت : من يجسر على ذلك ؟

ثم وقفت ونظرت بعينين داميتين الى اولئك الجموع الذين أشار اليهم ساتان نظرات تعجيز كأنها تعجز باريس بجملتها .

وكان في تلك النظرات من الجلال والسلطان والقوى الساحرة ما دهش له الساحر فقال:

نعم لا يجسر احد ان يتصدى لأم تنقذ بنتها .

وواصلت لورنس سيرها وتمت تلك الاعجوبة فلم يدن احد منها ولم يعارض احد سبيلها بل كانت العصابات تفسح لها الطريق ، وقد علم النساء موقفها فكن يرسمن علامة الصليب على وجوههن ويبكين ، ولم تشعر لورنس بشيء من الضعف واستمرت على سيرها .

وما زالت على ذلك حتى وقفت عند باب منزل مهجور تكسرت ابوابه فكان يشبه قلعة حوصرت ..

وكان هذا المنزل منزل باسافان ، وقد سارت لورنس بالسليقة الى ذلك المنزل الذي اقامت فيه زمان حداثتها ، وكانت فيه سعيدة مع بنتها روزالي .

ثم دخلت دون تردد وصعدت الى السلم ودخلت منه الى تلك الغرفة التي كانت تبيت فيها .

وكان مهد روزالي لا يزال فيموضعه واثاث الغرفة لا يزال كما كان ولكن الغبار كان يغطيه كسائر أثاث المنزل .

فوضعت لورانس بنتها على السرير وخاضت في لجة اليأس .

أما الساحر فانه إندفع راكضاً الى منزله ففتح خزانته الحديدية واخـذ منها خمس زجاجات مختلفة ، ثم برح المنزل مسرعاً الى هرمين فناداها وعاد بها الى منزل باسافان فلقى لورانس لا تزال في موقفها بجانب السرير وعيناها محدقتان بوجه روزالي دون ان تبكي .

ولكنها كانت من حين الى حين ترفع الشعر الذهبي الذي كان يغطي جبهة بنتها وتقبل ذلك الجبين الطاهر بمنتهى الرفق كما كانت تفعل حين كانت تريد إيقاظها وهي طفلة .

أما ساتان فانه دنا من لورانس وأمسك ذراعها.

فالتفتت وقالت له :

ماذا تريد مني دعني أحرس ابنتي .

فأجابها بلهجة الآمر قائلاً :

كفى ، أتريدين ان تموت ابنتك، أم تريدين ان تحبني ؟ فاذا اردت لها الموت ذهبت عنها ، واذا اردت لها الحياة فدعيني افعل ما اشاء .

ـ أتسألني اذا كنت اريد لها الحياة ؟

ثم ركعت امام الساحر وبسطت يديها كما كانت تفعل فيحداثتها حينتركع امام مثال المسيح .

وعند ذلك سالت الدموع من عينيها حتى روت بها الأرض ، وقالت :

من أنت ؟ انك كنت شيطاناً لي فكن ملاكاً لأبنتي واني اغفر لك ، بل أباركك على ما أسأت به اليّ ، وعن كل عذاب لقيته منك في ما مر بي من الأعوام بل اني أعبدك .

ولكن بنتي .. انقـذ بنتي أو اقتلني ، أو اجعلني خادمة لك اخدمك واباركك ما حييت .

قال: قفي ودعيني افعل فانياستطيع إنقاذ بنتك واريد إنقاذها ولكن يجب لأجل ذلك ان تتلبسي بلباس الشجاعة .

ـ ماذا يجب ان اصنع .. قل اني لا اخالف لك أمراً .

ـ أريد ان تذهبي فان صديقتك هرمين معي وهي تساعدني .

ـ كيف اذهب ألملك مجنون ؟

ـ نعم، يجب ان تذهبي.. اصغي اليّ ألعلك فيحالة من الرشد تستطيعين بها الاصغاء اليّ.

فنظرت لورانس الى ابنتها كأنها تلتمس من وجهها قوة لسماع الحديث . ثم التفتت الى ساتان وقالت :

نعم ، اني راشدة ولكني اخاف ان يضيع رشادي فقل ما تشاء قوله ، واعلم يقيناً انك لا تستطيع إقناعي بان ابنتي لا تنجو إلا اذا فارقتها .

قال : اني اهنئك بعواطفك الحنونة الراقية ولكن انظري الى صديقتك هرمين ألا تثقين بها :

فتقدمت هرمين منها وهي مغرورقة العينين بالدموع وقالت :

اني أفديك بحياتي .

فقالت لورانس : وأنا احبك حب اخت ولا حد لثقتي بك .

فقال ساتان : اذا كان ذلك فانك تقبلين ان تنوب عنك بضع ساعات في حراسة بنتك واذا رضيت فاني اضمن لك شفاءها من جراحها .

واعلمي يقيناً ان ابنتك في خطر الموت ولكن هذا الخطر غير محدق بها الآن بل يكون حين شفائها .

ـ ماذا تقول :

ـ أقـول ان روزالي تشفى ولكن حين تشفى تسألك عن الذي تحبه .

ـ من الذي تحبه ؟ ومن هذا الذي تحبه ؟

ـ هو ذلك الذي احبته منذ حداثتها ، وكانت وإياه في دور طفولتها

ذلك الذي انقذها حين كانت طفلة من نهر السين، ثم انقذها حين باتت صبية من ارزابو .

فضمت لورانس يديها وقالت بلهجة المعجب :

هاردي .. هاردي باسافان .

ـ نعم ، هو هاردي فانه حين يعود اليها رشدها وتسألك عن هاردي وتعلم انه مات تجدين انها تموت بين ذراعيك موتاً بطيئاً دون ان تستطيع قبلاتك رد الحياة اليها .

فشعرت المنكودة ان الجنون سيعود اليها وبذلت جهداً عنيفاً كي تتمكن من حفظ هداها ، ثم قالت له :

ألعل هاردي في خطر الموت ؟

ـ نعم ، وأنت وحدك تستطيعين إنقاذه .

ـ كيف لا اريد إنقاذه ؟ قل أين هو ؟ وماذا يجب ان اصنع ؟

فقال الساحر في نفسه :

أيها الدوق دي بورجونيا لقد دنت ساعتك .

ثم قال لها:

اني لا استطيع الانتقال من هنا لأني أريد ان ادافع الموت المخيم فوق هذا السرير

فعلي ان أحيي بنتك وعليك ان تحيي هاردي ومن أجل ذلك يجب ان تغلي يد الدوق الذي يريد قتله .

ـ ومن الذي يريد قتله ؟

ـ جان دي بورجونيا ، جان الذي لا يخاف .

فأطرقت لورانس برأسها واصفر وجهها حتى باتت كالأموات ، واخذت تتمتم باقوال لا تفهم .

فأخذ ساتان يدها بين يديه ، وقال لها كأنه قد قرأ افكارها :

لا تتهمي نفسك ، ولا تقولي انك تكفرين الآن عن ذنبك السابق فلست

أنت التي ارتكبت تلك الذلة بل هو الذي ارتكبها . نعم هو ذلك الخبيث السافل المحتال الذي عبث بطهارتك وخدعك شر خداع .

إذهبي وكوني شديدة قوية فقد خبأت في صدرك ذلك السلاح الذي يقتل ذلك الخادع المحتال .

ـ أتريد به الصك ؟

ـ نعم ، صك زواجك بجان دي بورجونيا ، زوج مرغريت دي هينوت التي لا تزال في قيد الحياة .

إذهبي اليه بين رجاله واظهري له هذا الصك تجـدي ان رجاله انفسهم يقبضون عليه ويزجونه في السجن الى ان يحاكم ويقتل .

ـ وهاردي؟

ـ انه متى قبض على الدوق دي بورجونيا تسقط تهمة هاردي من نفسها وتلصق بالدوق نفسه . إذهبي قبل فوات الأوان .

فخرجت لورانس دون ان تنظر الى بنتها لأعتقادها انها اذا نظرت اليها لا تستطيع مفارقتها .

وعند ذلك بدأ ساتان بمعالجة روزالي

أما لورانس فانها ذهبت تواً الى قصر سانت بول وهي تعلم يقيناً انها ستجد الدوق فيه .

وقـد مرت بساحة الاعتصاب فوجدتها غاصة بالناس ، ورأت المشنقة المنصوبة وامامها الجلاد واعوانه .

***

والآن لنعد الى قصر سانت بول ولندخل الى تلك القاعة التي خرجت منها لورانس تحمل بنتها حيث تركنا هاردي مع رفاقه وتونفيل مع رجاله .

فقـد كان عدد رجال تونفيل اربعين رجلا مدججين بالسلاح في حين ان هاردي لم يكن يصحبه غير اربعة وهم السجان وبراسكايل ورفيقاه .

وكان هاردي يقول في نفسه :

انه ليكفيني أن اثبت مع هؤلاء بضع دقائق وهذا كل ما كان يفتكر به في تلك الساعة .

ونعم ان روزالي كانت حية فيقلبه وقد علم ان اوديت هي نفس روزالي وانها ابنة الدوق دي بورجونيا .

ولكن كل افكاره كانت منصرفة الى الثبات في وجوه اعدائه بضع دقائق دون ان يضطر الى قتل الدوق دي بورجونيا .

ثم زالت منه افكاره هذه لاشتباكه في القتال فلم يعد يفتكر بشيء بل كان يقاتل .

أما تونفيل فانه دخل الى قاعة اوديت ليخبر الدوق بوفاة الملك .

وقـــد رأى هردي والدوق وايزابو فبعد ان أصدر تلك الأوامر التي ذكرناها اسرع الى الدوق وقال له :

يا جلالة مولاي .

فلسني الدوق موقفه وقال :

أتلقبني بلقب الجلالة ؟

— نعم يا مولاي فقد مات الملك وليحي الملك .

فصاح رجاله قائلين :

ليحيى الملك .

أما ايزابو فانها نظرت الى هردي نظرة نارية ثم دنت من الدوق فأخذت بيده وصاحت قائلة :

ليحيى الملك .

فصاح الدوق عند ذلك قائلا :

إلى الأمام واليكم اول امر يصدره الملك وهذا هو :

اقبضوا على هذا العاصي وسيروا به إلى ساحة الاعتصاب .

وقد أشار الى هردي فهجم الجنود عليه وعلى رفاقـه فكانت معركة هائلة وكان اول من قتل فيها ذلك السجان الشريف .

ثم سقط فوق جثته رجل آخر وهو برسكايل فقد أصيب بضربة فأس فلقت رأسه .

وكان تونفيل قد اشتبك مع هردي ونشب قتـال شديد بينهما فكانت الأحقاد تغلي في صدريهما كما تغلي المياه في المراجل .

وكان تونفيل يقاتل ويناجي رفاقه الثلاثة فيقول .

اني سأنتقم لكم .

انك آخر الأربعة فسألحقك برفاقك وابر بيميني .

ثم مد ذراعه بسيفه كأنما موت تونفيل كان امراً محتماً اتفق عليه مع القدر فلم يبقَ لديه ريب فيه .

وقد طعنه تلك الطعنة الهائلة التي طعن بها رفاقه من قبـل فسقط على الأرض قتيلاً لفوره دون ان ينبس بكلمة .

وعند ذلك هـاج من في القاعة هيـاج العواصف فنظر هردي نظرة الى الوراء فلم يرَ لورنس وساتان وأيقن انهما قد ابتعدا .

ورأى ان الدماء قد غطت وجهه ويديه ونظر إلى القتلى فرأى براكايل بينهم وقد انفلق رأسه بضربة فأس .

ونظر ايضاً فرأى برنكايل بجانبه يقاتل قتال الأسود وهو يبتسم كأنه يعد نفسه سعيداً لوقوفه بجانب هردي في ساحة القتـال واشتراكه معه في المعركة .

ولم يكن هردي قد تعلم غير القتال المنظم فنسي في تلك المعركة كل ما تعلمه من فنون ذلك القتال وجعل يضرب بسيفه كيفما اتفـق ويثب وثوب النمر من مكان الى مكان .

وكل ما ضرب ضربة تخضب سيفه بالدم ورجع الى الوراء فسكن لحظة ثم انقض كالأسد حين يتراجع متحفزاً للوثوب .

وقد كاثرت الشتائم من حوله واشتد الصياح ولكنه لم يكن يسمع شيئاً من كل ما يقال بل كان يضرب يمنة ويسرة فلا يرى أمامه غير المذعرين وكل ما فتك برجل حل محله سواه حتى بات حوله نحو اثني عشرة جثة .

وعند ذلك نظر نظرة إلى الوراء فأيقن ان روزالي قد نجت وان ساتان وامها قد خرجا من القصر .

وقد زاد تحمسه حتى بلغ بـه حد الجنون إذ خطر له في تلك الساعة الهائلة ان يلحق بروزالي فكان ينقض على مهاجميه انقضاض الصواعق .

وفيما هو يقاتل قتال القانطين رأي أمامه الدوق دي بورجونيا فصاح صيحة منكرة وقال :

والد روزالي .

أما الدوق فانه كان قد رأى ان تونفيل سقط قتيلا ففتح لنفسه ممراً بين جنوده وذهب الى هردي .

وكان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ حين رأى انه لم يبقَ من رجاله احد وهم امناء اسراره وآلة انتقامه ويده العاملة في تنفيذ اغراضه .

ولكنه كان يضمر تحت هذا الغضب سر .

وهو يقول في نفسه :

لم يبقَ احد الآن يستطيع اتهامي بقتل الدوق دي اورليان .

وقبل أن يصل إلى هردي كان رجل هائل الخلقة من الجنود قد رفع عموداً من الحديد وهوى به على هردي .

غير ان ذلك العمود لم يسقط على هردي بل تلقى الضربة عنه برنكايل لانه حال بين الجندي وبين هردي فوقع العمود على كتفه فوقع لفوره على الأرض لا يعي .

وفي تلك اللحظة كان الدوق قد وصل الى هردي فلما رآه هردي انزل حسامه وجعل رأسه الى الارض .

فرفع الدوق يده وأشار بهـا إشارة الأمر فتوقف للقتال للفور وسكن الهياج فلم يعد يسمع غير أنين الجرحى .

أما هردي فانه اطرق برأسه ورأى برنكايل صريعا عند قدميه فارتعش وسالت دمعة من عينه اشفاقاً على هذا الرجل الذي فداه بنفسه من الموت ثم رفع عينيه ونظر إلى الدوق .

فقال له الدوق .

اني واقف امامك فلماذا لا تقتلني ؟

قال : لانها تحميك .

فدنا الدوق منه حتى التصق به وهو يقول في نفسه :

انه لا يمكن ان يبطش بي وهو يعلم إني ابوها :

ثم التفت إلى الجنود وقال :

كفى الآن قتالاً فاقبضوا عليه .

فلم يستطع هردي الدفـاع لالتصاق الدوق به وهجم الجنـود عليه من كل جانب فصاح بهم الدوق قائلا :

احذروا ان يمسه أحد بسوء .

ولما رآهم قد طوقوه وقبضوا عليه قال :

ان هذا الرجل للقضاء وليس لنا وقد حكم عليـه بالموت لقتله الدوق دي اورليان فبات قتله من حق الجلاد كي يرى جميع الباريسيين كيف يموت القاتل فسيروا به الى ساحة الاعتصاب .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد الظهر فسلم رجال الدوق هردي إلى الحراس وهم نحو ستين حارساً فساروا به إلى ساحة الاعتصاب .

وعند ما خرجوا به دنا الدوق من ايزابو وتداول وإياها ملياً ثم قـال الكونت دي ما يلي الذي كان واقفاً بجانبه .

خذ يا كونت من تحتـاج اليهم من الحراس واذهب إلى كنيسة نوتردام فدق جرسها الأكبر .

فالتفتت ايزابو الى الدوق وهي تحاول الخروج من تلك القـاعة الخاصة بالجرحي وقالت له :

اذهب الآن، يا صاحب الجلالة، وعد ظافراً منصوراً وعد اليّ في الساعة الرابعة تجدني في كنيسة القصر .

ثم خرجت تمشي على مهل مشية المستكبر ، غير مكترثة لقتل زوجها ، ولتلك الدماء التي سفكت في سبيل شرورها واغراضها الآثيمة .

ولبث الدوق هنيهة ، وقـد برقت عيناه باشعة الكبرياء ، ثم تنهد عميقاً وقال :

أنا الملك .

فجردوا رجاله سيوفهم ومزقوا حجاب القضاء وهم يقولون :

ليحيي الملك .

فجرد الدوق حسامه ايضاً وصاح قائلاً :

الى الامام .. هلموا بنا لإبادة الارمانوكيين .

وبعد هنيهة لم يبق في تلك القاعة غير جثث القتلى والجرحى .

وعند ذلك تحرك أحد الجرحى وحاول النهوض فلم يستطع فشتم وعاود الكرة فتمكن من الركوع على ركبتيه ، ثم تمكن اخيراً من الوقوف والتوكؤ على الجدار .

وكان هذا الرجل برانكايل، فان ضربة العمود التي اصابت كتفه لم تقتله بل تركته مغمياً عليه .

وكان هذا الاغماء السبب في حياته ، اذ لو علموا انه باق في قيد الحياة لما أبقوا عليه .

وكان قد صحا من إغمائه والدوق لا يزال في القاعة ففتح عينيه ، ورأى الملكة والدوق كما يرى الحالم وسمعها يتحدثان.

فلما ذهب الجميع ووقف جعل يفتكر في حالته ويقول :

لست اشكو الآن إلا من الظمأ ، ولا يوجد رجل في الوجود يستطيع

إرواء ظمـأي ، كما يرويه الملك ، فلأذهب اليـه ولأضحكه يأمر لي بجميع أنواع الخمر .

ولكن لماذا تريد الملكة ان تعقد ذلك الاجتماع في كنيسة القصر وتعقد جلسة .

ولماذا صاح رجال الدوق ليحيى الملك ومن هو ملك فرنسا الآن ألملنا قتلنا ذلك الملك المسكين .

رباه ما هذه الدماء التي سفكت .. وأين هاردي دي باسافان ؟

وقد كاد يسقط فاستند الى الباب ، وضغط على جبينه بعنف ، ثم جعل ينظر الى ما حواليه فقال :

هوذا براسكايل .. وهوذا براكايل .. اجيباني أتذكران إنا قتلنا ذلك الملك الكريم الذي يحب ان يضحك ، وهل مولانا الدوق دي بورجـونيا ملك فرنسا .

ان الشقيين لا يجيبان ولكنهما من الأموات .

رباه اني أكاد اموت ظمأً فجد عليّ بكأس خمر .. نعم، يجب ان اشرب فلا احب ان يقتلني الظمأ .

ثم خرج من تلك القـاعة وجعل يسير الهويناء الى قاعة الملك الى ان تشدد وانعشه الهواء الطلق فذكر كل ما سمعه من الحـديث الذي دار بين الملكة والدوق ، وذكر أيضاً انه لم يقتل الملك ، فلم يعد يفتكر إلا بذلك المجلس الذي سيعقدونه في الكنيسة في الساعة الرابعة بعد الظهر .

وما زال يسير حتى وصل الى قاعة الملك ودهش لما رآه من تبعثر الأثاث فقال في نفسه :

يظهر انهم كانوا يقتلون في كل مكان .

ثم جعل ينظر نظر الفاحص الى تلك القاعة عله يظفر بزجاجة منسية .

فارتعش اذ رأى الملك في إحـدى زوايا القاعة يلعب بالورق مع جاكمين المصور .

وكان الرعب بادياً في وجه جاكمين واسنانه تصطك من الخوف فيمسح العرق عن جبينه ويقول :

أشعر ان الدم قد جمد في عروقي .

فيقول له الملك :

لقد جاء دورك باللعب فلماذا لا تلب يا جاكمين وبماذا تفكر ؟

ـ اني ارتجف رعباً ومع ذلك فاني لا أهرب فما هـذه الصداقة الغريبة التي قيدت نفسي بهـــا .. ان بيلاد وارمي ينظران اليّ من اعالي الاولمب نظرات اعجاب .

والحق ان جاكمين اظهر في ذلك اليوم من الاخلاص ما لم يظهره أحد .

وذلك انه سمع ما كان يجري في قاعة أوديت فأيقن ان المذبحة قد بدأت في القصر .

وقـد دخل الى قاعة الملك فعلم مما رآه ان القتال قد نشب فيها ايضاً ، ورأى الملك في الزاوية يلاعب نفسه بالورق فحاول الفرار ولكن الاخلاص تمكن منه وخيل له ان الملك يقول له تعالى يا جاكمين ولاعبني فقد تخلى عني جميع اعواني في اشد المواقف وحـاشاك ان تكون مثلهم فابق معي وعلم الناس الوفاء فاذا مات ملكك الذي اغناك وجعلك سعيداً فمت معـه اذ لا خير في الحياة من بعده وقد اذنت لك بتقلد السيف وجعلناك من الأشراف فجرد هذا السيف مرة في خدمة مولاك .

هذا ما كان يفتكر به جاكمين حين دخل برانكايل فقال حين رآه :

هوذا الناسك قد جاءنا وشعرت اني تشجعت بوجوده .

فقال الملك منذهلاً :

هوذا الناسك الذي يعرف وحده كيف يضحكني .. ولكن كيف ذلك اما حملتك من قدميك وحاربت بك الهواء وجلدت برأسك الأرض على انه يسرني ان أراك في قيد الحياة .

فقال له برانكايل :

مولاي ، اني ظمآن .

وقال جاكين :

وأنا كذلك فاني أسائل نفسي عن هـــذا العناء الذى اشعر به الى ان علمت سببه الآن .

فنهض الملك وذهب بنفسه الى غرفة مجـاورة ، ثم عاد بعد هنيهة يحمل قدر ما تسع ذراعاه من قناني الخمر المختلفة فبسطها على الأرض وقال :

لنشرب ولنلعب . .

هذه هي كانت حالة شارل السادس ملك فرنسا، بينما كانت باريس ثائرة والدمـاء سائلة ، والمؤتمرون يعملون على تعيين الدوق دي بورجـونيا مكانه .

فجعل جاكين وبرانكايل يرويان ظمأهما بينما كان المجنون المنكود يخلط الورق ويتكلم بأقوال لا تفهم .

وكانت اعراض الجنون قد سكنت وخفت فانها حين كانت تصيبه لم يكن يستطيع خلط الورق .

فلمـا أتم خلط الورق كان جاكين قـد شرب الزجاجة الاولى ، فقال الملك :

إذن لنبدأ اللعب .

وكان برانكايل قد برد غليله ، وعاد اليه كل رشده ، فالتفت الى الملك وقال :

مولاي ، انه في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم سيلعبون العاباً غريبة في كنيسة القصر .

فرفع الملك رأسه وحدق ببرانكايل .

فقال له برانكايل :

إسمع ، يا مولاي ، ما رأيت ، وما سمعت ، فانني اظن ان ساعة اللعب الحقيقي دنت .

ثم قص عليه جميع ما سمعه ورآه وكل ما حدث في قاعة أوديت .

* * *

ولنعد الآن الى ساحة الاعتصاب فقدكانت تلك الجماهير العظيمة المحتشدة فيها تنتظر فيها وصول المحكوم عليه بالاعدام .

وكان الحراس يتقدمون الى المشنقة وبينهم هاردي وهم يقولون :

افتحوا ممراً للقضاء .

فيصيح رجال الدوق قائلين :

هوذا قاتل الدوق دي أورليان .

ولكن كثيرين غيرهم من الحاضرين كانوا يقولون همساً:

هوذا المحكوم عليه ولكننا نريد القاتل فمن يعرفه ؟

ذلك ان اكثر الشعب كانوا يعتقدون ان هـذا المحكوم عليه غير القاتل ولكنهم كانوا يريدون ان يروه .

وكان هاردي يسير بين الحراس وهو مطلق اليدين فانه حين اراد أحـد الحراس ان يقيد يديه قال له :

لا فائدة من ذلك ، أيها الصديق ، فأنت ترى ان الفرار مستحيل وأنتم محدقون بي بخنـاجركم فدعني اسير بينكم مطلق اليدين واعلم يقيناً انك اذا حاولت تقييـدي دافعت عن نفسي حتى اضطركم الى قتلي وأما اذا تركتني مطلقاً عاهدتك على ان اصل الى المشنقة كما تريدون .

فاستصوب الحارس كلامه وخشي وعيده وأحدق به الحراس وسار بينهم طائعاً ممتثلاً الى ان وصلوا الى ساحة الاعتصاب .

وهنـاك كان أول ما رآه هاردي المشنقة فارتعد وتمثلت له الحياة بأجمل معانيها فأسف عليها .

وقد هاله ما كان يتوقعه من عذاب القتل .

فخطر له في تلك الساعة ان يحدث شغباً لا لطمعه بالفرار فقد كان موقناً

ان ذلك محـــال ولكنه كان يرجو ان يتمكن من قتل نفسه فينجو من ذلك العذاب .

ثم رأى ان ذلك ايضاً مستحيل فقال في نفسه :

حسناً ، فلأتشجع ولأظهر حتى آخر لحظة اني ابن باسافان .

ولم يكن خوفه من الموت نفسه بل من تلك المحرقة التي سيعذبونه فوقها على نار خفيفة بعـد قطع لسانه ويده فكان يفتكر بذلك التعذيب الفظيع يطير فؤاده شعاعاً ويقول :

رباه ، كيف اطيق إحتمال هذ التعذيب .

وكان الحراس قـد ابعدوا الناس عن المشنقة بعنف شديد فعلت أصوات الشكوى وتبين الغضب في الوجوه فأسرع هاردي الى صعود درجات المشنقة ووقف امام الجلاد .

فانحنى الجلاد وفحص آلة القطع فهز هاردي كتفيه إشارة الىعدم المبالاة، ثم نظر الى تلك الجماهير التي كانت تموج كالتيار الزاخر فسمع النساء يشفقن على شبابه ورأى كثيراً العيون تبكي عليه فقال في نفسه :

تشجع يا هاردي ومت كما يجب ان يموت ابن باسافان الملقب بالشجاع .. رباه لا ابالي بالموت ولكن هل استطيع إحتمال التعذيب دون ان اصيح .. روزالي .. روزالي .

وقد تمثلت له روزالي وشعر ان خيالها سيلين قلبه فصاح كما كان يصيح في ساحة القتال قائلا :

أنا هاردي .. انا هاردي دي باسافان .

فأجابه صوت قائلا :

لبيك .. لبيك .

فرأى هاردي حساماً قـد برق ، واصاب اثنين من الحراس ورأى ذلك الرجل يقول :

لبيك يا هاردي .

فصاح هاردي قائلا :
شاتليت .
ـ نعم ، فخذ هذا .
وقد ناوله خنجراً فقبض هاردي على الخنجر وقال له شاتليت :
تعال الآن ، أيها الصديق ، فقد صرنا اثنين .
فقال صوت من وراء هاردي : وأنا معكم أيضاً .
فالتفت هاردي مذعوراً ، فرأى الجلاد واقفاً امامه يحمل بيده فأساً فارتعش .
أما الجلاد فقد كان بوليفيه زعيم تلك الطائفة التي يلقبونها بالمردة تلك الطائفة التي وهبها هاردي منزله حين انقذته من البورجونيين كما تقدم .
وقد نزع الجلاد رداءه الاحمر وظهرت من تحته ثيابه البالية .
فنزع اعوانه لفورهم ارديتهم الحمراء ، ثم صعد درجات المشنقة نحـــو أربعين رجلا من تلك الطائفة .
فضج الناس وقد عرفوهم وصاحوا قائلين : طائفة المردة .
فرفع بوليفيه فأسه وقال :
نعم ، نحن طائفة المردة .. الينا ، أيها الرفاق .
فصاح شاتليت قائلا :
الى الامام .
وتكنى هاردي باسمه وقد بلغ اشد اطوار التحمس فجعل يقول :
أنا هاردي .. أنا باسافان .
وعنــد ذلك نزلت العصابة بجملتها درجات السلم ورجالها يزأرون زئير الأسود الضارية وقد برقت عيونها بأشعة الوعيد والرغبة في القتل .
وكان هاردي في طليعتهم وبجانبه شاتليت ووراءه بوليفيه يلقي الأوامر بملء الايجاز على عصابته كما يلقي القواد أوامرهم على الجنود في ساحة القتال.

وقد ذعر الناس لهذه العصابة وماجوا كالأمواج الزاخرة وبدأ القتـــال الرهيب تحت تلك المشنقة الهائلة ..

وعند ذلك دق جرس كنيسة نوتردام فملأ ضجيج الناس من دقه ثم ساد السكوت هنيهة ثم أجابت أصوات المتقاتلين اصوات الأجراس ، ثم جعـل فريق من الناس يتراكضون من شارع الى شارع ويصيحون قائلين :

الإشارة الإشارة .

ذلك ان دقات الجرس كانت الإشارة التي عينها الدوق دي بورجونيا .

فسأل شاتليت بوليفيه وقد هاله هذا الضجيج وهو يقاتل فقال :

ما هذا ؟

فأجابه بوليفيه قائلاً :

انها الإشارة القاضية بإبادة الارمانوكيين .

قال : قبح الله البورجونيين ما اقدرهم على سفك الدماء .

وقد انقسم البورجونيون الى فرق كانت تسير الى أماكن معينة وأقامت فرقة كبيرة على ضفة السين يصيحون :

ليمت أرمنياك وأشياعه . . . اليوم يوم الانتقام . . . هذه هي ساعة الارمانوكيين .

وفي الجزيرة على مسافة قريبـة من موقف الجنود كان النـاس يصيحون قائلين :

الحرية الحرية

وكان هؤلاء فريق العامة وأشياع كابوش حليف الدوق بالظاهر فجعلوا يصيحون هذه الصيحات ويزحفون الى قصر سانت بول .

فتمكن الذعر من اهالي باريس حين رأوا تلك العصابات واولئك الجنود وكل يغني على ليلاه .

اما المعركة عند المشنقة فقد اشتد سعيرها وأحاط ثلاثمائة جندي بهاردي

وشاتليت وطائفة المردة فكان قتالاً شديداً لم يرَ فيــه غير السيوف تلمع والفؤوس تنقض على الرؤوس والوجوه المخضبة بالدم والعيون المتقدة بنـار الحقد ولا يسمع غير الشتائم وأصوات الوعيـد وأنين الجرحى وصيحات اليأس ..

وعلى الجملة فقد كانت ساعة هائلة تشيب لها الولدان .

اما هاردي فانه كان قد التقط سيفاً من ساحة المعركة وجعل يقاتل به وبالخنجر فلا يرفع يده ويهوي بها إلا وقد تجندل رجـل على الأرض وقـد نزل عليه نزول القضاء المحتوم .

كل ذلك وهو يندفع الى الأمام ويتكنى باسمه فيتبعـه شاتليت وعصابة المردة وقد فتكوا بالجنود فتكاً وبيلاً .

وما زالوا يقاتلون ويتقدمون حتى رأى هاردي انه باتـفي شارع سانت انطوان وانه لم يبق هناك جنود ولم يرَ غير عصابات العامة .

ولكن تلك العصابات كانت تسير زاحفة دون ان تهتم لهاردي وجماعته فانها كانت تسير الى الجهة التي عينت لها .

وعند ذلك عانق شاتليت هاردي وكلاهما مخضب بالدم ودنا منه بوليفيه وقال له :

لقد نجوت الآن .

فمد هردي له يده مصافحاً وقال له :

نعم لقد نجوت بفضلك ولكن كيف كان ذلك ؟

قال : ان الأمر بسيط وذلك ان كابوش زعيم العامـة من اصحابي لا يرفض لي ملتمساً .

فلما علمت انهم قبضوا عليك وانهم سينفذون فيـك حكم الإعدام ذهبت اليه وسألته مساعدتي على إنقاذك فأبى في البدء متعللاً .

ثم وافقني على ما اريد بعد ان اقنعته وأخبرته بحقيقـة امرك فساعدني

على إنقاذك كما رأيت .

والآن ، لم يبقَ بد من خروجك من باريس بعد نجاتك ، فالى اين تريد ان تذهب ؟

فأجابه هاردي بصوت أجش قائلاً :

اريد الذهاب الى قصر سانت بول .

٦٨

الدوقة اورليان

في ذلك اليوم كان قصر دي ارمانياك غاصاً بالنبلاء وقد اجتمعوا فيه في الساعة الحادية عشرة للمداولة في الحالة الحاضرة .

فكان كل هنيهة يأتيهم رسول يخبرهم بما يجري في باريس .

وكان الكونت دي ارمانياك يستقبل هؤلاء الرسل وهو بملابسه الحربية وقد احاط به النبلاء .

الى ان حان الظهر فدخل رسول وهمس في أذن الكونت بضع كلمات ، فارتعش الكونت ارتعاشاً عنيفاً ، ثم ملك نفسه ونظر الى الاسياد المجتمعين فقال :

لقد افتتحت الجلسة ايها الأسياد فليبدِ كل منكم رأيه .

فوقف الكونت نامور وقال :

لا أرى حاجة الى الاجتماع وعقد الجلسات فليمتط كل منا جواده وليزحف على البورجونيين

فتلقى الجميع هذا القول بالهتاف والتصفيق فرفع الكونت أرمانياك يده يدعوه الى الأصغاء فقال :

ايها السادة : لقد أشار الكونت تامور بالحملة على البورجونيين ووافقتم على قوله لما عهد فيكم من الحماسة .
غير ان ذلك بات صعباً الآن ، ولا بد لي من ان اخبركم بحقيقة موقفنا فاسمعوا :

اننا كنا نجهل مؤامرة الدوق دي بورجونيا لغاية صبـــاح اليوم ، فلما دعوتكم ولبيتم الدعوة كان قد فات الأوان ، فان جميع شوارع وقلاع باريس قد احتلها الاعداء بحيث لم يبقَ لنا إلا ان نموت موت الأشراف .
فقال له الدوق دي مار :

لقد اتفقنا منذ منيهة على ان نذهب الى قصر سانت بول مع السيدة دي اورليان فنحاصر فيه بحيث نستطيع المحاصرة عاماً الى ان يعلم جميع نبلاء فرنسا بما نحن فيه ويأتوا لنجدتنا .

هلموا ايها الأسياد ولنمت في سبيل الدفاع عن العرش فان لفرنسا ملكاً فندافع عنه .
فنهض الكونت دي ارمنياك وكانت هيئته تدل على الاضطراب العظيم فقال :
ايها السادة ان الملك قد مات .

فهاج المجلس لهذا النبأ الذريع ومضى الكونت في حديثه فقال :
نعم ان أيادي أثيمة قتلت الملك في قصره كما قتلت أخاه من قبله فصلوا من اجله . .

فنسي الجميع موقفهم وركعوا يصلون ثم نهضوا وجعل كل منهم ينظر الى الآخر نظرات تشف عن الرعب إذ ثبت لهم ان النصر قد تأيـــد للدوق دي بورجونيا .
وعاد الدوق الى الحديث فقال :
انكم ترون ايها السادة اننـــا لا نستطيع الالتجـــاء الى قصر سانت بول

ولا يحق لنا ان نعرض نفوسنا للقتل في شوارع باريس لأننا تعاهدنا على ان نوصل الدوقة دي اورليان الى اراضيها ، فاسمعوا ما أرتئيه :

أرى ان نقيم أرملة صديقنا العزيز في مركبة ونخرج بها من باب سانت انطوان دون ان نهتم بمن يقتل منا ومن بقي حياً يتولى خفارة الدوقة الى ان تصل سالمة الى أرضها .

فنظر كل الى رفيقه وهو ساكت واجم ، فقد كانوا يودون مقاتلة البورجونيين ولكنهم رأوا ان من واجباتهم إنقاذ أرملة الذي كان يتولى رياسة حزبهم .

وعاد الكونت الى الحديث فقال :

ان الدقة دي اورليان انما أرادت المجيء الى باريس لتطالب بقاتل زوجها وكان من واجباتنا ان نخفرها ونساعدها ونؤيد مطالبها .

اما اليوم ايها الأسياد فقد انتصر القاتل ولا بد لنا من إنقاذ الأرملة النبيلة من قبضته ، فانه لا تمضي ساعتان حتى يقبض عليها .

ومتى قتلنا جميعنا من حولها لا يبقى لها غير الانتحار كي تنجو من قاتل زوجها بالموت .

ولذلك ارتأيت ان نرجع عما عزمنا عليه من المقاتلة في باريس ، فاننا نتخذل في هذا القتال لا محالة ولا بد لنا ان نحصر قوانا ونجردها لإنقاذ الدوقة ، فانها تعتبر الآن زعيمة النبلاء في فرنسا .

ومتى خرجنا من باريس وجمعنا النبلاء بحملتهم واتفقت كلمتنا نجمع رجالنا ونحمل على باريس فنستولي عليها ونقيم على فرنسا أحد ابناء أسرة. قالوا ، فماذا ترتأون ؟

فقال الكونت دي بار : اني موافق على رأي الكونت .

واستحسن الجميع هذا الرأي إذ لم يجدوا خيراً منه .

وقال الكونت نامور وكان أشدهم تحمساً :

وأنا اوافق ايضا لا سيما وان القتال لا بد منه فاننا لا نخرج من باريس دون ان يتصدى لنا البورجونيون .

وعنـــد ذلك فضت الجلسة ، فلبسوا ملابسهم الحربية وتقلدوا سلاحهم وامتطوا جيادهم ووقفوا امام باب القصر ينتظرون مركبة الدوقة وهم مائة وثمانون نبيلاً وفي طليعتهم الكونت أرمانياك .

وكانوا يسمعون في الشوارع صياح البورجونيين يقولون :

ليحيي الدوق دي بورجونيا وليمت الارمانوكيين .

واحياناً يسمعون صياح الناس يقولون :

لتحيي الحرية .

فاذا سكتت هذه الاصوات ، ارتفعت أصوات الاجراس في الكنائس .

ولكنهم اذ رأوا ان الدوقة دي أورليان قادمة اليهم بملابس الحداد تستند الى ذراع الكونت دي أرمانياك ومعهـا إمرأتان من النبيلات اشتد تحمسهم وصاحوا قائلين :

ليحيى الملك .. ليحيى النبلاء .. ليحيى أرمانياك .. السلام على دوقة أورليان .

وبعضهم كانوا يقولون ليمت البورجونيون .

أما الدوقة فانها دنت من المركبة وقالت : إفتحوها .

فتردد أرمانياك في إصدار هذا الامر فقالت له :

اني أريد ان يرونا وان تنال حظنا من الخطر المحـدق بكم فنشارككم فيه فاذا قتلت لا أحقد على قاتلي فان الحياة عندي خير منها الموت .

فلم يسع الكونت مخـالفتها وفتح المركبة فجلست الدوقة في وسطهـا وجلست أمامها السيدة دي كوسي والسيدة دي بوزيه ، وامتطى الكونت جواده .

وعند ذلك جرت تلك الحـادثة التي كانت تمثل نبـلاء الفرنسيين في ذلك

العهد أولئك الذين كانوا يلامون على كل اعمـالهم ما خلا الخوف فانهم كانوا لا يهابون الموت .

ثم دنا خادم الكونت منه وقدم له الخوذة فأبى ان يلبسها وقال مخاطباً الأسياد .

انزعوا الخوذة اذ يجب ان يرونا حاسري الرؤوس .

فامتثل الجميع لامره ، ونزعوا خوذهم في لحظة عين فالقوها الى الأرض فصاح الكونت قائلاً :

إفتحوا الأبواب .

ففتح الباب الاكبر في الحال وخرجت مركبة الدوقة تخفرها النبلاء وفي طليعتهم الكونت أرمانياك فوصلوا الى شارع سانت أنطوان دون ان يحدث لهم حادث في الطريق .

وهناك ، لم يبق لهم إلا ان يبلغوا باب سانت أنطوان ويخرجوا من باريس .

وفيا هم يسيرون رفع الكونت أرمانياك يده وقال : إحذروا .

فالتفت الجميع الى المكان الذي أشار اليه فرأوا جماهير من الناس يسدون الطريق وكلهم مسلحون بأسلحة مختلفة ويصيحون قائلين :

الحرية .. الحرية .

وقد تبينت في وجوههم صحة العزيمة على الموت أو نيلهم حريتهم .

وكان بينهم نساء وغلمان ، فلما وصل موكب الكونت اليهم جرد النبلاء سيوفهم وهموا بالهجوم .

غير ان الكونت رفع سيفه إشارة الى وجوب الامتناع عن الهجوم ، اذ رأى بين تلك الجماهير فريقاً كبيراً من النساء وقـد تقدمن الموكب وسددن منافذ الطريق .

فقال لهن الكونت : أيتها النساء ، دعونا نمر .

فقالت إحداهن : ماذا يقول هذا الافعي ؟

وقالت غيرها : لم يعد لأرمانياك كلمة مسموعة

وقالت ثالثة : ليست الذين يشبعون من جوعنا .

وقالت رابعة : ليست أرمانياك والأرمانوكيون .

فعزم الكونت على الهجوم إلا انه رأى عند ذلك ما أدهشه فان أولئك النسوة قد تفرقن فجأة فخيل للكونت في البدء انها مكيدة .

غير ان أولئك المنكودات لم يكن من أهل المكايد ولم يكن تفوقهن إلا لأنهن رأين الدوقة دي أورليان في المركبة ، فعلمن ان أولئك النبلاء يخفرونها .

وكان للدوقة أورليان منزلة رفيعة في قلوب عامة الشعب، كما بسطناه في غير هذا المقام، فلم تلبث ان قالت إحداهن ان هذه هي الدوقة دي أورليان حتى افترقن فقالت إحداهن :

إبتعدوا من طريق الدوقة المحسنة .

وقالت أخرى : انها انقذت زوجي من الاضطهاد .

وقالت غيرها : انها اخرجت ولدي من سجن شاتليت .

وقالت سواها : انها انقذتنا من مهاوي الشقاء بإحسانها .

فصحن جميعهن قائلات :

لتحيى الدوقة دي أورليان .. السلام بالاحترام على ملاك الشعب .

وعند ذلك فتحت الطريق فسار موكب الدوقة بين تلك الجماهير غير انه لم يلبث ان اجتاز تلك الجماهير حتى تعرضت له جماهير اخرى لم يكن بينها نساء هذه المرة يهتفون للدوقة .

فعلا الصياح وخرجت السيوف من أغمادها ونشب القتال فكان قتالاً هائلاً مخيفاً .

وقد اجتمع البورجونيون واحدقوا بأولئك النبلاء الذين يخفرون الدوقة فدافعوا عنها دفاع الأسود واستمرت المعركة ساعة والنبلاء يقاتلون ويتقدمون الى باب سانت أنطوان .

وكان النصر ظاهراً في جانب البورجونيين وقد وقف الدوق بينهم يحمسهم على القتال ويحثهم على إبادة الارمانوكيين بحملتهم حتى لم يبق مع أرمانباك غير عشرين نبيلاً وقتل الخدم بحملتهم، ولكن المركبة كانت قد اقتربت من باب سانت أنطوان .

عند ذلك سمع صوت يلعلع كالرعد القاصف ويقول :

أنا هاردي .. أنا هاردي .. انقذوا الدوقة .

فالتفت البورجونيون منذعرين وقالوا :

هو ذا المردة.

وانتعشت قلوب من بقي من النبلاء بهذه النجدة .

وهجم المردة برئاسة زعيمهم وفي طليعتهم هاردي وشاتليت .

وحكايتهم انهم حين انقذوا هاردي وابتعدوا به عن ساحة الاعتصاب سأله زعيمهم قائلاً :

يجب الآن ان تخرج من باريس. اذا أردت ان تأمن الخطر فالى أين تريد ان تذهب ؟

قال : الى قصر سانت بول .

وانما قال هاردي هذا القول لاعتقاده ان روزالي لا تزال في القصر فذعر بوليفيه لما سمعه وقال :

انك تريد ان تنتحر فلا استطيع ان أوصلك الى باب القصر .

وساروا وهم نحو عشرين عصابة فكانت عصابات العامة لا تعرضهم لتحالف الزعيمين .

حتى اذا اقتربوا من القصر التقوا بالأرمانوكيين والمعركة ناشبة بينهم وبين البورجونيين فرأى هاردي الدوقة أورليان في مركبتها المفتوحة ونظر نظرة سريعة الى مواقف الخصمين فأيقن ان النصر قد استتب للبورجونيين وصاح قائلاً :

يجب إنقاذ الدوقة .

وعند ذلك تداول مع شاتليت وبوليفيه رئيس عصابة المردة مداولة وجيزة فأرسل بوليفيه أحد رجاله الى احدى عصاباته التي كانت كامنة عند باب سانت انطوان لتسهل لرجاله الفرار إذا اضطروا ان يخرجوا من باريس .

ثم انقضوا بحملتهم على البورجونيين وفي طليعتهم وهو يصيح قائلاً :

أنا هردي .. أنا هردي دي باسافان يا ويلكم ابعدوا عن الدوقة دي اورليان .

٦٩

قصر سانت بول

ولنعد الآن إلى لورنس والدة روزالي فقد تركناها سائرة إلى قصر سانت بول لتشي تلك الوشاية الهائلة بالدوق دي بورجونيا وتقضي عليه القضاء المبرم كما علمها ساتان لاعتقادها ان هردي لا يسلم من العقاب إلا اذا قبض على الدوق وظهرت جنايته .

وقد مرت بساحة الاعتصاب ورأت تلك المشنقة منصوبة فوقفت عندها وهي تعلم يقيناً انها نصبت لاعدام هردي .

ثم رأت عن بعد ما فعلته عصابة المردة فاخترقت صفوف الناس الى المشنقة حتى باتت على قيد عشرين خطوة منها .

وهناك ثار ثائر المردة ورأت انهم انقذوا هردي ثم رأتهم يسيرون وبينهم هردي .

فجعلت تقفو اثرهم ولا غرض لها إلا ان تدرك هردي فتقول له :

إلى أين انت ذاهب تعال معي إلى روزالي فهي تنتظرك .

ولكنها لم تتمكن من الوصول اليه لكثرة الزحام حتى وصلوا إلى شارع

سانت انطوان ونشبت تلك المعركة الهائلة بينهم وبين البورجونيين فكانت تارة ترى هردي يثور ثورة العواصف ويدافع عن مركبة الدوقة دفاع اللبوة عن اشبالها وتارة يتوارى عنها بين الجماهير فلا تسمع غير صوته يلعلع في الفضاء .

ولكنها رأته يندفع إلى باب سانت انطوان فهلع قلبها من الخوف وقالت :

رباه انه يحاول الفرار والخروج من باريس فما يكون من روزالي اذا يئست من لقائه .

ثم جعلت تصيح بأعلى صوتها قائلة .

هردي .. ولدي هردي .

ولكن أين لصوتها الخافت ان يبلغ إلى مسمعه وهو في هذا القتال .

وما زالوا يدافعون عن المركبة وهي تتقدم إلى باب سانت انطوان وهناك أشار بوليفيه الى عصابته ان تفتح الباب ففتحه ورفعت الجسر فوق الخندق فخرجت مركبة الدوقة عليه ومعها الكونت دي ارمانياك ومن بقي من رجاله بينما كان هردي وشاتليت وعصابات المردة قد وقفت عند ذلك الباب وحالت دون مطاردة البورجونيين .

أما البورجونيون فانهم اكتفوا بطرد ارمانياك من باريس وقتل رجاله وجعلوا يصيحون صيحات الانتصار .

خلافاً للدوق فانه رأى هردي بين تلك العصابات فتوهجت عيناه من الغضب وقال :

اني لا أتق من انتصاري ما زال هذا الرجل في قيد الحياة .

ثم رفع حسامه الدامي وصاح برجاله قائلاً :

هلموا بنا الى قصر سانت بول .

فساروا جميعهم سير الفاتحين وهم يصيحون قائلين :

ليحيى الملك .

فهز الدوق رأسه لهذا الهتاف إذ خيل له في البدء ان انقاذ هردي من الاعدام لا يعد حادثة خطيرة في جانب حوادث هذا اليوم ثم رأى ما كان منه بعد نجاة الكونت ارمانياك فقال :

لا رجاء لي بالانتصار وهذا الرجل الجهنمي في قيد الحياة .

ومع ذلك فان رجاله كانوا يهتفون له قائلين ليحي الملك .

وكلهم واثقون ان النصر استتب لهم على ما يرون .

وساروا جميعهم إلى قصر سانت بول يدفعون امامهم زعيمهم وملكهم جان دي بورجونيا حتى دخلوا القصر فقالوا :

اهدوا بنا إلى كنيسة الملك .

وقد دخل كثير من الناس مع البورجونيين فكان عدد الذين دخلوا مع رجال الدوق مائتي رجل أما بقية جنوده فقد كانوا متفرقين في الشوارع .

أما الدوق فانه دخل الى قاعة الاستقبال الملكية وهي قاعة عظيمة يبلغ طولها مائة وخمسين قدماً وفي وسطها عرش شارل السادس الذي لم يكن يجلس عليه إلا في الحفلات الخاصة .

ومهما يكن من غرابة ذلك اليوم التاريخي فان دخول الدوق دي بورجونيا وغيره إلى هذه القاعة كان أشد غرابة .

فقد دخل الدوق في البدء يصحبه مائتان من رجاله .

وعلى قيد بضع خطوات منه كان هردي يسير مع الجموع باحثاً عن روزالي وهو واثق انه سيموت في هذا القصر .

وبالقرب منه شاتليت ووراءه بوليفيه وعصابته فانهم أبوا أن يتخلوا عن هردي بالرغم من إلحاحه عليهم بالانصراف .

ووراءهم نحو الف انسان بين رجال ونساء وغلمان وهم لا يعلمون إلى أين يسيرون ولا ماذا يعملون .

وقد اختلط الحابل بالنابل وامتزج جميع اولئك الناس بعضهم ببعض وجعلوا يهتفون قائلين : ليحي الملك وهم لا يعلمون أي ملك يعنون ولكنهم كانوا يهتفون هتاف البورجونيين من قبيل المجاراة .

فلما وصل الدوق إلى قرب ذلك العرش والجماهير من ورائه وقف متذعرا حائراً ووقف الجميع لوقوفه .

ذلك انه سمع عن بعد قرع الطبول وهي تدق تلك الدقة الخاصة بشارل السادس في أيام النصر او في الحفلات الكبرى التي يأتي فيها الملك إلى هـذه القاعة ويجلس على عرشها العظيم .

وقد ارتجف الدوق حين سمع تلك الطبول وجرد حسامه المصبوغ بالدم وقـــال .

اقسم بالله اني ...

ولكنه قبل ان يتم جملته فتح باب تلك القاعة الرسمي ودخـل حاجب فصاح قائلاً بصوت جهوري :

هوذا الملك .

وعند ذلك دخـــل شارل السادس وجلس على العرش وهـو بملابس التشريفـات الكبرى وهي مؤلفة من قبعـة طويلة مرصعة باللألىء ووشاح أزرق موشى بالذهب .

وكانت تتبعه امرأته ايزابو وعيناها تتوقدان من الغضب والرعب .

ثم دخل رئيس الحراس من باب آخر ومعه جميع حراس القصر واربع فرق من الجند وقد صبغت الدماء ثيابهم فانهم كانوا قد قاتلوا رجال الدوق ومنعوهم عن ان يتبعوا مولاهم إلى القصر بحيث بات الدوق أسيراً فيه .

وقد جرى كل ذلك بفضل برنكايل وجاكمين بل بفضل تلك الخمر التي لولا شدة ظمأ برنكايل اليها لما تجاسر على الدخول إلى الملك واخباره بما سمعه ورآه .

وقد اتفق ان الملك لم يكن مجنوناً حين علم هذا النبـــأ فنادى رئيس حراسه واخبره بالمكيدة فجمع كل ما تيسر له جمعه من الجنود وكاد هذه المكيدة للدوق فجعله يدخل الى القصر بعدد قليل من رجـاله وأقام قسماً كبيراً من الحراس على الباب كي يمنعوا البورجونيين من الفرار .

وقد كان لدخول الملك الفجائي إلى تلك القـــاعة مع اولئك الحراس والجنود تأثير عظيم على الدوق حتى شعر بأنه سيفقد رشاده وجعل يقول :

الملك في قيد الحياة !

ثم استولى عليه الغضب والتفت إلى رجاله وهم ان يصدر امره بالهجوم .

غير ان نظره التقى عند ذلك بنظر الملكة ايزابو فأشارت اليه إشارة سريعة فهم منها انه يجب ان ينتظر .

وفي تلك اللحظة اقترب منه أحد رجال الملك وهمس في اذنه قائلا :

تقول الملكة يا مولاي انك ما أتيت إلى هنا إلا لتسلم قاتل أخيك بعد ان هرب من المشنقة .. اسرع وقل هذا القول يا مولاي إذ لا سبيل الى القتال فانه يوجد خمسة آلاف جندي في القصر . قل هذا القول واصدع بأمر الملكة فان هردي واقف وراءك .

فادرك الدوق حقيقة موقفه وأسرع الى الامتثال فالتفت إلى رجاله وقال مشيراً الى هردي .

اقبضوا على هذا الرجل وسلموه الى جلالة الملك .. ليحيى الملك .

فهتف البورجونيون قائلين :

ليحيى الملك .

ذلك لأنهم عرفوا ما عرفه الدوق وادركوا قصده .

وبعد هنيهة جروا هردي الى قرب عرش الملك .

وعند ذلك تقدم الدوق دي بورجونيا وقد امتقع وجهه فنهض الملك وأجال نظره بين الحاضرين حتى استقر على جاكمين وبرنكايل اللذين كانا واقفين بجانبه فابتسم لهما .

فقال له برنكايل : اني أكاد أموت ظمأ فلا تخف فاني سأشرب دماءهم

فابتسم الملك وقال له :

بل تشرب اطيب الخمور ايها الناسك المحترم .

ثم التفت الى الدوق وقال له :

إذن لقد خاطرت يا ابن عمي العزيز بحياتك وقبضت على هذا اللص الذي كاد يثير المدينة

قال : هو ذاك يا مولاي .

وقد سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، فقال الملك :

أهذا هو القاتل ؟

قال : نعم يا مولاي انه قاتل أخيك العزيز الدوق دي اورليان .

فهز الملك رأسه وجعل برنكابل يشتم بصوت منخفض أقبح شتم .

وعند ذلك سمع صوت امرأة يقول :

جان دي بورجونيا ، انك كاذب في ما تقول .

فارتعد الدوق رعباً كأنه عرف صاحبة هـذا الصوت والتفت ببطء الى مصدر الصوت فقال والرعب يلعثم لسانه :

رباه هذا هو الخيال .

وقد أحدقت انظار كل من في القاعة بلورانس .

وتقدمت لورانس فجعل الجميع يتراجعون ويفسحون لها مجالاً .

اما الملك فقد سأل قائلاً :

من هي هذه المرأة ؟

فأجابه هاردي على سؤاله قائلاً :

ان هذه المرأة هي القضاء ، فاسكت يا مولاي ودع القضاء يتكلم .

وكانت الحادثة غريبة في بابها حتى ان النـــاس وشارل السادس نفسه لم ينتبهوا لجسارة هاردي ومحادثته ملك فرنسا بهذا اللسان .

اما الدوق فانه تراجع مذعوراً وقد ملأ الرعب قلبه ووقف ينتظر وصول الخيال اليه وهو يحدق به تحديقاً يشبه تحديق المجانين .

وقد وقفت لورانس امام الدوق وقالت له :

جان دي بورجونيا ، انك تعرف قاتل الدوق دي اورليان فقل من هو

فنظر الدوق الى ما حواليه نظرة قانط فعلم انه لا حيلة له بالافلات من يد القضاء وقال بصوت خافت :

انه هاردي دي باسافان .

فأخرجت لورانس الصك من صدرها ففتحته وقالت :

جان دي بورجونيا انك كاذب في ما ادعيته وأنت تعرف إسم القاتل ،

فقال بصوت أبح :

كلا ايها الخيال ، وإني أأمرك باسم الله ان تنصرف .

ـ قل اسم القاتل .

ـ لا اريد .

وقد ظهر على الدوق ان صوته قد بح كأنما يدأ غير منظورة قد قبضت على عنقه .

فاقتربت منه لورانس وقالت له :

إذا كان ذلك فسأقرأ لك هذا الصك ، فاصغ يا جان دي بورجونيا

وقد رأي الحاضرون ان لورانس قد اقتربت من الدوق وسمعوا تمتمة صوتها بالقراءة دون ان يفهموا شيئاً مما تقول .

ولكنها بينا كانت تقرأ ذلك الصك .. صك زواجه وامرأته لا تزال في قيد الحياة ، ذلك الصك الذي يثبت جريمته وهو في ذلك العهد أشد فظاعة في عرف الناس والقانون من جريمة من يقتل أباه وأمه .

انها بينا كانت تقرأ كان الناس يرون الدوق ينحني كأنما يدأ خفية تضغط على عنقه .

وقد رأوا العرق يسيل من جبينه وعيناه غارتا وسمعوه يسألها العفو بلسان يتلعثم .

اما لورانس فانها بعد ان قرأت الصك طوته وأعادته الى صدرها ، وعند ذلك نظرت الى الدوق نظرة المنتصر وقالت له :

جان دي بورجونيا ، أتريد ان أقرأ هذه الورقة بصوت مرتفع ؟

قال لورانس : رحماك واغفري لمن كان يحبك .

ـ قل إسم القاتل .

فالتفت الدوق عند ذلك الى الملك وقد أصيب في تلك الساعة بجنون عارض دون شك .

فان قدوم الملك الفجائي وهو يعتقد انه ميت ودخول الحرس الملكي

إلى تلك القاعة التي كان قد دخل اليها ليجلس على عرشها وتهدم صرح أمانيه في كل لحظة كان ضربة هائلة .

ثم جاء بعد ذلك دخول الخيال أي لورانس فقضى على كل ما كان باقياً لديه من قوة الإرادة .

ثم جاء بعد ذلك تلاوة الصك ورؤية توقيعه عليه وهو يعتقد انه أحرقه من اعوام .

فكانت الضربة القاضية على إرادته وعزيمته فنكس برأسه الى الأرض وقال :

مولاي ان قاتل أخيك دي اورليان ..

فقال له الملك مغضباً .

ألا تريد ان تتكلم .. قل من هو ؟

— هو أنا .

— انت !

— نعم انا .

فسكت جميع الحضور لحظة في البدء كأنما حبست انفاسهم ثم ماجوا وبات همسهم يشبه صوت الأمواج الزاخرة .

أما الملك فانه التفت الى حراسه وقال بصوت يتهدج من الغضب :

اقبضوا عليه .. اقبضوا على الدوق دي بورجونيا .

فتسابق الحراس اليه .

ودنا سافوزي رئيسهم وقال له :

هات حسامك ايها الدوق .

غير ان رجال الدوق كانوا قد أحاطوا به بلحظة بحيث توارى بينهم وجعلوا يدفعوه إلى الباب ويتلقون الموت عنه فداء له .

وقد سالت الدماء انهاراً ولكن الدوق تمكن من الخروج سالماً من القاعة وبلغ الى ردهة القصر الكبرى .

***

لقد روى التاريخ حادثة اعتراف الدوق دي بورجونيا بقتل الدوق دي اورليان .

ولكن المؤرخين وقفوا حائرين في تعليل هذا الاعتراف لا يعلمون اسبابه.

حتى روى بعضهم ان ذلك كان من تقريع ضميره ولكن الحقيقة هي ما ذكرناه فلولا خوفه من فضيحة زواجه السري وعقابه أشد من عقاب القتل لما اختار اهون الويلين واعترف بالجريمة .

وقد أشكل عليهم ايضاً كيف كان خروج الدوق دي بورجونيا من قصر سانت بول واختلفت الاقوال في ذلك .

فيما قيل انه حدثت معركة بين المائتي بورجوني والحراس عند باب القصر الأكبر فدامت نصف ساعة قتل فيها خمسون من البورجونيين .

وان من بقي من الأحيـــاء وضعوا الدوق بينهم وهو غير اهل للدفاع وحملوا حملة القانطين على الباب فكسروه وخرجوا منه .

وهناك صاحوا صيحات الفرح واندفعوا إلى شارع سانت انطوان فامتطى الدوق جواده وسار في طليعتهم هـارباً إلى ديجون وقـد ترك كابوش ونحو الفي بورجوني يخرجون من مواقفهم الخطرة كما يستطيعون .

فكان في كل لحظة يلتفت إلى ورائه وكل ما سألوه عن امر يقول لهم : انظروا اذا كان الخيال يتبعنا .

هذا ما رواه التاريخ عن كيفية فرار الدوق غير ان الحقيقة التي اجمع عليها الكثيرون هو انه بينما كان البورجونيون يقاتلون عند الباب وقد يأسوا من النجاة انقض ثلاثة مثل الاسود على ذلك الباب ففتحوه عنوة وكانت امرأة تتبعهم .

وعند ذلك اسرع الدوق إلى الخروج فهجم عليه احد هؤلاء الثلاثة ولكن أحد وفاقه قبض عليه بيد من حديد ومنعه عن الهجوم عليه .

فالتفت رفيقه اليه متذعراً وقال :

كيف ذلك أأدع القاتل يهرب ؟

قال : نعم فانه والد روزالي .

وكان هؤلاء الثلاثة هردي وشاتليت وبرنكايل .

أما المرأة فكانت لورانس.

***

إلى هنا انتهت وقائع هذه الرواية التاريخية ولم يبقَ علينا في ختامها إلا أن نبسط للقراء كيف كان مصير ابطالها .

فقد كان اول ما حدث ان الدوق حين وصوله إلى ديجون صحا من سكرة الجنون التي أصابته وذكر كل ما مر به وتولاه اليأس ومات منتحراً سنة ١٤٠٩ فخلفه في دوقيته فيليب لوبون .

وبقي شارل السادس مجنوناً كل مدة ملكه فاستبدت ايزابو بالأحكام وانشأت مجلساً للوكالة الملكية كانت هي رئيسته فظلمت ما شاء الظلم حتى ضج الشعب من مظالمها وفجورها .

وكانت الحروب لا تزال ناشبة بين الارمانوكيين والبورجونيين وعيون انكلترا محدقة بالبلاد الفرنساوية .

فأرادت ايزابو الانتقام من الفرنسويين الحاقدين عليها فوطأت فيليب خليفة الدوق دي بورجونيا على تسليم البلاد للانكليز بمعاهدة تروا فاستلم هنري الخامس ملك انكلترا عرش فرنسا سنة ١٤١٠ وبقيت البلاد الفرنساوية بأيدي الانكليز إلى ان انقذتها جان دارك .

وبعد ذلك لم تعد تتداخل في الأحكام وماتت سنة ١٤٣٥ بعد ان حرمت ابنها شارل السابع من الملك محتقرة مكروهة من الجميع ما خلا عشيقها ريدون الذي شفاه ساتان وأعاده اليها فلم يقتلها غير الحزن والقهر .

***

بقي ان نذكر ما جرى لروزالي وهردي فان امها لورانس عادت اليها تواً يصحبها هردي .

فوجدت ساتان منهمكاً في معالجتها وقد اتقدت عيناه سروراً حين رأى هردي وأيقن من سلامته فقد بات يحبه حب الآباء للأبناء .

ولكنه امتعض حين علم بفرار الدوق فانه على علمه وسمو نفسه كان لا يزال حاقداً عليه .

وفي اليوم التالي خلا بهردي وبسط له ما يحدق من الاخطار من اقامته في باريس .

لأن السلطة باتت في يد الملكة واتفقـا على ان يبرحوا جميعهم باريس إلى احدى القرى المعتزلة فان السكون ونقاء الهواء يساعدان على شفاء روزالي.

وفي ذلـك اليوم خرج ساتان وهردي ولورانس وروزالي من باريس الى قرية جميلة في الريف .

وأقـام ساتان يعالج الفتاة شهراً حتى شفيت من جرحها ولم تعد تشكو إلا من الهزال والشحوب الناتجين عن فقر الدم .

وهنا جاء دور هردي بالمعالجة فكان يخرج كل يوم الى النزهة مع خطيبته فيسيران ساكتين واجمين لا يتكلمان بغير القلوب والابصـار وينتقلان من متنزه إلى آخر كما تنتقل الاطيار علي الأشجار .

ويتهاديان بما يقطفانه من الأزهار كأنها رسائل غرام خطتها يد الطبيعة ثم يعودان وهي متكأة على ذراعه وهما يجدان المسافة قصيرة المدى ويتمنيان لو يسيران على مثل تلك الحال الى آخر خطوة من الحياة .

وقد قدمتها سعادة هذا الحب في مدارج العافية فتراجعت قواها وتورد خداها حتى كان طبيبها ساتان يعجب مما يراه في كل يوم من آثار التمـاثل حين عودتها من النزهة ويعلم ان مناجاة الغرام انجع من دوائه في معالجة الادواء .

وبعد ثلاثة اشهر احتفلوا بزواجهما احتفالاً بسيطـاً لم يحضره غير ساتان ولورانس وشاتليت وبرنكايل .

حتى إذا تم الزفاف وعادوا إلى المنزل قدم ساتان للعروسين هدية العرس وهي كل ما يملكه من تلك الجواهر النادرة التي لا يوجد مثلها في قصور الملوك .

واكره العروسين على قبول تلك الثروة وعاش بينهما فكان بمثابة أب حنون .

أما هردي فقد بقي مقيماً في الريف إلى ان نعت الأخبار الملكة ايزابو تلك المرأة الجهنمية التي حرمت ابنها من الملك وسلمت بلادهـا للانكليز فعاد إلى باريس .

﴿ تمت رواية الملكة ايزابو ﴾